

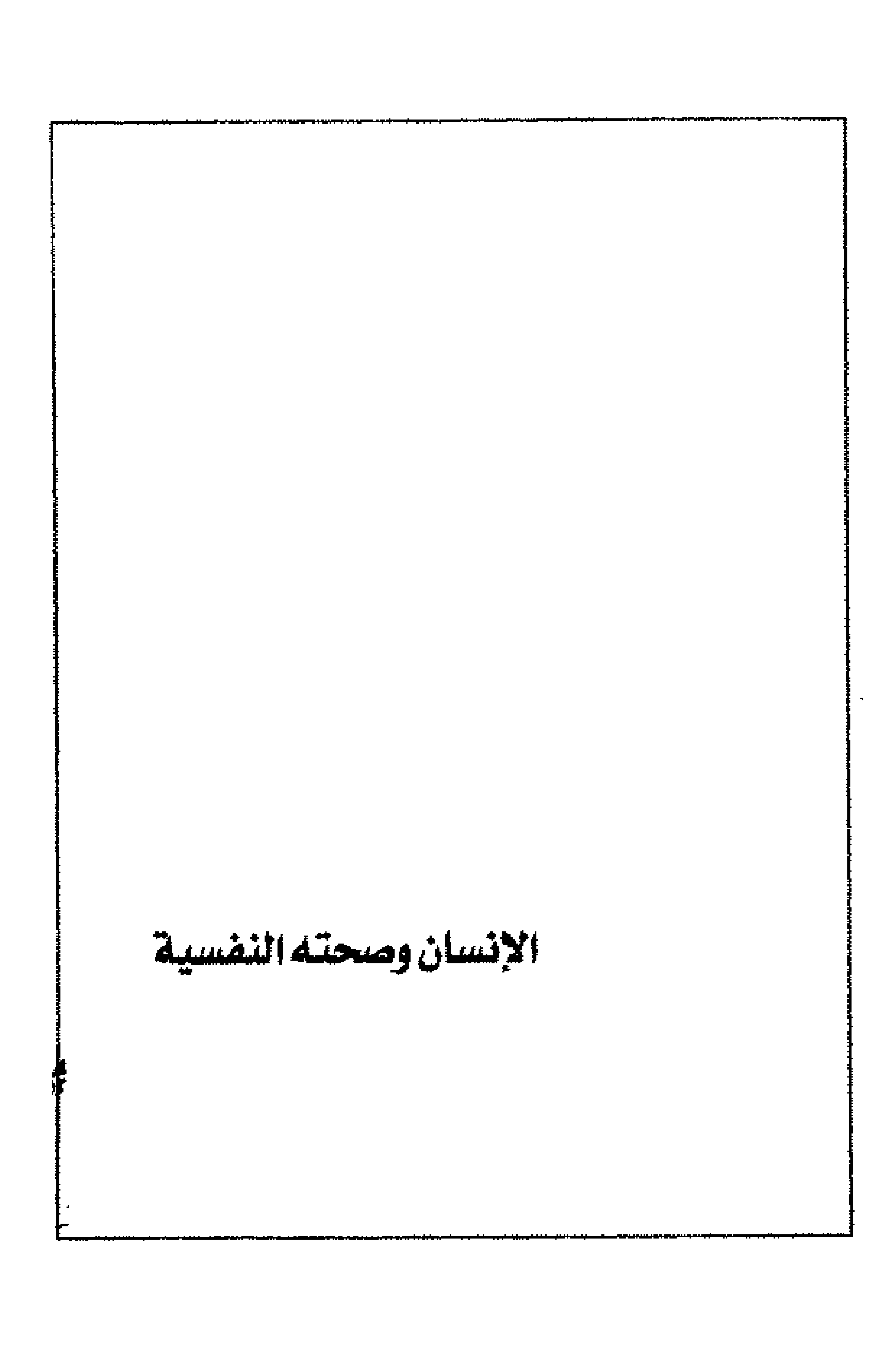


الإنسان و صحته النفسية









الإنسان وصحته النفسية

الإنسان وصحته النفسية

د. سيد صبحي

طبعة خاصة
تصدرها الدار المصرية اللبنانية
ضمن مشروع مكتبة الأسرة



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(سلسلة الأعمال الخاصة)

الإنسان وصحته النفسية

د. سيد صبحي

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

نحو مفهوم الصحة النفسية

- معنى الأمن النفسي.
- الإنسان وكيف يسعى لتحقيق صحته النفسية.

يتعلق الإنسان الفرد اليوم بأذيال الصحة النفسية، وفى نظره أنها كلمة يتشدق بها فى عالم، يستطيع أى شخص من أصحاب الزخارف اللفظية أن يلخصها بفكره الكليل فى كلمات معدودات، مؤداها:

- إن الصحة النفسية تتجلى فى كونك مطلق الحرية، فاصنع ما شئت والحياة تحتاج منك أن تتواءم معها.. لأنها سخيفة بطبيعتها وتورث القلق والضجر وتبعث إلى الملل!!

وهكذا قدر للصحة النفسية أن تشيع تحت وطأة هذا المفهوم الضيق الساذج، وأن تدور على ألسن المثقفين فى شكل العقد النفسية تارة، أو فى شكل المشكلات الانفعالية تارة أخرى.. أو فى كوامن النفس وما يتعلق بها من مكونات تغط فى نوم عميق فى خزائن اللاشعور، تتحكم فيها الغرائز ببطشها المعهود محفوفة ببعض الأحاسيس الدنيوية.

والعجيب أن معنى هذا اللفظ سرعان ما اتسع اتساعًا، جعل من غير الميسور أن يجد له العلماء والمشتغلون بمجالات علم النفس مضمونًا واضحًا.. ولكن قد يبطل العجب إذا عرفنا أن الصحة النفسية جاءت كمصطلح علمى ذائع الصيت شديد الانتشار فى عصر، شهد انهيار النظرات التفاؤلية المتسمة برضا الإنسان الفرد والإيمان العميق بالتقدم والثقافة.

وفى زحمة هذه الحياة، فقد الإنسان أيضًا عمق الإحساس بالوجود والقيم، وعاش الإنسان الفرد ولا يزال فى أزمة هذا العصر يعانى من غربته عن ذاته، وترك نفسه نهبًا للتقدم التكنولوجى، الذى جعل منه (ترسًا) فى ماكينة أو (قطعة غيار) فى جهاز، لا يحسب لها فى حد ذاتها أى درجة من درجات الحساب.

عاش الإنسان غريبًا فى هذا العصر، على الرغم من النجاح الباهر الذى أحرزه العلم فى القرنين الأخيرين، ولقد نتج عن ذلك التقدم العلمى الهائل أن شهد الناس مولد الخرافة بالإيمان المطلق بالعلم(*) وما أحرزه من نتائج باهرة؛ إذ خيل للإنسان وقد يسرت له العلوم التجريبية أن يتحكم فى الطبيعة ويسيطر عليها، وأن العلم بفضل تحكمه وضوابطه يمثل له تلك الضالة المنشودة، وما على الإنسان إلا أن ينظم نفسه وعالمه المحيط ومجتمعه، الذى يعيش بين جوانبه تنظيمًا علميًا؛ حتى يمحو منه الشرور والآفات وتتوافر له فيه الراحة والعيش الرغيد.

وأراد الإنسان أن يعمل كل شىء، وأصبح ينتظر من العلم كل شىء من خلال تطبيقاته، بحيث لم يعد هناك ما يعلو أو يند فوق طاقاته..

وكان طبيعيًا لأمر هذا الإنسان المفتون بإنجازات العلم التطبيقية، وما يواكبها من إجراءات، أن يتملكه الغرور والصلف، وأن يتوه فى ظلام الولع بقدراته ومقدراته وسيطرته على كل شىء، وأضحى كل شىء ملك يديه. وكانت نتيجة كل ذلك أن ازدهرت الأخلاق النفعية، وانتشرت القيم الحسية، التى تستبعد كل ما هو إنسانى وقيمى ودينى، وتتجه فقط إلى الاستمتاع الحسى العاجل المباشر، دون أن تقيم وزنًا لصوت الضمير، وأن تراعى مبادئ الحق والخير والجمال!! فماذا عسى أن يكون موقف الصحة النفسية من هذه الأزمة الصارخة، التى يعيشها الآن إنسان العصر الراهن؟ لعل الجواب هو: أنها قد تكون فى مقدورها أن تعين الإنسان على أن يحقق ذاته، وأن يربى شخصيته وهو على وعى تام للوجود.. أو بعبارة أخرى تعينه على أن يكون موجودًا فعلاً منتجًا حرًا واثقًا بالله متواصلاً بالناس.. لأن الإنسان لا يملك سوى هذا السعى الحثيث نحو القيم، وما يتبعها من اتجاهات دينية قويمة، يجد الإنسان فيها نفسه بعيدًا عن هذه المتاهات الحسية، التى أغرقته فى بحر القلق والتوتر المتلاطم الأمواج، الذى أبعده عن سكينة النفس.

(*) ظهرت هذه الأيام موجة «العلمانية»، التى تحاول أن تجعل العلم هو المحك الوحيد فى سعادة الإنسان وعبثًا تحاول، فقد أدى التطرف العلمى إلى صراعات نفسية.

فمشكلة الإنسان الآن أنه:

لم يعد يفهم من أين يأتى بهذه السكينة وهذا الأمن النفسى، فهو أحيانًا يتوهم أنها متاحة بالشروة، ولا تكون فيها سكينة النفس، وأحيانًا يتصور وهمًا أنها قد تأتيه فى هجر مباهج الحياة وملاذها وإيثار حياة الزهد ويقلب كفيه عما أصاب فلا يجد أنه أصاب شيئًا.. ويتساءل أين هى سكينة النفس؟ فلا يجدها؟!

ثم قد يبحث عنها ويتوقع أنها قد تكون متاحة فى القوة والسلطان ويأتيه الحكم والسلطان، فإذا هى (أقصد سكينة النفس) أكثر بعدًا عنه وأنه أساء الطريق إليها.

أين الأمن النفسى إذًا؟ وأين سكينة النفس؟

هل هى مطلب مستحيل أو هى مطلب يناقض طبيعة الحياة، وأن الإنسان قد حكم عليه بالقلق والخوف والتطلع إلى كل ماهو مادى ومحسوس والسعى فى دأب؛ ليحقق تطلعاته دون أن يتوقف، ودون أن يبلغ مما أراد شيئًا؟

لعل الإجابة عن تلك الأسئلة تكون من خلال ثنايا فصول هذه الدراسة، التى تتصور أن الصحة النفسية بمعنى ما من المعانى وبشكل ما من الأشكال تتمثل فى هذا الوعد الإلهى، الذى وعد الله به عباده الصالحين، والله لا يخلف وعده، ولا ينسى موعدًا ولا ميعادًا.

أين المشكلة إذًا؟ أين الخطأ؟ أين النقص؟ وأين الطريق السوى؟ هل هو فى الهدف والغاية؟ أم هو فى الوسيلة؟ هل هو فى شىء خارج عنك؟ أم هو فيك، وأن سعيك لابد وأن ينبع من داخلك دون أى تأثير لعوامل خارجية؟ وهل الحياة بظاهرها هى الأخرى، أم أن الحياة بجوهرها والنفس بدخائلها؟

وإذا راجعنا تاريخ الهداة والمتقين والقادة والمرشدين، فإننا نتعلم منهم دروسًا. نتعلم منهم جهاد النفس، والصراع من أجل الوصول إلى الغاية.. وأن القيمة هى الجزاء الأعلى، وأنها هى الجزاء الأوفى.

نتعلم منهم أن خداع النفس يبعدها عن الصراط المستقيم. . نتعلم منهم أن الخداع يقود إلى القلق، وأن هدوء الخاطر وسكينة النفس من الأمور التى تحتاج إلى أن يكون الإنسان الفرد على أعلى منزلة، تجعله فى خدمة الإنسان الآخر ابتغاء مرضاة الله. ولن يتم له ذلك بطبيعة الحال إلا من خلال هذا الوصال الوجدانى، الذى يأتى من خلال القيم الدينية من حيث هى إرشاد وإحسان وإخلاص ومسئولية، كما يتجلى أيضًا فى المناقشات العميقة لسيرة الصالحين والأبرار. . تلك المناقشات التى لابد وأن تأتى بثمراتها الخصبة، طالما توافرت فيها صدق النوايا وحسن التفاهم.

والكلام عن صدق النوايا وحسن التفاهم قد يقودنا إلى تعرُّف الطبيعة الإنسانية وأبعادها السوية، طالما أن موضوع دراستنا فى هذا الكتاب يتحدد من عنوانه؛ فهو يتناول تلك الطبيعة البشرية من زاوية السلوك الإنسانى، وما يتبعه من قيم أخلاقية قد تجعلنا نتماشى مع ذلك الانسجام المنشود بين ما يتعلق بالقيم والأخلاق، وتلك الطبيعة الإنسانية. . ومن ثم يقودنا إلى الصحة النفسية من خلال هذا الوئام بين طبيعة الإنسان وأفعاله، أو بين نفسه وتصرفاته.

وجدير بالذكر أن مراعاة الطبيعة الإنسانية من الأمور المهمة، لوجود ارتباط وثيق بين تصرفات الإنسان السلوكية وطبيعته، ويتوقف نجاح النظام الأخلاقى على مدى درجة انسجامه مع واقع هذه الطبيعة البشرية.

والواقع أن هذه الدراسة تعتبر محاولة فى طريق صعب لاأرانى موفيه حقه؛ خاصة وهو يتناول قضية النفس وبعض الآراء، التى تعتبر رائدة فى ميدان الصحة النفسية، فنحن سوف نسترشد بإذن الله تعالى بالدراسات، التى قمنا بها وتناولت البعد الدينى وأهميته بالنسبة للإنسان، موظفين آراء وجهود بعض العلماء المسلمين، مع الاستناد إلى آيات من القرآن الكريم كمصدر للصحة النفسية، والاسترشاد ببعض الدراسات التى قمنا بها، والتى تتناول بعض القضايا الخاصة بتصرفات الإنسان كمحك تطبيقى للسلوك السوى، الذى ينبغى أن يسود مهما تعرض المجتمع لعوامل التغير التكنولوجى أو أصابه مس من شيطان التقدم،

الذى يحاول جاهداً أن يبعدنا عن القيم الأصيلة؛ مما أدى إلى ظهور الأمراض النفسية وانتشار القلق وعوامل التوتر انتشار الهواء فى أجواز الفضاء!!

ذلك هو الهدف الذى نتطلع إلى تحقيقه من خلال هذه الدراسة، فإذا أصبنا الهدف فالحمد لله والشكر على توفيقه، وإذا لم نوفق فالحمد لله والشكر أيضاً وكفانا شرف المحاولة.

أستاذ دكتور/ سيد صبحى

◆ شعــاب الطريــق

- دراســة النفــس البشريـــة وصعوبتـــها.
- النفس بين قدمـاء الفلاسفـة والقرآن الكريـم.
- الصحة النفسيـة وبعض الاتجاهـات الفكريـة.

تعد دراسة النفس البشرية والتوصل إلى كنهها وأبعادها ومكوناتها من الأمور الصعبة؛ لأن النفس الإنسانية... بل الطبيعة البشرية ذاتها... شديدة التعقيد.. أو هي في الواقع محيرة ومثيرة!!

ولعل هذه الصعوبة تدفعنا إلى محاولة دراسة الطبيعة الإنسانية، دون أن نغرق في متاهات النفس، وميتافيزيقا الإنسان.. وعلى الرغم من هذا الاتجاه نحو دراسة الطبيعة الإنسانية، فإن الصعوبة قائمة أيضًا.. لأنه لا يوجد شيء على ظهر هذه الأرض محير ومثير للمشكلات والمتاعب مثل الإنسان، ذلك الذي صنع صنعًا عجيبًا وفريدًا ومخيفًا!!

والذي يتناول الطبيعة الإنسانية بالدراسة، يلاحظ أن هناك مجموعة من الاتجاهات تتناول هذه الطبيعة، فهناك ذلك الاتجاه الذي يراها طبيعة حيوانية. وإذا كان هناك ثمة فارق، فإنما هو في الدرجة لا في النوع، أي في درجة التعقيد السلوكية فقط.

وواضح أن هذا الاتجاه يميل إلى تفسير طبيعة الإنسان ودراستها من خلال الطبيعة الحيوانية؛ باعتبارها طبيعة أبسط من طبيعة الإنسان، وهذا معناه أن هذا الاتجاه يسير على منهج دراسة الأعقد عن طريق الأبسط، وتفسير الطبيعة المعقدة بالطبيعة البسيطة من نوعها.

وأما الاتجاه الثاني... فيرى أن الطبيعة الإنسانية طبيعة منفردة، فهي ليست امتدادًا أو استمرارًا للطبيعة الحيوانية، وبناءً على ذلك ينبغي دراسة هذه الطبيعة مستقلة عن الدراسات الطبيعية الأخرى، بحيث لا يصح تفسيرها على غرار

الطبائع البسيطة الأخرى. لأنه يرى أن دراستها وتفسيرها فى ضوء الطبائع الأخرى يهدم جوهر الإنسان ويفقده حقيقته المتميزة.

وهناك اتجاه ثالث ينتهج منهجًا وسطًا بين المنهجين السابقين فى دراسة الطبيعة البشرية، والعمل على تفسيرها مؤداه:

أنه لا ينبغى أن نغفل دراسة الطبيعة المادية فى الإنسان، إلى جانب دراسة الجانب المعنوى، وأن نأخذ هذا الجانب المعنوى مأخذ الجد، وأن توليه اهتمامًا خاصًا؛ لأن الجانب السيكولوچى أو المعنوى لتلك الطبيعة الإنسانية يكتنفه الغموض، ويحاط بمجموعة من الأسرار لا يعرف كنهها بخلاف الجانب البيولوچى، الذى يرتهن بالأعضاء المحسوسة والملموسة للإنسان، وما يواكبها من وظائف وتفاعلات حيوية وكيميائية.

ولعل السر فى عدم استطاعة العلم الحديث أن يغوص فى أغوار النفس البشرية يرجع إلى أن الإنسان نفسه قد أحس بمشكلته، حين أدرك أن وجوده مخاطرة، وحين فطن إلى أن حياته معركة ليست خاسرة أو رابحة منذ البداية، وإنما لابد فيها من الصراع والمجاهدة لحظة بعد أخرى، ومن هنا نشأت كل المحاولات التى أرادت أن تلغى مشكلة البحث عن طبيعة الإنسان وجوانبه المعنوية لحساب العلم؛ لأن الإنسان نفسه هو الذى يصنع العلم...

ومن هنا كانت صعوبة إخضاع النفس البشرية للمناهج التجريبية والمقاييس المقننة، ولعل ذلك ما جعل علماء النفس المحدثون يتجهون إلى دراسة مظاهر السلوك الإنسانى؛ تجنبًا لتلك الجوانب الخفية، التى تكمن وراء حقيقة النفس والروح والعقل، وهنا تحضرنا عبارة القوصى[1]:

«إن علم النفس كان يبحث أولاً فى الروح ثم صار يبحث فى العقل، وانتقل بعد ذلك إلى الشعور...» وأخيرًا صار موضوع بحثه هو السلوك الخارجى،

(١) ارجع إلى الدراسة العميقة الموسومة باسم (علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية) للأستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى ـ دار النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة السادسة ١٩٧٠ ـ ص ٢٥ .

وكأننا بإزاء تصور فكه من خلال أستاذنا القوصى؛ لأنه يشخص لنا مسار علم النفس بوصفه رائداً لهذا العلم فى عالمنا العربى المعاصر، ويتصوره ذلك العلم الذى زهقت روحه فى بداية ظهوره، ثم خرج عقله ثم زال شعوره، ولم يبق منه إلا المظهر الخارجى وهو السلوك.

وهكذا نلاحظ أن علم النفس قد استقر الآن ـ إلى حد ما ـ عند محاولة تأويل القدرات الوظيفية للإنسان، ووصفها بمعزل عن التأويلات القديمة والتفسيرات الغيبية، التى ينتهجها أصحاب الدراسات النفسية القديمة، تلك التى كانت تحوم حول دراسة جوهر النفس، وخلودها، ووحدتها، والصلة الوثيقة بينها وبين الجسم، والاسترشاد بالأدلة على تلك الصلات، بينما نجد الدراسات الحديثة فى مضمار علم النفس تتركز أساساً على مظاهر الأداء فى ميادين الحياة المختلفة. . . ولعل ذلك ما جعل علم النفس يتفرع إلى فروع كثيرة متعددة، قد لا نستطيع أن نحصيها، ولكن الذى يهمنا أن هذه الفروع قد اتجهت إلى دراسة السلوك الإنسانى، ودرجة تفاعل الإنسان مع الإنسان الآخر، وتوافقه فى تفاعله ومعاملاته.

والسؤال الآن الذى ينبغى أن نوجهه إلى أنفسنا ـ طالما نحن ندرس الصحة النفسية للإنسان، وطالما نحن نتعامل مع طبيعته البشرية بالدراسة ـ هل من الممكن أن نصف الإنسان من حيث أبعاده الداخلية (أعنى طبيعته المعنوية أو النفسية) وصفاً يند عن عوامل التأويل والتنويم، والغوص فى متاهات اللاشعور، ومكنونات الخبرات الأليمة، وما يسمى بالتغذية المرتدة Feed back، التى يحاول الآن بعض المشتغلين فى ميدان العلاج النفسى أن يفتشوا عنها من خلال جلسات الاسترخاء والمقابلات الكلينيكية، وما يتبعها من أمور قد تصل إلى الصدمات الكهربائية؟!

للإجابة عن هذا السؤال، قد نستطيع أن نقول إن الأمر يمثل غاية فى الصعوبة، ومهما حاول هؤلاء الحفارون فى الطبيعة البشرية من خلال جلساتهم،

فإن حفائرهم وما تخلفه من معلومات تعتبر موقفية (أى ترتهن بالموقف العلاجى فقط) وهى لا تمثل سوى موقف مؤقت، يعبر من خلاله صاحب المشكلة عن عرض مرضى مؤقت أيضًا؛ لأن الإنسان (أو صاحب المشكلة) لابد وأن يعامل بطريقة فيها ضرب من ضروب الصحو والتيقظ لمشكلته، ويحاول هو أن يطرحها ويناقشها، ثم ما على ذلك المعالج إلا أن يرشده بمعلوماته إلى خيوط المشكلة، وعلى صاحب المشكلة أن يمسك بالخيوط... متعرفًا إياها، ناسجًا من خلالها أبعاد مشكلته على منوال فكره المتيقظ الواعى، بعيدًا عن هذا الاسترخاء العجيب الذى يفقد الإنسان التوازن ويفكك أوصاله وينعكس على فكره ووعيه، وبالتالى قد يجعل المعلومات مشوهة وغير دقيقة.

والذى يجعلنا نتوسع فى هذه النقطة بالذات أن طبيعة الإنسان تحتاج فى دراستها إلى المواجهة الواقعية... دون أن نغرقه فى بئر اللاشعور المزعوم، وإذا كانت الكثرة الغالبة الآن ممن يتناولون الإنسان بالعلاج والتوجيه، ويدفعونه دفعًا إلى أن يجرى وراء خبراته الماضية.. فإنهم يتسون أن الإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى تبدو أفعاله غير مضمونة، فهو الموجود الذى يتردد ويتجسس ويتعثر، وهو الذى يضع مشروعات يقتنع بها وهو مشبع بأمل النجاح وخشية الفشل، والإنسان أيضًا هو الكائن الوحيد الذى يشعر بأنه معرض للمرض، وهو الذى يعرف كذلك بكل تأكيد أنه لامحالة ذائق الموت!!

ومن هنا كيف يتسنى أن نسبر غور الإمكانات البشرية، إن لم نقف أولاً على مقومات الموجود البشرى وطبيعة استعداداته، وحقيقة غاياته، وطريقة استجاباته وأسلوب حياته... ومن هنا كان لابد علينا ـ كمشتغلين بمجالات الصحة النفسية والتوجيه والإرشاد النفسى ـ أن نعترف بالحقيقة الآتية:

إن الموجود البشرى يستطيع أن يسهم معنا فى وضع الحلول، وأن دراستنا لمشكلاته لاتجعلنا بمعزل عنه كحضور له قيمته، وينبغى أن يُعترَف به.

ولكن إذا كان من شأن دراسة الماضى أن تلقى كثيراً من الأضواء على

الحاضر. . فإن هذا لا يستتبعه أن يكون الماضي هو الحاضر، وأن علينا أن نتجنب كل التيارات التى ظهرت على مسرح علم النفس، ونحاول أن نقارن بين سلوك الإنسان وسلوك الحيوان، أو نجرى بعض التجارب على الحيوانات، ثم نحاول أن نعمم نتائجها على الإنسان، وعبثًا يحاول البعض أن يقارن الذكاء البشرى بالذكاء الحيوانى؛ لأنه من المؤكد أن أعلى الحيوانات فى سلم التطور لا تعرف القلق البشرى، ولا تستطيع أن تختزن من الصور البصرية والسمعية، مثلما يختزن الإنسان ولا ترى ما فى الأشياء من جوانب مبكية أو مضحكة كما يرى الناس، ولا تستطيع أن تضحى فى سبيل المبدأ أو العقيدة كما يضحى الإنسان.

من هنا كانت دراسة الطبيعة الإنسانية صعبة للغاية، وتنعكس هذه الصعوبة على مدى فهمنا لتصرفات الإنسان، اعتماداً على طبيعته المعقدة التى لا ترقى إليها أية عقلية، مهما كان سموها فى المملكة الحيوانية. . الأمر الذى يجعلنا نتجه إلى الطريق السليم الذى اخترناه، وهو التعامل مع القرآن الكريم المصدر الأساسى ففيه كل المعانى، ومن خلاله سوف تتضح الأمور، بعد أن اكتنفها الغموض وغاصت فى متاهات الفكر الفلسفى تارة، ومعامل التجريب على الحيوان تارة أخرى، وعلى أرائك ومقاعد ومهدئات وعقاقير بعض المشتغلين بالعلاج النفسى، وما يتبعه من فنيات علاجية وإرشادية قد تنجح حينًا وتفشل فى غالب الأحيان!!

النفس بين قدماء الفلاسفة والقرآن الكريم:

وإذا تأملنا الآيات التى تناولت جوانب الإنسان المادية والروحية، والتى تعبر عن الأبعاد النفسية والروحية، وجدنا أنها تتحدث عن أربعة أمور هى «النفس ـ الروح ـ القلب ـ العقل»، ونجد أن لكل من هذه الجوانب أوصافًا معينة، وحقيقة بذاتها وصفات تابعة لها. . . وقبل أن نتناول كيف تجلت هذه المعانى، وظهرت من خلال الآيات القرآنية الكريمة، نعرض لآراء بعض الفلاسفة الذين تناولوا هذه الأمور. . . على الوجه الآتى[1]:

---

(١) مثل الفارابى ـ ابن سينا ـ الغزالى ـ ابن رشد.

تفرعت أفكار الفلاسفة في ثلاثة اتجاهات:

١- اتجاه يمثله سقراط وأفلاطون، وهو على وجه العموم يرى أن النفس جوهر روحى مستقل عن الجسم وهى واحدة، ولها قوى وتقوم بوظائف مختلفة.

٢- اتجاه يمثله أرسطو ومن تبعه من علماء النفس، ويرى على وجه العموم أن النفس صورة منطبقة مع الجسم، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر؛ لأنه لا وجود لها إلا مع الجسم.

واعتمادًا على الآراء التي وردت في هذا الاتجاه، فليس هناك تكوين بيولوجى وسيكولوجى مستقل كل منهما عن الآخر، بل الإنسان في الحقيقة وحدة يتكامل فيها جسمه وروحه.

٣- الاتجاه الثالث يحاول التوفيق بين الاتجاهين السابقين، ويمثله الفلاسفة المسلمون. وإذا كان يبدو بينهم اختلافات.. فإن هذه الاختلافات من حيث الدرجة لا من حيث النوع.

وإذا كنا قد عرضنا من خلال هذه العجالة آراء بعض الفلاسفة قديمًا في النفس، فلابد لنا من أن نذكر رأى الإسلام في النفس، من خلال تلك الحقائق الروحية، التى فسرت كنه الطبيعة الإنسانية في ضوء آيات القرآن الكريم، انطلاقًا من الأمور الأربعة (النفس - الروح - القلب - العقل).

أولا: النفس:

ذكر الله تعالى (أن الله خلق الناس من نفس واحدة)، وقد وصف هذه النفس بعدة أوصاف.

المطمئنة:

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾.

[الفجر: ٢٧: ٣٠]

الوسواسة:

فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾.

[ق: ١٦]

اللوامة:

فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾.

[القيامة: ٢]

الإمارة بالسوء:

فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾.

[يوسف ٥٣]

وبالنظر إلى هذه الآيات الكريمة، نجد أن النفس واحدة، ولكنها تمر بحالات متعددة:

* فهى مطمئنة فى حالتها السوية الطبيعية.
* وفى بعض الأحيان يوسوس لها الشيطان بالشر.
* ثم إذا ارتكب الإنسان الشر، فإن النفس قد تستفيق وتلوم.
* أما إذا استمرت فى هذا الخضوع، فإنها تصبح أمارة بالسوء داعية إلى الشر.

ثانيا: الــــروح:

من حقائق التكوين المعنوى فى الإنسان (الروح)، وقد وردت لها تفسيرات من خلال القرآن الكريم وآياته البينات، نذكر بعضها على الوجه الآتى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

[الإسراء: ٨٥]

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

[السجدة: ٧ : ٩]

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾.

[الحجر: ٢٩]

والمتأمل فى الآيات الكريمة، سيدرك أنها تنبهنا إلى أن إدراكنا لطبيعة الروح قاصر لقلة علمنا بها، وذلك كما قال الله تعالى؛ إلا أننا نستطيع أن ندرك مغزى ما يوحى به فى الطبيعة الإنسانية من دلالات روحية، ذلك المغزى الذى يمثل أهم جانب فى الإنسان، وهو الجانب المعنوى السماوى القدسى الذى يجعل الإنسان يميل فطريًا إلى أن يسمو بنفسه، ويعلو على ذلك الوجود المادى الحسى المتمثل فى أدران الشهوات وما يصاحبها من ماديات. . . ويتطلع إلى الجانب المشرق فى تكوينه، وهو الجانب الروحى، ذلك الذى أوضحته الآيات الكريمة أيضًا، عندما أعلنت المساواة بين الناس، وأن خلقتهم واحدة وأن الإنسان له قيمته كفرد. . . وكجماعة.

ثالثًا: القلب:

تناول القرآن الكريم القلب وعبرت عنه الآيات الكريمة تعبيرًا روحيًا، قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

[الشعراء: ٨٨: ٨٩]

وقوله عز من قائل:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

فَاعفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾.

[آل عمران: ١٥٩]

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾.

[الأعراف: ١٧٩]

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

[البقرة: ٨٨]

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾.

[آل عمران: ٧]

واضح من تتبع بعض الآيات الكريمة التى ورد فيها ذكر القلب أن للقلب صفات، تتمثل فى السلام والإنابة والغلظة والتفقه والزيغ، وورد فى نصوص وآيات بينات أخرى بمعنى القسوة والعمى والاطمئنان والتقوى والتعقل.

أما نظرة المحدثين من علماء النفس فى العقل وقدراته.. فإننا نجدهم قد استبدلوا كلمة العقل (بالذكاء) أو القدرات العقلية، وقد نجد بينهم بعض الاختلافات فى ماهية العقل وقدراته... فنجد (سبيرمان) قد عرفه:

«بأنه القدرة على إدراك العلاقات سواء كانت بسيطة أو معقدة»

ونجد (ثورنديك) قد حدد العقل على أنه:

«القدرة على تكوين ترابطات... واقترح له ثلاثة مستويات»

على الوجه التالى:

* الذكاء المجرد.

* الذكاء الميكانيكى.

* الذكاء الاجتماعى.

على أن يتضمن النوع الأول توظيف جميع الرموز اللغوية والأرقام وغيرها، ويصبح الذكاء الاجتماعى هو القدرة على تفهم الناس ومعايشتهم، والتفاعل معهم وأداء الأدوار الاجتماعية التى تفرضها الظروف المحيطة بالفرد، داخل إطار الجماعة بمهارة وأصول.

وواضح أن الفرق بين الذكاء المجرد والذكاء الاجتماعى أن النوع الأول قد يرجع إلى العوامل الوراثية، وأن النوع الثانى قد يرجع إلى عوامل مكتسبة ترجع إلى ظروف البيئة، وما يصاحبها من عمليات يتدخل فيها التطبيع الاجتماعى للفرد فى أسرته، وتأثيرات المؤسسات الأخرى فى المجتمع.

أما الذكاء الميكانيكى فهو السمة التى تنمو خلال ما يتاح للفرد من فرص تعليمية، تتجلى فيها خبرات وقدرات الفرد، وتتحدد فيها ميوله واتجاهاته، وقد عرف (فريمان) هذا النوع من الذكاء بأنه «قدرة الفرد على أن يتعلم»، وقد جعل هذه القدرة على التعلم ترتهن بعوامل معينة، هى:

* مدى تكيف الفرد مع البيئة المحيطة به أو ببعض جوانبها ودرجة تفاعله معها، وتأثيره وتأثره بها.

* قدرة الشخص على التعلم والتقاط خبرات جديدة تمكنه من تنمية مهاراته.

* قدرة الفرد على التفكير المجرد، وحسن توظيفه لهذا التفكير.

* قدرة الفرد على التصرف الهادف، والأداء السليم المشبع بالتفكير المنطقى والتعامل المجدى مع البيئة.

والمتأمل العميق لهذه التعريفات المتعددة سوف يلاحظ أن مفهوم الذكاء أو ماقد يسمى (القدرة العقلية) قد أخذ مجموعة من الصفات، مثل: (الإدراك بوجه عام

واستيعاب المعلومات، والقدرة على فهمها وحفظها، والتصرف وفق الإدراك وتوظيف المعلومات).

وجدير بالذكر أن هذه المفاهيم وتلك التعريفات قد أوضحت أن الإدراك كقدرة عقلية، وأن اكتساب المعلومات ودرجة توظيفها، وربط العلاقات السليمة بين الخبرات فى المواقف المتعددة قد أوضحت (أن العمل والعلم) بينهما رابطة قوية، وأنه ينبغى أن يتحقق التجانس والتفاعل بين ما يعلمه الفرد وما يعمله ويصبح الفكر والعلم والنظر يواكب التصرف والسلوك والعمل، كما تقتضى الأحوال والمواقف التى يتعرض لها الإنسان الفرد.

رابعًا: العقـــل

أما من حيث تناول الآيات القرآنية الكريمة للعقل، فقد عبرت الآيات البينات عن العقل بوصفه قوة مدركة فى الإنسان خلقها الله فى الإنسان لتحدد مسئوليته، وتتحكم فى أعماله وتصرفاته. ويصبح العقل محكًا من المحكات الرئيسية، يلتزم بواسطتها الإنسان الفرد بالصراط المستقيم والطريق السوى، الذى يمكنه من الاستمرار المسئول السليم.

ويصبح الابتعاد عن توظيف العقل والاحتكام إلى منطقه ضربًا من ضروب الضلال، وسببًا من أسباب الانحراف والجموح الذى يبعد الإنسان عن الصراط المستقيم، ويجعله - من خلال تصرفاته غير العاقلة - فى موضع المذنب المخطئ.

الصحة النفسية وبعض الاتجاهات الفكرية:

احتارت الاتجاهات الفكرية والنظريات الفلسفية والنفسية فى تحديد مفهوم للصحة النفسية، يجعلنا نحتكم إليه ونستند إلى تفسيره. ولعل هذه الحيرة ترجع إلى تعدد الاتجاهات الفكرية التى تناولت سلوك الإنسان وتصرفاته؛ الأمر الذى يجعلنا نعرض لمفهوم الصحة النفسية، من خلال بعض الاتجاهات الفكرية العامة مع وضع الاعتبار الآتى:

«إن اختيارنا لهذه الاتجاهات يتماشى مع وجهة نظرنا حول طبيعة سلوك الإنسان، والتى ترى أن الإنسان عليه مسئولية من أفعاله «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى»[1].

ومن هذا المنطلق نتناول بعض الاتجاهات؛ لنوضح كيف كان تصور هذه الاتجاهات للقيمة الوظيفية للسلوك الإنسانى، أو بالأحرى ما كان يسمى فى الاتجاهات الفلسفية (الإطار الأخلاقى المنظم للسلوك الإنسانى)، والذى فى ضوئه يتفاعل الإنسان ويتعايش ويحقق التوافق النفسى، أو يقع نهبًا للصراع النفسى؛ إذ ابتعد عن هذا الإطار وجانبه الصواب فى التصرف.

١ - الاتجاه الطبيعى:

يحدد هذا الاتجاه مفهوم التوافق النفسى، على أساس ما يستشعره الفرد من خبرات تأتيه باللذة أو بالألم، فاللذة مرغوبة بالطبيعة، ويهدف الإنسان إشباعها وكذلك أيضًا الألم مكروه بالطبيعة وكل مكروه مؤلم، وكل لذيذ خير، وكل مؤلم شر. ومن هنا يرسى هذا الاتجاه قواعده على أساس:

«إن الصحة النفسية للفرد تتجلى فى كل شىء ينزع الإنسان نحوه ويميل إليه ويرغب فيه بالطبيعة، ويشتهيه... وهذا الميل يجعل الإنسان يحدد ما يوافقه وما لا يوافقه، وبطبيعة الحال ماوافق الإنسان خير، ومالا يتفق مع طبيعته هو شر.. وهنا نجد أن هذا الاتجاه يهدم قيمة الإنسان الحقيقية، تلك التى تظهر فى اختياره الواعى الحر، حيث صار الإنسان عبدًا لشهواته، وخاضعًا لمطالبه الحسية المادية، هذا التصور معيب للإنسان ويفقده إنسانيته.

٢ - الاتجاه الذى يؤكد الطبيعة النفسية الفاعلة:

يرى هذا الاتجاه أن الصحة النفسية ليست مجموعة من الصفات تخلع على الإنسان، بل هى نابعة من الفاعلية النفسية، سواء أكانت هذه الفاعلية اهتمامًا أم رغبة أم ميلاً أم تعاطفًا أم تحسينًا أم تقبيحًا.

ومن هذا المنطلق تصبح الصحة النفسية مسألة ذاتية فردية، تلعب فيها إرادة الإنسان الفرد دوراً كبيراً وأساسياً، فكل ما يؤلم رغبات الإنسان النفسية الإرادية يعتبر خيراً بالنسبة إلى صاحب هذه الإرادة أو تلك؛ لأن تأثير الأجواء المحيطة بنا سواء كانت محسوسات أو أفراداً أو ظروفاً وملابسات. هذا التأثير سواء كان بالمواءمة أو المنافاة يدل على وجود علاقة بين طبيعة الأشياء وطبيعة نفسيتنا.

ويلاحظ أن هذه العلاقة من الممكن أن تكون موضوعية من ناحية التأثير، إلا أنها غالبًا ما تكون ذاتية من ناحية التأثر، ذلك أن الناس يختلفون في العوامل الذاتية اختلافًا كبيراً.

ويمكن أن نلخص وجهة نظر هذا الاتجاه على الوجه الآتي:

إن الصحة النفسية لا ترجع في حقيقتها إلى المحسوسات والأجواء المحيطة، وإنما ترجع إلى ذات النفس الفاعلة... فالنفس الفاعلة هي التي تجعل الإنسان يضفي على هذه المحسوسات وتلك الأجواء المحيطة به قيمة معينة، تجعله يتواءم من خلال أفعاله وأفكاره، تلك التي تمثل بدورها اهتمامًا خاصًا، يجعل الإنسان منفعلاً وفاعلاً ومتجاوبًا بقدر توفر هذه الإرادة الفاعلة.

وواضح أن هذا الاتجاه يعتمد على الداخل في الإنسان، ويجعله المحك الأساسي؛ ومن ثم فإنه لابد للتأمل الباطني من أن يجيء فيحررنا من هذا السجن الخارجي.. سجن الأشياء، وقد يستسلم الإنسان لسحر الحياة الشخصية بما فيها من تهاويل نرجسية وتأملات ذاتية؛ فيجد بعد ذلك صعوبة كبرى في أن يعاود الاحتكاك بالواقع والاختلاط بالناس والاندماج في العالم الخارجي. ولكن مثل هذه الحياة الشخصية سرعان ما تكتسب طابعًا متحجراً، فلا يلبث صاحبها أن يقع ضحية لوهم الاستيطان. فإذا ما سألنا الآن عن قيمة البعد الخارجي وأثره على صحة الإنسان النفسية، وجدنا أن الإنسان خلق ليعيش على هذه الأرض، فهو سواء أراد أم لم يرد، لابد له من أن يعبر ذلك الجسر الذي يتمثل في ذاتيته الباطنة، وأن يقذف بنفسه إلى العالم لكي يحقق ذاته في صميم الواقع

الخارجي. . وتصبح غاية الحياة الروحية بالنسبة للإنسان إنما تتجلى فى مدى تخلصه من حدوده الخاصة، واستغراقه فى ذاته وتغلبه على ما لديه من تمركز ذاتى. ولعل هذا يوضح أن الصحة النفسية تعبر عن تلك العملية الروحية الشاقة التى يقوم بها الموجود البشرى، حينما يحاول أن ينتصر على أنانيته وتمركزه الذاتى وانشغاله بنفسه.

والواقع أن الإنسان لا يقوى على أن يعيش متمركزًا (حول ذاته)، بل لابد أن من أن يخرج من قوقعته لكى يتقبل كل ما يأتى به الواقع من أحداث، ويصبح الفعل والتفاعل والأداء المستمر والإنتاج المتدفق من قبل سلوك الإنسان، هو عبارة عن نحت الشخصية وإعلان عن أبعادها أمام الواقع وأمام الآخرين من أفراد المجتمع الذى يعيش بين جوانبه.

٢- الاتجاه الذى يرتهن إلى الواقع:

يحدد هذا الاتجاه الصحة النفسية للفرد على أساس أنها مجموعة من الصفات المستقلة عن الطبيعة وعن الذات الفاعلة. . فهى تقع خلف الحوادث الطبيعية ووراء الذوات الفاعلة، وهى فى الوقت نفسه تفرض نفسها على الذوات الفاعلة (أى أنها ليست نسبية بل إن الصحة النفسية وفق هذا الاتجاه لها وجود مطلق كأى وجود آخر، ولها قوانين مستقلة بنفسها كقوانين الطبيعة لا تتغير ولاتتبدل).

وبطبيعة الحال، فاعتماداً على هذا الاتجاه. . فإن الصحة النفسية لا يخلقها الإنسان بعقله أو بإرادته، وإنما يجدها موجودة بين الموجودات فى عالم الواقع فى شكل سلوكيات، وعليه أن يلتقط دلالاتها وإماراتها، ثم يربط بين هذه الدلالات ليجمع من خلال هذا الربط مجموعة من الصفات، من خلال ما يسمى بالصحة النفسية للإنسان. وكان هذا الاتجاه يريد من الإنسان أن يحتكم دائمًا إلى مقدرات الواقع، يتماشى معها، ويلملم من الواقع المعاش مجموعة من الصفات (من خلالها)، يقوم بعمل التركيبة أو الإطار الذى يمثل شخصيته. ولم يوضح لنا هذا الاتجاه ماذا يكون موقف الإنسان من هذا الواقع. . هل هو الواقع الراهن أم أن

الماضى له دور فى تجميع هذه الصفات؟ لأننا على الرغم من شعورنا فى قرارة أنفسنا بأن فى حياتنا النفسية ضربًا من الاتصال والاستمرار والتعاقب، إلا أننا مهما حاولنا التخلص من أحداث الماضى.. فإننا لا نلبث أن نواجهها، فمهما حاولنا أن نهوى بمعولنا على ذلك الخصم العنيد (أعنى به الماضى وما يتعلق به من خبرات وأحداث).. فإننا لن نستطيع القضاء على ذلك الخصم العنيد الذى هو منا وليس منا.

٤ - الاتجاه الذى يشرك الذات الفاعلة مع الواقع الراهن، ويتطلع إلى المثل الأعلى:

يحدد هذا الاتجاه الصحة النفسية على أساس أنها نظام للعمل، وأن هذا الإطار (أو النظام) لا يتحقق إلا بوجود ذات فاعلة عاملة - لها موضوعها الذى تعمل فيه وفق مثل أعلى تلاحظه وتتوخاه أثناء العمل، وعن طريق تفاعل واشتراك العوامل الثلاثة تتحدد الصحة النفسية للفرد؛ بحيث إذا فقدت هذه العوامل أو بعضهما فقدت الصحة النفسية قيمتها؛ لأنها محصلة هذه العوامل مجتمعة، ذلك أن الإنسان مجذوب ومشدود إلى الواقع، يجذبه إليه العقل والفكر، ويحدد تصرفاته المثل الأعلى.

وجدير بالذكر أن تحديد الصحة النفسية بصفة عامة - من خلال عرض بعض الاتجاهات الفلسفية المختلفة - يجعلنا نحدد من وجهة نظرنا الاتجاه الذى نراه ملائمًا أو ماذا نقصد بالصحة النفسية، من خلال هذا العرض المتعدد فى أفكاره والمتشعب فى تصوراته؟

وللإجابة عن هذا السؤال، نقول:

إن الصحة النفسية فى أساسها هى قيمة الشخص من خلال أفعاله وسلوكه وتصرفاته، وليست القيمة هنا هى تلك التى تأتى عن طريق الأشياء أو الأفكار، والتى قد تظهر فى شكل بعض الآراء التى تبتعد بالإنسان عن القيم الدينية - بل هى الاتجاه إلى الخير، والخير هو أن يأتى الإنسان بسلوك وتصرفات ابتغاء مرضاة الله.

ولعل ذلك ما يقودنا إلى الحقيقة التى بدأنا منها، وهى:

إن الإنسان إذا أراد لنفسه أن يكون صحيحًا نفسيًا. . فإن عليه أن يستمد قيمته من إرادة الله، فالإنسان عندما يريد من سلوكه ماأراد الله منه أن يريد. . فإنه يكون قد اتحدت الإرادتان أو الغايتان (غاية الإنسان، وغاية الله).

لقد أراد الله للإنسان الخير. . ومن ينشد الخير يصل إلى التوافق مع ذاته، وينعكس هذا التوافق فى تعامله مع الآخرين من بنى البشر. . فغاية الله تتجلى من خلال ما يتم من أعمال من قبل الإنسان؛ بشرط أن تكون هذه الأعمال ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى. وقد حدد القرآن الكريم الصحة النفسية للإنسان من خلال آياته الكريمة. . . سلوكًا وفعلاً وتصرفًا وفكرًا؛ لكى يحاول الإنسان أن يحقق تلك الغاية السامية المنشودة التى أرادها الله منه.

◆ شعاب الطريق

- معنى السواء النفسي.
- خطوات السواء النفسي.
- الاتجاهات المختلفة التي تناولت السواء النفسي.

موضوع الشخصية السوية من القضايا التى طرحت فى ميدان علم النفس؛ بغية التوصيل إلى الإمارات التى تميزها والملامح التى نحددها، وإلى أى حد يمكن أن يقال عن شخص بأنه سوى، وعن شخص بأنه غير ذلك.

وقد سبق لنا الإشارة إلى أن النفس السوية هى تلك التى نمت نموها الطبيعى وتكاملت جميع جوانبها، فأخذت تعمل بكل طاقاتها، متخذة المسار السليم والصراط المستقيم هذا عكس الانحراف أو الشذوذ؛ لأنهما يفسدان بنيان النفس الراسخ ويحولان طاقته إلى ضلال السبيل بعيداً عن الصراط المستقيم. وقبل أن نتناول موضوع الشخصية السوية بالدراسة بغية تحديد أبعادها التى تميزها، نود أن نقول:

إن الله سبحانه وتعالى قد ميز الإنسان بخصال كثيرة، من بينها هذا السعة العجيبة فى أنماط البشرية؛ فهى تتشابه كلها دون أن تتماثل حتى لنستطيع أن نقول أنه لا يوجد فردان من البشرية يتماثلان تماثلاً كاملاً على مدار الأجيال، كما لا تتماثل بصمات الأصابع بين أى فردين على مدار التاريخ.

وبطبيعة الحال.. فإن هذا التعدد يعطى الحياة البشرية ثراءً وخصوبة لا يعرفه عالم الحيوان.. ثراءً يجعل الحياة أوسع بكثير وأعمق بكثير من هذه المحسوسات التى تمثل الجانب الظاهر من الحياة.. فكل إنسان له عالمه الخاص، بل يقال عليه إنه نسيج وحده على الرغم من تشابه هذه العوالم وتقاربها.

وهذا التعدد يمثل نعمة الله على عباده من بنى البشر، فلو أن الإنسان الذى وهبه الله من قوة الإدراك والمعرفة، والقدرة على الإنتاج المادى والتطلع إلي

المستقبل وزوده بالقيم الروحية والجمالية، كان صورة مطابقة للإنسان الآخر لتحولت الحياة إلى ما يجعلها رتيبة ومملة، بل وقد تفقد رونقها وحيويتها ولكنها بهذا الثراء الذى يأتى من التعدد جديرة بهذا المخلوق، الذى كرمه الله بعقله ورعاه بعنايته، وأعطاه الإمكانيات المتعددة.

وجدير بالذكر قبل أن نتناول الشخصية السوية، أن نشير إلى وجهة نظر نقدمها؛ لنوضح من خلالها معنى السواء النفسى، ووجهة النظر هذه نرى:

إنه ليست هناك خطوط حاسمة للصحة النفسية والسواء والانحراف فى عالم الشخصية الإنسانية، كما لا توجد خطوط حاسمة للصحة والمرض فى عالم الأجسام.

ولكن هناك أموراً معينة، يكون من المؤكد أنها داخلة فى دائرة الانحراف وأمور أخرى داخلة فى دائرة السواء.

وإذا أردنا أن نوضح وجهة نظرنا هذه من خلال عقد مقارنة مثلاً بين الزعيم الطاغية، نجد أن الطغيان مرض نفسى، لا يمكن أن يلجأ إليه شخص سوى، فى الوقت الذى نجد فيه الزعيم شخصًا عظيمًا؛ أى إنه يتمتع بشخصية لها أبعادها الخصبة والمؤثرة، وهذه الأبعاد هى التى تجعله فى مكان القيادة وليست أنانية الطاغية التى تميل إلى استبعاد الآخرين وإخضاعهم.. وربما كان المحك الواضح الذى يفرق بين التركيبة النفسية للزعيم والتركيبة النفسية للطاغية:

إن الزعيم يبحث عن القوى والطاقات فى الجماعة فينميها، ويسعد بكل طاقة تنفع الجماعة فيوظفها ويستعين بها ويشجعها ويدفعها إلى الإنجاز والعمل المثمر لمصلحة الجماعة، بينما الطاغية لا يطيق إلا نفسه، فكلما وجد طاقة بارزة سعى إلى التخلص منها، ولو بطريق العمل الخسيس؛ لأنه لا يهتم إلا بأمر نفسه ولا يسعى إلا لتحقيق مصلحته.

وهكذا يتضح لنا أن الفردية الانطوائية تمثل مزيجًا من مرضين معًا هما الفردية والسلبية الزائدة.. وكذلك نجد الفردية العدوانية مزيجًا من مرضين هما الفردية

والإيجابية الزائدة.. وفي كلتا الحالتين ينحصر الجانب الجماعي من النفس ويبرز الكيان الفردي في صورة من الصور.

وبطبيعة الحال تختلف درجة السوء من فردية إلى أخرى، ولكنها في جميع الحالات تمثل انحرافًا عن السواء النفسي المنشود.

وكذلك الحال بالنسبة للانصياع في الجماعة دون تفكير، فإن هذا الانصياع يمثل مرضًا قد يذهب بالشخصية ويضعفها... فالشخص الذي لا رأى له ولا شخصية، والذي ينساق وراء كل رأى ويهتف وراء كل ناعق ويسير تارة إلى الشمال وتارة إلى اليمين، هو شخص ضاعت فرديته وفقد هويته.

ومن هنا يتحدد خط السواء النفسي، فهو يتحدد على أساس مدى ما يتمتع به الشخص من قدرات وعوامل، وما يصاحب هذه القدرات وتلك العوامل من أفعال وسلوكيات بعيدًا عن عوامل الإفراط أو التفريط... فإن الله لم يخلق الناس ليفقدوا شخصيتهم في زحمة المسايرة أو الإمعان في الأنانية، بل طالبهم بإقامة الحياة الراشدة، تلك التي تحتاج إلى أشخاص ذوي شخصية ورأى وقدرة على احتمال التبعات.

ومن هنا كان لابد وأن ننبه، قبل أن نحدد الأبعاد التي تمثل الشخصية السوية والصفات التي تتمتع بها، إلى ضرورة التحول النفسي؛ لكي يتم صلاح المجتمع الذي نعيش فيه تمشيًا مع قول الحق تبارك وتعالى.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

[الرعد: ١١]

والمتأمل العميق لهذه الدعوة الربانية إلى تغيير النفس، سوف يجد أنها تطالبنا بالنظر إلى أنفسنا بغية تغييرها والعمل على إصلاحها؛ فالتغيير النفسي ضرورة ملحة تسبق كل التغيرات الاجتماعية، وجدير بالذكر أن نوضح أن هذا التغير لابد وأن يكون تلقائيًا، دون إكراه أو عنف أو تسلط، فالحياة النفسية لا يؤثر فيها

مثل هذا الأسلوب الغاشم، ومثل هذه التصرفات العنيفة، بل لابد إن أردنا أن نغير من الاتجاهات السالبة فى نفوس الأفراد، من أن نعتمد على الإقناع وتبادل الرأى والمناقشة المنطقية.

ذلك هو الأسلوب الأمثل الذى يقره الشرع وينادى به؛ خاصة وأن أسلوب الإكراه والعنف والبطش غالبًا ما يسبب عنادًا ومكابرة (أو ما يسمونه بعض علماء النفس بأسلوب المخالفة واتخاذ الضد)، الذى يعد من الشروط الأساسية لتغيير المجتمع، أن نتبع الخطوات الآتية:

* ضرورة توضيح العادات السيئة وما يصاحبها من تقاليد، يغلب عليها الطابع المادى، ويشوبها فكر يتسم بالجهل والبعد عن الصواب.

* يستمر هذا التوضيح فترة ليست بالقصيرة، حتى يتم لذوى هذه العادات وتلك التقاليد الفهم أو الوقوف على مافيها من أخطار وأخطاء.. ثم تبدأ بالنهى عنها.

* وضع برامج العادات الأخرى البديلة، والترغيب فيها من خلال ما تقدمه من مؤشرات سلوكية تليق بالمستوى الإنسانى، وترتقى بالوجود البشرى إلى المكانة السامية التى تليق به.

* إذا تم الترغيب على الصورة المكتملة المقنعة، فلابد من الإلزام باتباع هذه العادات المرغوبة، والابتعاد عن تلك العادات، التى كانت تمثل حجر عثرة بين الإنسان والصراط المستقيم.

ومن هنا يتم التعبير إذا كان الإيمان صادقًا... والعزيمة جادة.

وقد يطالبنا سياق الحديث بأن نسترشد بآيات من القرآن الكريم، توضح ضرورة الترغيب والإقناع والابتعاد عوامل القهر والمناداة بالإقناع.

يقول الله تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ

السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾

[الإنسان: ٢: ٧]

والمتأمل للآيات الكريمة، سوف يجد أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بقدرته العظيمة من نطفة أمشاج «صفات متباينة ولكنهما ممتزجة بقدر وعناية» لا عبثًا ولا جزافًا ولا تسلية، ولكنه خلق الإنسان ليبتليه ويمتحنه ويختبره، ويجزيه وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه، ومن ثم جعله سميعًا بصيرًا؛ أى زوده سبحانه وتعالى بوسائل الإدراك ليستطيع التلقى والاستجابة وليدرى الأشياء والأمور المحيطة به، وعليه أن يحكم ويختار ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار.

ووهب الله الانسان الاستعداد للتلقى والاستجابة والمعرفة والاختيار، وكان كل شيء فى خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه فى الحياة بمقدار!!. ثم زوده إلى جانب المعرفة بالقدرة على اختيار الطريق، وبين له الطريق الواصل ثم تركه ليختاره، أو يضل طرق أخرى لا تؤدى إلى الله.

وهنا ينبغى للإنسان أن يشعر بجلية الأمر ودقته، ويدرك أنه مخلوق لغاية وأنه مشدود إلى محور، وأنه مزود بالمعرفة ومحاسب عليها، وأنه قد وجد فى هذه الحياة ليخوض امتحانها ويجتاز البلاء، ونلمس ذلك فى الآيات الكريمة التى تسمى المؤمنين «بالأبرار»، وهم عباد الله تكريمًا وإعلانًا للفضل تارة وللقرب من الله أخرى؛ لأنهم يفعلون ما التزموا من الواجبات، ويتحملون كل المسئوليات التى تدفعهم إلى الأعمال الصالحة؛ لأنهم يخافون يومًا كان شره مستطيرًا.

هنا تتجلى الشخصية السوية فى أعظم معانيها؛ فهى تتمثل فى حساسية القلوب وحيوية العاطفة، والرغبة فى عمل الخير ابتغاء وجه الله والتجرد من كل المحسوسات والابتعاد عن سلوك المصلحة، الذى يجعل الإنسان فى وضع أنانى يفقده إنسانيته.

ويلاحظ أن القرآن الكريم، قد حدد أهدافه بالنسبة للنفس البشرية على الوجه التالى:

خطوات السواء النفسى:

١ - تمحيص النفس وتطهيرها:

أراد الله سبحانه وتعالى للنفس البشرية أن تصفو وتدق من خلال تحملها للشدائد والمحن، وقدرتها على مواجهة الصعاب، وتقبلها ورضاها بقضاء الله وصبرها على البلاء وشكرها على النعماء.

ومن هنا كانت إرادة الله سبحانه وتعالى، ولاتزال النفس البشرية تعانى حلو الحياة ومرها وخيرها وشرها، وأن يكون لها فى تلك المعاناة تمحيص وتطهير وتصفية وتنقية.

وبطبيعة الحال لم يجعل الله سبحانه وتعالى هذا الابتلاء موجهًا إلى نفس دون نفس، ولم ينقذ منه أى وطن أو أمة معينة، بل جعله عامًا فى كل النفوس الإنسانية على السواء.

وإذا نظرنا إلى الأنبياء، وجدنا كيف كان الابتلاء والاختيار من نصيبهم فى الحياة؛ فإبراهيم عليه السلام ألقى فى النار بلا رحمة، لولا أن تداركته رحمة الله.

ويوسف عليه السلام أوذى من أخوته، وبيع بثمن بخس بدراهم معدودات وتعرض للفتنة والابتلاء وطرح فى السجن، ومكث فيه بضع سنين.

وأيوب عليه السلام قد ابتلى بالمرض ومسه الضر.

وعيسى عليه السلام قد تعرض لاضطهاد اليهود وتعذيبهم.

وخاتم الأنبياء محمد ﷺ:

قوبل بالتكذيب والتعذيب والسخرية، واضطهده أقرب المقربين إليه فلا أثر ذلك فى نفسه، بل مضى يدعو إلى الله تعالى مستسهلاً كل صعب مستعذبًا كل عذاب حتى نصره الله ومكن له ولدينه فى الأرض، وهكذا يكون الانتصار،

ويكون الجزاء في مواجهة معركة الحياة، بما فيها من مواقف صعبة وابتلاء ومحن.

وتصور الآية الكريمة قانون النصر للعباد الصابرين في قول الحق تعالى:

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾

[آل عمران: ١٨٦]

٢- وضع النفس في موضعها الصحيح، دون مبالغة في مدحها أو إنقاص من وزنها:

يحدد القرآن الكريم قيمة أن توضع النفس البشرية في موضعها الصحيح؛ بحيث لا تخرج عن قيمتها الحقيقية عن طريق الزهو والفخر، ولا تنتقص من قدرها عن طريق الإنقاص من قدرها... بل إن التوسط والاعتدال من الأمور المهمة التي ينبغي أن تراعيها النفس.

فليس هناك داع لتعظيم النفس ورفعها فوق قدرها، بحيث قد نجد في بعض الاتجاهات الفلسفية من يرى أن الإنسان سيد الكون، وأنه، رب أفعاله، وهذه الاتجاهات، على الرغم من أنها قد تبدو للمتأمل العابر أنها تمجد الإنسان، إلا أنها حطمته بهذه الغلالة وتلك الشرنقة التي جعلته يبدو مغرورًا فكان ضحية لغروره.

وأيضًا هناك اتجاه عند بعض المتصوفة الذين غالوا في احتقار النفس وسلبوها كل قيمة لها، فانسحبوا من الحياة وطرحوا الشواغل وتركوا الأعمال، هؤلاء أيضًا قد أخطأوا الطريق ـ ولا ينبغي للإنسان أن يتصور نفسه حقيرًا أو أقل، وقد كرمه الله ووهبه الإدراك والعقل والمعرفة.

فلا يجوز التطرف في مدح النفس كما لا ينبغي احتقارها.

﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾

[النجم: ٣٢]

التطلع إلى المثل الأعلى من القيم والعادات:

ذلك هو الهدف الأسمى الذى يتركز فى إصلاح النفس والسمو بها؛ لكى يتم لها التعامل السليم مع غيرها من النفوس، ومكارم الأخلاق من الصفات الأساسية للنفس الإنسانية الطاهرة، وقد أوضح الله سبحانه وتعالى أهمية البعد الأخلاقى كأساس فى الشخصية، دون وضع اعتبار لكثرة المال أو عظمة الجاه وقوة السلطان، فكان مدحه للرسول الأمين محمد ﷺ:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

[القلم: ٤]

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾

[آل عمران: ١٥٩]

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

[الأنبياء: ١٠٧]

النفس الإنسانية لابد لها وأن ترتقى من خلال تدريبها على مكارم الأخلاق وأن ترتبط هذه النفس بخالقها، وأن يخضع فى كل أمورها لله سبحانه وتعالى.

٤- تعليم النفس الطاعة من خلال الترغيب، وردها عن المعصية بالترهيب:

إن طبيعة النفس البشرية تحتاج إلى أن نفهمها بعمق لنؤكد من خلال هذا الفهم أن الأعمال الخيرة لابد وأن تنبع من دوافع قوية إليها، ومن هنا وجب الترغيب، والحث على إتيان مثل هذه الأفعال.

وكذلك أيضًا تكون دوافع سالبة نحو الأفعال الشريرة، التى تدفع الإنسان إلى إتيان المعصية والأفعال الكريهة، ويوضح الله سبحانه وتعالى أهمية الطاعة والبعد عن المعصية فى قوله تعالى:

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾

[السجدة: ١٦]

٥- تحقيق الاتصال بين النفس وخالقها، عن طريق تمجيده وتسبيحه وتقديسه وتحميده:

يلاحظ أن التيارات الحديثة فى علم النفس قد بلغ بها المطاف إلى ما يسمى الآن بالاتجاه الإنساني Humanistic approach، ذلك الاتجاه الذى يرى أن العودة إلى الإيمان هى السبيل الوحيد والغاية القصوى، التى من خلالها يصل الإنسان إلى الأمن النفسى ويحقق السكينة لنفسه.

وبطبيعة الحال هذه الدعوة الجديدة لم تقدم جديدًا، لأنها كما يقول المناطقة «مصادرة على المطلوب»؛ بمعنى إذا كانت هذه الدعوة تعتبر جديدة لدى علماء الغرب بحيث تدعوهم أن يعودوا إلى الدين بغية تحقيق الأمن النفسى، فإنها أصيلة مستمرة بالنسبة لمن يريد أن يحقق لنفسه السواء النفسى فى جميع مناحى الحياة؛ لأن شفاء النفس لايتم إلا من خلال هذا الاتصال بين الإنسان وربه... فذلك هو الطريق السليم الذى يأخذ بيد الإنسان، ويجنبه كل سوء.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

[الرعد: ٢٨]

الاتجاهات المختلفة التى تناولت السواء النفسى:

أولاً: الدوافع:

يدفع الفرد فى نشاطه مجموعة من الدوافع، تمثل حالات نفسية لها تأثيرها فى الفرد؛ حيث تعمل عملها فى توجيه الفرد وتحرير طاقاته النفسية، بحيث تمكنه من العمل لإشباع الحاجة التى ظهر لها هذا الدافع لكى تحققها.

وتلعب الدوافع دورها الفعال فى حياة الفرد، الأمر الذى يجعلنا نتناولها من وجهة نظر بعض المدارس التى ذاع صيتها فى مضمار علم النفس والصحة النفسية؛ بغية التوصل إلى فكرة بسيطة عن كل مدرسة؛ لتوضيح كيف كان مفهوم الشخصية السوية يرتهن بهذه الاتجاهات الفكرية لكل مدرسة.

الدوافع من وجهة نظر مدرسة التحليل النفسي:

يمثل فرويد حجر الزاوية بالنسبة لمدرسة التحليل النفسي، ذلك الذى يتصور أن الغرائز تمثل بدورها تلك القوة الدافعة لإحداث التوتر الذى يشعر به الفرد، والتى تعتبر «الهى Id» مركزاً لهذه الغرائز . . . ويرى فرويد أن هذه الغرائز بمثابة مطالب للجسم، وهى محور الحياة النفسية للإنسان. . . فى إشباعها سعادته، وفى وأدها توتره وقلقه وعذابه!!

وبطبيعة الحال. . فإن تفسير فرويد لدوافع الإنسان على أساس غريزى، بل وحدد هذه الغرائز فى غريزتين أساسيتين، هما: غريزة اللذة الجنسية تلك التى عبر عنها بالليبيدو Libido تارة وبالأيروس Eros تارة أخرى، ثم غريزة التدمير أو التحطيم تلك التى تعكس كل جوانب الرغبة فى التحطيم لدى الإنسان.

هذا التصور العجيب الذى وضع الإنسان فى صورة مشوهة قد جعل البشرية كلها منحرفة. . بل لقد قال فرويد نفسه هذه العبارة، بعد أن ترك الإنسان نهباً لغريزة الأيروس، ومنتقماً محطماً من خلال غريزة التدمير والتحطيم، قال:

«إننا جميعًا مصابون بالهستيريا إلى حد ما»(1).

وبطبيعة الحال يعد هذا التصور من قبل مدرسة التحليل النفسى ضعيفًا للغاية وقاصراً فى وجهة نظره؛ لأنه اعتبر الموجود البشرى بمثابة تكوين سديم، لا يتحرك إلا من خلال وخز دوافع جنسية، ولعل هذا التأكيد على ضرورة وإلزام إشباع مثل هذه الغرائز يجعلنا نرفض هذا التصور الفرويدى، على الرغم من اعترافنا بأهميته كمرحلة كلاسيكية فى تاريخ علم النفس، تقرأ بحذر ولا يجوز أن تسيطر؛ حيث إن الإنسان الذى كرمه الله وأحسن تقويمه لا يجوز أن يترك سدى لتعبث به الغرائز وتحطمه الشهوات، وكيف يمكن أن نتماشى مع هذه المدرسة، وقد تصورت أن الإنسان الذى يتمسك بالقيم ويحرص على الدين، وما

---

(1) "We are all hysterical to some extent". Freud, S. "Three Contributions to sexual theory". Pelican books, p. 32.

يتبعه من أمور وتصرفات بمثابة المريض النفسي، الذى قد اغرق نفسه في متاهات لا طائل من وراءها!!

المدرسة السلوكية والدوافع:

يتضح من مسمى هذه المدرسة أنها ترتكز على سلوك الإنسان، والسلوك المقصود هنا ـ ما يمكن ملاحظته، ومن ثم يمكن أيضًا إخضاعه للتجريب والضبط العلمي، ومن هنا اشتهرت هذه المدرسة بما يسمى تكوين العلاقة الحتمية بين المثير Stimulus والاستجابة Response.

والاتجاه السلوكى على وجه العموم بتصور دور الدوافع بالنسبة للشخصية على الوجه الآتى:

١- أن الغرائز لها تأثيرها على الشخصية، ولكنها ليست محورًا أساسيًا فى تكوين الشخصية.

٢- تهذيب الشخصية وتنميتها يأتى من خلال المواقف التى يمر بها الشخص، وبقدر مايمر الشخص بمواقف بقدر ما يمتلك من خبرات[١].

٣- تعترف هذه المدرسة بالدوافع الفطرية. وبدورها فى تحريك نشاط الفرد إلا أنهم يتصورون فقط أن هذه الدوافع الفطرية تركز على مجموعة محدودة من الانفعالات، هى: انفعال الخوف، وانفعال الغضب، وانفعال السرور. ويلاحظ أن هذه الانفعالات يمكن رصدها وملاحظتها بالعيان المباشر، دون الدخول في متاهات اللاشعور، كما زعم فرويد وأصحاب التحليل النفسى.

ترى هذه المدرسة أن الإنسان إذا أراد أن يكون قيمه وأخلاقه، فعليه أن يكونها

---

(١) ينطبق على هذه المدرسة المثل الشعبى الذى يقول:

اللى بعيش ياما يشوف   واللى يمشى يشوف أكثر

بالأسلوب نفسه الذى يكون به مهاراته التعليمية وخبراته المختلفة، ومن هنا فإن القيمة التى لها معنى هى تلك التى لها نتاج محسوس وملموس، ولعل ذلك يوضح الاتجاه النفعى؛ حيث اعتمدت هذه المدرسة على ما يسمى Cash value، وهى القيمة الفورية من العمل، ولقد عبروا عنها من خلال القضية الآتية:

«إن الفكرة الصائبة تؤيدها دائمًا نتائجها الفورية».

وواضح أن هذه المدرسة - وتبعًا لاهتمامها بما هو منظور ومحسوس - قد تغفل أمر الجوانب الروحية كمحك أساسى، يحرك السلوك الإنسانى؛ على اعتبار أن هذا الجانب من الصعب تحديده وضبطه ضبطًا علميًا أمبريقيًا!!

ولعل هذا يمثل نقدًا لهذه المدرسة توجهه إليها، فكيف يمكن أن نتصور الإنسان صحيحًا نفسيًا، وقد غرق فى بحر الماديات؛ حتى أعمته عن أهم جانب من جوانب شخصيته وهو الجانب الروحى!!

الدوافع من وجهة نظر الاتجاه الإنسانى:

الإنسان من وجهة نظر هذا الاتجاه، لابد أن ينظر إليه بطريقة شمولية، فهو ليس موضوعًا تحركه بعض القوى الغريزية، أو هو يرتهن بهذه الموجات العصبية والشرارات التى تبعثها المثيرات بحيث تولد استجابات، ولكن الإنسان كل لا يتجزأ، ومن المستحيل أن يتحول إلى مجرد سلسلة من الوقائع المحضة التى لا تنطوى على أيه دلالة إنسانية.

وليس أمعن من الخطأ من تلك المحاولات السيكولوچية، التى يراد بها تفسير الحالات النفسية بإحالتها إلي مجرد حلقات فى سلسلة طبيعية من العلل والمعلولات، فى حين أن المهم لفهم الظاهرة النفسية هو إلقاء الأضواء على الرابطة الفعالة التى تربطنى بالحدث النفسى؛ حتى يتبين لنا بكل وضح كيف أنه لا يمكن أن تتحقق ظاهرة نفسية فى مجرى شعورى دونى أو على الرغم منى!!

وهكذا نرى أصحاب هذا الاتجاه لا يرفضون وجود غرائز لدى الإنسان، كما لا ينكرون هذا الاتصال العصبي بين المثيرات الخارجية وما يترتب عليها من استجابات، وإلى أي حد تتأثر الشخصية وتتعلم من خلال المواقف التى يمر بها الإنسان، غير أن هذا الاتجاه ينظر إلي الإنسان على أساس أنه كيان، يعمل ككل وأن الإنسان فى سعيه المستمر ينشد تحقيق ذاته.

وأن هذا السعى يمر بمراحل متدرجة قد وضعها ماسلو Maslow، وهو واحد من زعماء هذا الاتجاه ـ فى شكل تنظيم هرمى، جعل فيه الإنسان يتطلع إلى هذه الغاية «تحقيق الذات» كقمة الهرم، وهو يمر بحاجاته العضوية والنفسية متدرجًا صاعدًا لهذه الغاية القصوى، كما يتضح فى الشكل التالى:



ثانيًا: الصراع النفسي ووجهة نظر بعض مدارس علم النفس:

إن الإنسان ليستطيع أن يحيا على نحو ما توجد الأشياء. . . فما عليه لكى يحقق هذا الأمر، سوى أن يترك نفسه نهبًا للقوى الخارجية، ولكن لما كان الموجود البشرى ليس بشيء، فإن مثل هذه الحياة لابد من أن تفرض عليه التنازل عن إنسانيته؛ ومعنى هذا أن الموجود البشرى إنما يصبح موجودًا مبتذلاً، عندما يكون مستغرقًا بأكمله في غمرة العالم الخارجي.

من هنا ينشأ الصراع بين الإنسان ونفسه ومعطيات العالم المحسوس الذى يعيش بين جوانبه، لأن الإنسان عندما تدفعه رغباته لكى تحقق أمرا معينًا يصطدم بعائق. . فإنه يقع نهبًا للصراع النفسى، إذا تعرض لمجموعة من القوى المتساوية، تدفعه فى اتجاهات متعددة فيصاب بالتشتت والتوتر والصراع. ولما كان الإنسان مشغولاً دائمًا عن نفسه بالعالم والناس وحركة الجماعة. . فإنه فى غالب الأحيان ما يكون مأخوذًا بسحر المعطيات الحسية هاربًا باستمرار عن ذاته؛ لأن التركيز الذهنى يضنيه، والتأمل الباطنى يشل حركته ورقابة الضمير تثقل كاهله!!

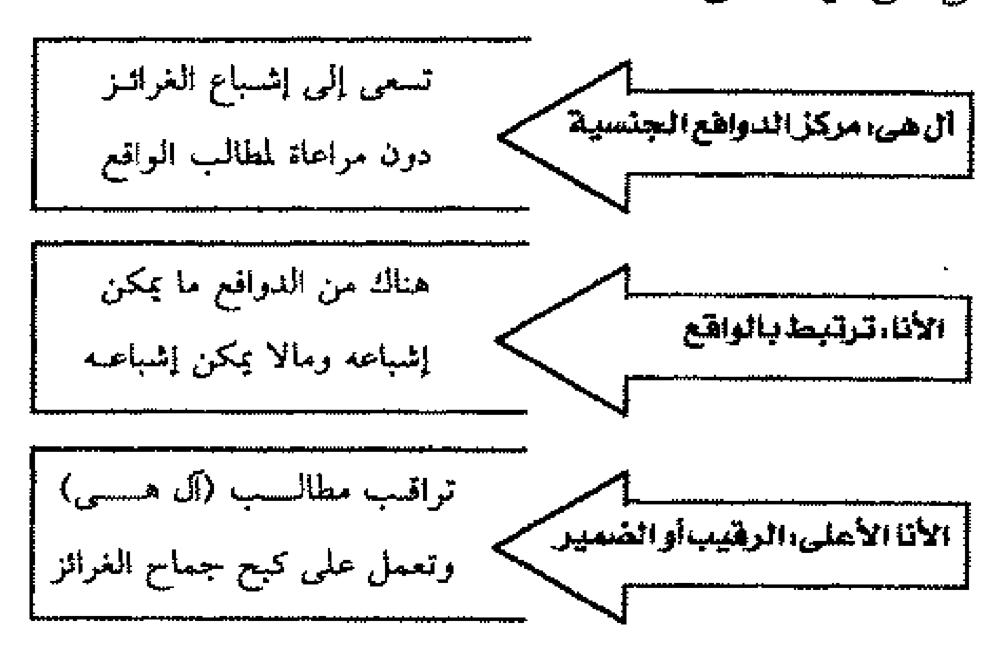
من هنا كان لابد للإنسان من أن يقع فريسة للصراع النفسى، طالما هو قد ألقى بنفسه إلى الخارج فى كل لحظة، محاولاً أن يشبع دوافعه ويحقق مآربه، فكيف يمكن أن يتخلص الموجود البشرى من الصراع النفسى، وهو يميل دائمًا إلى تحقيق ذاته، وفى الوقت نفسه يسعى إلى الطمأنينة والسلوى، وينسى أن الانغماس فى عالم الممكنات سوف يؤدى به إلى التوتر والصراع النفسى!

من هنا كان لابد وأن نتعرف بصورة وجهة نظر مدارس علم النفس حول قضية الصراع النفسى، كما سبق وعرضنا وجهة نظر هذه المدارس فى قضية الدوافع.

الصراع النفسي من وجهة نظر مدرسة التحليل النفسي:

سبق وعرضنا لوجهة نظر هذه المدرسة بالنسبة لقضية الدوافع، وعرفنا أنها ترتكز على إشباع مجموعة الغرائز الحيوية فى الإنسان، وتنسحب وجهة النظر

هذه على قضية الصراع أيضًا؛ لتؤكد أن الإنسان الذى يريد لنفسه أن تتجنب الصراع والتوتر، عليه أن يشبع دوافعه البيولوجية دون أن يتأثر بما قد يصطلح عليه المجتمع من قيم وتقاليد وعادات قد تصطدم مع هذه الحفزات البيولوجية، ويشكل هذا الاتجاه النفسى صورة الصراع النفسى على أنها بمثابة حرب ضروس تشنها أجهزة الشخصية، تلك الأجهزة التى صورها أصحاب مدرسة التحليل النفسى على الوجه الآتى:



الصراع النفسى قائم إذًا لا محالة بالنسبة للإنسان اعتمادًا على هذا التصور لتركيبة الشخصية، ولاسبيل للإنسان من وجهة نظرهم من الهرب من وطأة مطالب (آل هى) أو العلاقة المتوترة بين (الأنا وآل هى) أو المثول، أما محكمة الأنا الأعلى تلك التى تحاول جاهدة أن تقف (للهى) بالمرصاد.

ولقد استطاع أصحاب مدرسة التحليل النفسى أن يجعلوا الإنسان فى حالة من التوتر والصراع المستمر، على اعتبار أن الإشباع الغريزى من الأمور المستحيلة، وأن مالا يستطيع أن يشبعه الإنسان يحول إلى مكونات، تختزن فيما يسمونه مخزن اللاشعور، ومن هنا أعتبر أصحاب هذه المدرسة أن الصراع النفسى بمثابة المدخل الأساسى فى تفسير نشاط الفرد.

وإذا جاز لنا أن نوجه نقداً لهذه المدرسة فى رؤيتها القاصرة للإنسان وتجريده من إنسانيته وتصورها لمفهوم السواء النفسى على أساس أن محوره إشباع غريزى. فإننا نقول: إن الإنسان قد خلقه الله لكى يؤدى رسالة فى الحياة، وأن يفكر فى كل ما من شأنه أن يجعله إنساناً يفكر فى تكوين أسرته، ويتعامل مع المشكلات التى تواجهه وتخفف من حدة متاعبه، ومايمر به من أحداث وما اطلع عليه من أنباء، وما يعتزم القيام به من مشروعات.

إنه إنسان، والإنسان لا يستطيع أن يعيش دون أن يفكر، ودون أن يسمو بنفسه إلى أعلى درجة، تجعله يحاول أن ينفصل ولو إلى حين من هذا المستنقع الغريزى، الذى جعله أصحاب التحليل النفسى يفتح غطاءه، ويكشف بضراوة عن رائحته العفنة التى تزكم أنوف أصحاب المبادئ والقيم والمثل العليا.

الصراع النفسى والمدرسة السلوكية:

سبق وأشرنا إلى أن التنازع بين ميلين يؤدى إلى الصراع النفسى، ويضرب الأستاذ الدكتور القوصى مثلاً طريفاً ليحدد لنا أنواع الصراع، تلك التى سوف نسترشد بها فى تحديد الصراع النفسى عند المدرسة السلوكية، فيقول:

«لنفرض أن شخصاً ما لديه حاجة ملحة شديدة إلى النقود، ولنفرض أن صديقاً له أعطاه نقوداً ليسلمها شخص ثالث، فإنه قد يتخذ واحداً من المسالك الثلاثة الآتية:

١- يسلم النقود لصاحبها بغير تردد.

٢- يأخذ النقود لنفسه بغير تردد ولا يسلمها، أو يؤجل تسليمها لما بعد قضاء حاجته.

٣- يحدث صراع تقع فيه نفسه بين الرغبة فى قضاء حاجته، والرغبة فى أن يكون أميناً، وينتج من هذا الصراع تغلب إحدى الرغبتين على الأخرى[1].

---

(١) ارجع إلى الدراسة الرائدة الموسومة باسم (أسس الصحة النفسية) للأستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى - دار القلم - الطبعة الثانية ١٩٧٦ (ص ص ٩٤، ٩٥).

والمدرسة السلوكية يمكن أن نلخص وجهة نظرها فى أمر الصراع النفسى، مع توظيف المثال السابق على الوجه الآتى:

صـراع الإقـدام:

وهو يشير إلى الموقف الذى يكون فيه الإنسان أمام هدفين مستقلين، على اعتبار أن تحقيق أحد الهدفين يتمخض عن فقدان الآخر.

«يسلم الشاب النقود لصاحبها بغير تردد».

والملاحظ على هذا النوع من الصراع أن أمره سهل وميسور؛ حيث يستطيع الإنسان أن يحسم الموقف بأن يرجح إحدى الكفتين، جاعلاً أحد البديلين هدفًا مرغوبًا فيه يفضله على الآخر.

صـراع الإحجـام:

وهو يشير إلى الموقف الذى يكون فيه الإنسان أمام هدفين؛ بحيث أن تجنب أحدهما يُكْرِه الإنسان على الاتجاه إلى الآخر.

«يأخذ النقود لنفسه بغير تردد ولايسلمها».

صراع الإقدام بالإحجام:

يحدث هذا النوع عندما يكون هناك هدف معين، يمثل رغبة ورهبة فى الوقت نفسه «الرغبة فى الحصول على المال» والرغبة فى أن يكون أمينًا مخلصًا».

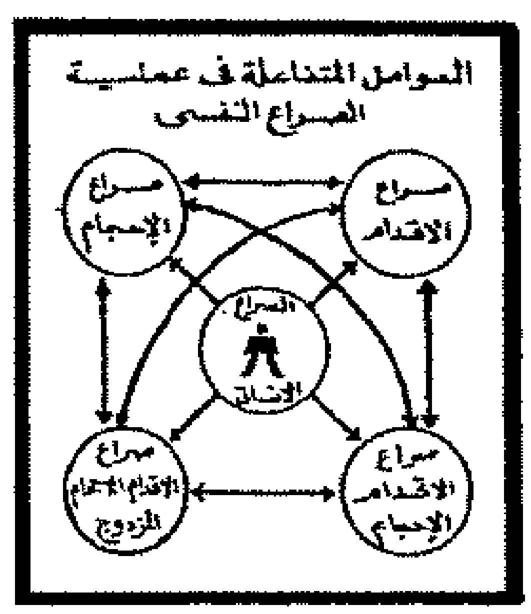
صراع الإقدام بالإحجام المزدوج:

هذا النوع من الصراع هو تركيب من صراعات الإقدام والإحجام - وقد توصل إليها أصحاب المدرسة السلوكية، من خلال تجاربهم التى أجريت على الحيوانات وخاصة الفئران - وجدير بالذكر أن هذا النوع الرابع من الصراع لا يمكن أن ينطبق على حياة الإنسان - تلك التى تتميز بالتشابك والتفاعل وأعمال الفكر والإرادة؛ الأمر الذى جعلنا نتحيط ونحن نتعامل مع مثل هذه الدراسات.

ولقد أورد (عبد الغفار ١٩٧٦) دراسة ميلر ومساعدة (١٩٧١)، وما وصلوا إليه من نتائج فى هذا المجال على أساس تفسير سلوك الإنسان والاسترشاد ببعض المفاهيم الأساسية فى عملية التعلم، كما يراها السلوكيون؛ وخاصة مفهوم مراتب الهدف على الوجه الآتى[1]:

١- يزداد الإقدام نحو الهدف كلما اقترب الكائن الحى منه؛ أى إن الفرد كلما اقترب من هدفه، ازدادت قوة الاستجابة التى تؤدى إلى وصوله إلى الهدف.

٢- يزداد الإحجام عن الهدف غير المرغوب فيه كلما اقترب الكائن الحى منه؛ أى



إن الكائن الحى كلما استشعر اقترابه من موقع الخطر، ازدادت قوة الاستجابة التى تمكنه من الابتعاد عن هذا الخطر.

٣- تزداد قوة استجابة الإحجام بمعدل أكثر من ازدياد قوة استجابة الإقدام (خاصة وأن الكائن الحى يميل إلى الابتعاد عن المثير غير المرغوب فيه).

٤- تتوقف ظهور الاستجابة سواء كانت استجابة إقدام أو استجابة إحجام على شدة الدافع، الذى يعمل على ظهور هذه الاستجابة بنوعيها.

---

(١) ارجع إلى الدراسة التى قدمها الأستاذ الدكتور عبد السلام عبد الغفار (مقدمة فى الصحة النفسية) دار النهضة العربية ـ القاهرة، ١٩٧٦ ص ١٠٩ .

وهكذا قدر للسلوكيين أن يفسروا قضية الصراع النفسى على أساس من الارتباطات الشرطية وتصميم بعض المواقف التجريبية. وقد كانت الحيوانات محوراً لتجاريبهم وأداة تستخدم فى معاملهم، ومن هنا وجب التحفظ على نتائج هذه المدرسة فى قضية السواء النفسى.

الصراع النفسى وأصحاب الاتجاه الإنسانى فى علم النفس:

فى عرضنا لوجهة نظر (ماسلو) فى قضية الدوافع، وجدنا أن الإنسان يتطلع إلى تحقيق ذاته كغاية قصوى، ولعل هذا الأمر ينسحب أيضًا على عرضنا لقضية الصراع النفسى، على اعتبار أن الاتجاه الإنسانى يرى أن الصراع النفسى ينشأ عند الفرد، عندما يصطدم بعوائق تحد من تحقيق إنسانيته، فإذا كانت الاتجاهات السابقة (ونعنى بها فرويد والتحليل النفسى والسلوكية) قد حددت قضايا الدوافع والصراع على أساس الإشباع الغريزى، وتشكيل بعض المواقف التجريبية التى تعتمد على مجموعة من المثيرات والاستجابات.

إن الاتجاه الإنسانى يتصور أن هذه المحاولات لا يمكن نكرانها؛ حيث استطاعت أن تمدنا بكثير من المعلومات والمعارف عن الإنسان. إلا أنها لم تنجح فى أن تعرفنا الإنسان فى جملته، أو هى لم تنجح فى أن تكشف لنا عن الإنسان.

فالإنسان فى نظر هذا الاتجاه هو ذلك الموجود الحر، الذى يند عن كل معرفة حسية بل هو (حرية) وإرادة، تفلت من طائلة هذه الأغلال المتمثلة فى إخضاعه للمواقف التجريبية.

فالإنسان هو الموجود الحر الذى ينبغى أن ينظر إليه على أنه طاقة وإرادة، وتجنب الصراع النفسى يأتى من ممارسة الإنسان لإرادة الفعل Will of doing، ويعتمد على درجة العلاقات الارتباطية التى تحدث بين المثير والاستجابة، وتتم بالاشتراط، وتخضع لعوامل تعززها حينًا، وأخرى تجعلها فى حالة كمون أو انطفاء.

ثالثا: الإحباطات وأثرها على صحة الإنسان النفسية:

وإذا كنا قد تناولنا مفهوم السواء النفسى، من خلال عرضنا لبعض الآراء النظرية التى وردت عند الاتجاه الغريزى متمثلاً فى التحليل النفسى، وعند السلوكيين وأصحاب النزعة الإنسانية والخاصة بالدوافع والصراع النفسى.. فإننا لابد وأن نقرر أن الشخصية تتعرض إلى عوامل أخرى تتعلق بمفهوم الإحباط Frustration، وتأكيد عرض هذا الموضوع يأتى من أن الإنسان يواجه فى حياته مجموعة من العوائق، التى قد تتدخل وتقف حجرة عثرة أمام الشخص؛ فتمنعه من إشباع دوافعه وتحد من رغباته، فيشعر بانفعال خاص يشعره بالعجز وقلة الحيلة!!

وتختلف قدرة الأفراد على تحمل المشاق والصعوبات التى تواجههم فى الحياة؛ فكثيراً ما نجد من الناس من يصاب بهذا الإحباط؛ نتيجة أى تعبير غير متوقع فى مجرى الأمور أو لفشله فى الحصول على ما يريد، وهناك من الأفراد من يتمتع بصلابة قوية، تمكنه من مواجهة المتاعب والتغلب على عوائق الأحداث اليومية بدرجة عالية من الصعود والتحمل؛ بحيث لا يجعلون هذا الانفعال الناشىء من الإحباط يتمكن منهم أو يقلل من عزيمتهم.

والواقع أن الإحباط قد تتدخل فى أحداثه مجموعة من العوامل نذكرها، حتى نؤكد أن درجة تحمل المشاق تعتبر واحدة من أهم معايير الشخصية السوية.

ومن الممكن أن تكون هذه العوامل ما يلى:

* يشعر الفرد بالإحباط عند مواجهة عائق يمنعه من إشباع حاجة، يتطلع إلى إشباعها بحرص شديد ودافع قوى.
* تلعب الخبرات دوراً مهمـًا فى الأفراد؛ فبقدر مرور الإنسان بخبرات متعددة، بقدر ما يتمكن من تقبل الإحباط Frustration tolerance، ومن هنا يختلف الأفراد فى مدى تحملهم مواقف الإحباط، بعضهم عن بعض.
* تلعب المحاور الثلاثة (أهمية الحاجة بالنسبة للفرد ـ شدة الإعاقة التى تواجه

الفرد وضراوتها - عدد مرات الفشل فى إشباع الدوافع) دوراً مهمّاً فى تحديد درجة الإحباط، التى يعانى منها الفرد.

* قد يظهر الفرد سلوكاً عدوانيّاً تجاه مصدر الإحباط Frustration Source، وقد يتصور نفسه سبباً فى عدم إشباع دوافعه فيوجه سهام عدوانه إلى نفسه. ومن هنا ينبغى الاهتمام بتفريغ طاقة العدوان هذه، ونحاول أن نتعامل معها بهوادة؛ لأن الإنسان إذا ما سار تجاه دوافعه محاولاً إشباعها، دون أن يتوقع أو يعمل حساباً لدوافعه، فإنه قد يواجه مشكلات لا يعلم تأويلها.

ومن هنا كان الأدنى للصواب أن يحصل الإنسان على ضرب من ضروب التوازن بين ما يريد وما يملك. . . أو بين ما عندى وليس عندى، ولكنى أرغب فيه وأتطلع إليه!!

فالإنسان لابد له من أن يحرص على اتزانه حرصه على الحياة؛ حتى يتمكن من الاستمرار فى التقدم. . . فإذا كانت هناك ثمة عوامل، قد يكون من شأنها زعزعة تكامل الشخصية فى الحياة الواقعية (مثل المرض والشقاء - الحزن الخطأ - الخطيئة). . فإن هذه العوامل لا يمكن أن تكون بمثابة (قوى هدامة تقضى تماماً على كل توازن). . . بل هى فى حالة الإيمان العميق تصبح (قوى منشطة)، تحفز الإنسان إلى المزيد من النمو الروحى والترقى النفسى.

ومن هنا فإن الإحباط يمثل مؤشراً، نستطيع من خلاله أن نستشف مدى القدرة على تحمل الشخص للمشكلات التى تواجهه.

وليس من شك فى أن الإنسان الذى تستبد به المخاوف من أن يفشل أو يصاب بالإحباط من جراء خوفه من مواجهة المستقبل، مثل هذا الشخص بعيد من أن يكون شخصاً سوياً من الناحية النفسية، بحيث يصعب الركون إليه أو الاعتماد على تصرفاته وأفعاله.

والملاحظ على هذا العرض السريع لبعض مدارس علم النفس بالنسبة لقضية السواء النفسى، أننا لم نرد إلا أن نبرز هذه الآراء بصورة متعجلة؛ بغية التنويه

عن أن هذه المدارس لم تقدم جديداً، ولم تقدم القول الفصل فى حل مشكلات الإنسان الذى صورره مرة كجهاز تتحكم فيه الغرائز، ومرة أخرى على أساس أنه خاضع للمثير والاستجابة، أو أنه يتطلع إلى البعد الروحى الذى يمكنه من تحقيق ذاته.

وهنا نجد لزاماً علينا أن نتجه إلى المصدر الحقيقى للصحة النفسية، ونعنى به ماورد من آيات قرآنية، تناولت الإنسان من حيث شخصيته وانفعالاته وصفاته، التى ينبغى أن يحرص عليها، إذا أراد لنفسه أن يتمتع بالسواء النفسى توطئة لتحديد ملامح الشخصية السوية[1].

ولعل الهدف الذى نريد أن نؤكده أن الإنسان إذا كان قد اعتاد على أن يقبل على اللذة ويعزف عن الألم، فلابد من أن يجد نفسه مدفوعاً إلى المبالغة فى تقرير أهمية الخبرات السارة على حساب الخبرات الأليمة.

وهنا مكمن الخطورة فى أمر الإنسان؛ لأن اللذة لو تحكمت فى أمر الموجود البشرى.. فإن حياته تصبح ضحلة، ليس فيها إلا الخواء والسأم.

ومن هنا لابد من العودة إلى القيم الدينية، ففيها الاتزان الذى يجعل الإنسان يقبل على اللذة بقدر ومشروعية وينصرف عن الألم بقدر وحذر معين، دون أن يكون وجوده فى هذه الحياة الدنيا مجرد سعى لاهث وراء السعادة الحسية، أو دون أن تكون لإرادته أى قدرة أو لعقله أى إرادة، تمكنه من أن يتحكم فى غرائزه ويعمل على تهذيبها وتعقيلها.

(١) لم نتناول ميكانيزمات الدفاع ودورها فى السواء النفسى ـ ورأينا ان نذكرها فى فصل مستقل، لأنها حيل تبريرية يلجأ إليها الإنسان لسد نقص أو لتبرير سلوك ـ ولذلك فهى أقرب إلي الاساليب المرضية ـ ارجع الى ابن حزم ورأيه فى جهود العلماء المسلمين.

◆ الشخصية وتكامل الإنسان

- التعريف الإجرائي للشخصية.
- الشخصية في حركتها وتكاملها.
- تصرفات معبرة عن شخصيات (المسعد والمنحوس . النكدى والبحبوح).
- البناء النفسي للشخصية في الإسلام.

أعطى علم النفس بفروعه المختلفة لدراسة الشخصية اهتمامًا بالغًا؛ ذلك لأن دراسة الشخصية من أهم الدراسات، التى نالت حظًا عظيمًا على مر التاريخ. وعلى الرغم من ذلك.. فإن الدراسات التى اهتمت بدراسة الشخصية الإنسانية لاتزال فى بداية الطريق؛ لأن هناك عوامل كثيرة تتدخل فتعطل فهم الإنسان لذاته، فالإنسان الذى ظل طوال حياته يعتبر نفسه محورًا لهذا الكون، وأن كل شىء مخلوق من أجله، مثل هذا الإنسان قد يجد صعوبة فى النظر إلى الأمور التى تتصل به وبشخصيته بعين مجردة، أو أن يقف منها موقفًا علميًا موضوعيًا خاليًا من كل تمييز، ومن كل رغبة شخصية... وهكذا تتأرجح الأمور فى دراسة الشخصية بين الموضوعية والذاتية؛ مما أثر على الدراسات التى اهتمت بتناول الشخصية الإنسانية بالدراسة العلمية.

والمتأمل الآن للدراسات الأجنبية التى تناولت الشخصية، يجدها قد اتخذت منهجًا جزئيًا، يتناول جانبًا من جوانب الشخصية؛ الأمر الذى جعل النظر إلى موضوع دراسة الشخصية الإنسانية من الأمور الشعبة، التى تحتاج إلى نظرة شاملة ومتكاملة.

وقد تعددت التعريفات التى تناولت مفهوم الشخصية، والذى يعنينا من هذا التعريفات أننا نجدها تتناول جزئيات من الشخصية، لايمكن أن نعتمد عليها، وأصبح التعريف الإجرائى للشخصية هو المحور الرئيسى الذى ننطلق منه، إذا أردنا أن نحدد الملامح الرئيسية للشخصية الإنسانية.

● **التعريف الإجرائى للشخصية:**

يعبر مصطلح الشخصية عن «دراسة الفرد من حيث هو كل موحد» من الأساليب السلوكية والإنمائية المعقدة التنظيم، التى تميز هذا الفرد من غيره من الناس؛ خاصة فى المواقف الاجتماعية.

وهذا التعريف يسوقنا إلى أن الشخصية:

نظام متكامل من الصفات الجسمية والسمات النفسية التى تتميز بالثبات النسبى، والتى تميز الفرد عن غيره من الأفراد، كما تحدد أساليب نشاطه وتفاعله من البيئة الخارجية المادية والاجتماعية التى يعيش فيها.

وترتكز هذه التعريفات على مجموعة من الأركان الرئيسية المميزة للشخصية الإنسانية، وهذه الأركان هى:

التميز: بمعنى أن كل فرد يتميز بخصائص شخصية تخالف تلك الخصائص المميزة لغيره من الأفراد: أى إن الشخصية الإنسانية تختلف من شخص إلى آخر.

الحركية: بمعنى أن الشخصية الإنسانية هى محصلة التفاعل للعلاقة الحركية المستمرة بين الإنسان والبيئة المحيطة به أى إن الشخصية الإنسانية هى نتاج للتفاعل الاجتماعى.

الشمول: بمعنى أن الشخصية الإنسانية تنظيم من سمات Traits وخصائص معينة تميز الفرد، وتحدد استعداده، وتعبر عن مجموعة من توقعات لتصرفاته فى المواقف المختلفة.

والسؤال الآن: ما العوامل المؤثرة فى تكوين الشخصية؟ ومن الممكن أن تكون الإجابة على الوجه الآتى:

(*) يهتم بالتعريف المتكامل للشخصية لأنه هو المحور الذى يعتمد عليه المنظور الإسلامى فى بناء الشخصية المتكاملة.

١- العوامل الجسمية:

يلاحظ أن الأفراد يختلفون بعضهم عن بعض فى التكوين الجسمى. وهناك من يظن أن هذا الاختلاف فى المظهر الجسمى كالطول ـ العرض ـ ضخامة الجسم له علاقة بالشخصية؛ حيث أثبتت نتائج هذه الدراسات وجود ارتباط ضئيل جدًا؛ مما يؤكد أن: **التكوين الجسمى له أثر موجب، ولكنه ضئيل جدًا فى تحديد ملامح الشخصية، وضعيف فى تشكيل أبعادها النفسية.**

٢- العوامل النفسية:

ويطلق على هذه العوامل التكوين النفسى، وعلى الرغم من تعقد محيط الحياة النفسية وتشعبه وتنوعه، إلا أننا يمكن أن نميز بين تنظيمين جوهريين فى الحياة النفسية للإنسان، وهما:

*** التنظيم الإدراكى (العقلى):**

وهو ما يتعلق بالذكاء والقدرات العقلية الخاصة (كالقدرة اللغوية والقدرة الحسابية، والقدرة الفنية، والقدرة العملية)، كما يتضمن العمليات العليا (كالتصور والتخيل، والتذكر، والمهارات العقلية المكتسبة التى ترتبط بمواقف التعلم والاكتساب).

*** التنظيم الوجدانى (الانفعالى):**

ويتضمن أسس السلوك البشرى ودوافعه والعواطف والميول والاتجاهات.

٣- العوامل البيئية:

تؤثر العوامل البيئية المحيطة بالفرد تأثيرًا كبيرًا فى نمو شخصيته؛ فمثلاً نجد أن مركز الطفل فى الأسرة يؤثر تأثيرًا كبيرًا على شخصيته، فالطفل الأول يختلف عن الأخير، وكذلك جنس الطفل يؤثر فى شخصيته. كذلك تؤثر الظروف الأسرية المختلفة فى شخصية الطفل وخاصة العلاقة بين الوالدين، فعلاقة الوئام تختلف فى تأثيرها على الطفل عن علاقة الشجار والخلاف.

ومن بين العوامل البيئية المهمة فى تشكيل شخصية الفرد: العامل الاقتصادى، ودرجة التعليم، وفرص اكتساب المهارات والخبرات الاجتماعية والمعرفية المختلفة. كما يؤثر العمل الذى يؤديه الفرد فى سلوكه وعلى اكتسابه للعادات الفكرية والحركية، وأيضًا ما يصاحب كل ذلك من نواحٍ خلقية؛ فالمهنة لها خلق معين وتقاليد معينة، وهذه التقاليد يجب أن يتبعها أفراد المهنة، ومن ثم فإنه ينتج عن اتباعها اكتساب صاحبها أسلوبًا وسلوكًا معينًا فى معاملته مع الغير، يؤثر فى تشكيل شخصيته(*).

الشخصية فى حركتها وتكاملها،

تعددت الدراسات التى تناولت الشخصية فى حركتها وتكاملها؛ فهناك من يرى أن الشخصية تعبير عن سمات، أو أنها محصلة لمجموعة من المؤثرات الاجتماعية واختلفت الآراء. هل هناك نظام ثابت فى تناول الشخصية، تتفاعل وفق المواقف الجديدة المتعددة؟ هذه التساؤلات كانت محور اهتمام المشتغلين بدراسة الشخصية.

والواقع أن كلا المدخلين صحيح إلى حد ما، ولكن كلاً منهما على حدة لا يصلح أساسًا لتناول الشخصية وتفسيرها، حقيقة أن الشخصية مكونة من عدد من السمات التى تتغير أو تتعدل من غير حدود عند كل خبرة أو تجربة جديدة، كما أنه صحيح أن الشخصية تتشكل وتتعدل وتتغير، كلما واجهت مواقف اجتماعية مختلفة.

أما بالنسبة للتكامل فى الشخصية.. فإن الفرد مكون من مجموعة كبيرة من الاستعدادات الغريزية والإدراكية العامة والخاصة، الفطرية منها والمكتسبة، ويوجد كل عنصر من هذه العناصر فى شخصية الفرد بقدر معين.

ويحقق التفاعل بين الجوانب الوراثية والعوامل المكتسبة ضربًا من ضروب

(*) يلاحظ هنا مدى حرص المعلم على أن يتزود بالقيم الإسلامية الرفيعة، التى من شأنها أن تجعله قدوة صالحة وشخصية مؤثرة وفعالة.

التكامل فى الشخصية، مع ملاحظة أن التكامل فى الشخصية لا يتحقق بصورته الكاملة؛ حيث تتخذ أساليب الحياة، وترتفع مع هذا التعقيد درجة انتشار التوترات النفسية والصراعات الانفعالية.

ويمكن القول بصفة عامة أنه لكى يتم التكامل والتوافق فى الشخصية.. فلابد من تفاعل وترابط المكونات الجسمية والعقلية مع المكونات الاجتماعية والانفعالية.

• تصرفات معبرة عن شخصيات:

وإذا كنا قد عرضنا بإيجاز شديد لتعريف الشخصية والعوامل المؤثرة فيها وضرورة التكامل بين الجوانب الجسمية والعقلية، وكذلك بين الجوانب الاجتماعية والانفعالية.. فإننا نلاحظ أن هناك بعض الشخصيات، التى ظهرت بدافع من أفكار ضاغطة أو عوامل ثقافية معينة أو إطار حضارى، يتميز ببعض العادات والقيم المختلفة، وسوف نعرض لبعض أنماط هذه الشخصيات؛ لنستفيد منها ونحاول أن نتجنب سلوكياتها غير السوية.

المسعد والمنحوس:

يميل بعض الأفراد إلى أن يحيلوا الواقع المحسوس إلى كيان خاص، يخلعون عليه لغة خاصة مبنية على مشاعرهم الذاتية.. تلك التى يترجمون من خلالها أحاسيسهم ورؤيتهم للأمور، موظفين مامروا به من تجارب؛ لأن نظرتهم لهذا الواقع تأخذ طابعًا معينًا تحدده تجاربهم، وماقد مروا به من مواقف وموضوعات وقضايا.

وقد يتوهم هؤلاء اعتمادًا على نظرتهم هذه أن الموضوعات أو المواقف، التى جعلتهم ينظرون هذه النظرة إلى الأمور فيها عناصر الضغط والقسر، التى تجعلهم لايملكون سوى الخضوع لما تستثيره هذه الموضوعات من أحداث وعواطف وتكهنات... الأمر الذى يجعل أحاسيسهم تغلف هذه الموضوعات، فتخلع عليها وجودًا جديدًا قد يجافى الواقع ويبتعد عنه، فمن خلال هذا الإسقاط

العجيب، والتوقع الذى قد يجسد توهمهم، نرى هذه النظرة المتشائمة.. أو نتوقع ما يمكن توقعه من أضرار وهواجس قائمة.

وواضح أن شعور الإنسان بهذه الأحاسيس التى يستوحى من خلالها أفكاره وانطباعاته القائمة (إذا صح هذا التعبير)، قد يكون مرجعه إلى أن هذا الإنسان يحاول ربط التغيير بالعاطفة بحكم شحنتها الانفعالية التى قد تجافى الحقيقة، وتند عن الواقع، ومن هنا لابد من التمييز بين التعبير والتأثير... فإن ماقد يبدو براقًا لامعًا قد لا يرتقى إلى مستوى المعدن النفيس، وماقد يبدو معتمًا للمتأمل العابر يراه صاحب النظرة الفاحصة لامعًا متوهجًا؛ فالحكم على المواقف التى قد تؤدى بالإنسان إلى النظرة المتشائمة أو الفكرة؛ التى لا تكون صائبة فى إشراقها إنما مرده أن أصحاب هذا الحكم لا يرون سوى تلك النظرة العابرة، التى قد تحكم حكمًا سريعًا على المواقف وما قد يصاحبها من تأملات.. فقد ترى الجمال مسطحًا ولكنه زائف غير طبيعى... وقد نهتم بحسن المظهر دون أن يكون التعبير صادقًا!!

الإنسان لابد له من أن يضع ضوابط لأحاسيسه وموانع لشططها... ولامانع للإنسان فى عمره أن يخفف من حدة الألم، حتى وإن عرف بأنه سيستمر طويلاً، أو يلطف من تداعى الشيخوخة مع معرفته الوثيقة بزوال الشباب!! المبالغة فى العاطفة والإغراق فى التأثير الوجدانى، الذى يصاحبها هو بيت القصيد لما سنعرضه من عوامل وأفكار قد تجعل الإنسان يستشعر السعادة، وأنه مصدر لها وأن جميع خطواته ناجحة لأنه إنسان «مسعد»، أو أن هناك من الأفراد ما يجعل من نفسه مصدرًا «للنحس» والفشل، فيصطنع المؤثرات الانفعالية التى تجسم له أحاسيسه فيتوهم الفشل الذريع فى كل خطواته، ولا يملك إزاء هذا الشعور إلا أن يترك نفسه لقمة سائغة؛ يفترسها هذا الشعور بالقنوط والعجز وتوقع سوء العواقب.

● النذائر والبشائر:

ولما كان الشخص الذى يعتقد فى مثل هذه الأحاسيس، هو ذلك الذى يعتقد فى (النذائر) والبشائر تلك التى تدل بدورها على مايخبئه القدر لهذا الشخص فى المستقبل؛ على اعتبار أن هذه النذائر وتلك البشائر هى بمثابة رموز ومنبهات قد تكون فى بعض حوادث، تلعب فيها المصادفة الخارجية دوراً «كإيذاء الطير أو الحيوانات ـ رؤية القطة السوداء فى الليل ـ التعامل مع رقم (١٣)... أو فى بعض الحوادث الداخلية، التى قد تكون من قبيل الأفعال المنعكسة التى لا تخضع لإرادة الشخص»، مثل:

«رف العين ـ الشعور بطنين فى الأذن ـ أو الإحساس بالاكال Itch(*) فى راحة اليد أو بطن القدم»؛ وهذه الرموز والمنبهات خارجية أو داخلية Intrinsic يقابلها استعداد لتفسيرها بحسب الصفات الانفعالية وعوامل، قد ترجع إلى ظروف التنشئة الاجتماعية، التى يمر بها كل شخص بحيث يضفى على هذه الرموز مغزى ومعنى، وقد يتخذ منها إما بشائر خير يتفاءل بها أو نذائر سوء يتشاءم منها.

وعندما نتكلم عن الشخص، الذى يمكن أن يقال عنه إنه شخص مسعد أو منحوس.. فإننا نحاول أن نحدد منذ البداية ما يمكن أن يرتبط بهذا الشخص أو ذاك من سمات تدعو إلى التفاؤل أو سمات أخرى تجعله متشائمًا، خاصة وأن الكلام عن التفاؤل قد يجعلنا نشعر بضرب من ضروب الانقباض والجمود والتحجر بالشخص المنحوس.

وإذا حاولنا أن نوضح البعد النفسى لاعتقاد البعض أن هناك من الأفراد من يطلق عليه شخصية (مسعدة)، وهناك من نطلق عليه شخصية (منحوسة).. فلعل هذا الاعتقاد مرجعه إلى مجموعة من العوامل، التى قد تكون على الآتى:

---

(١) ارجع إلى: نجيب يوسف بدوى: سيكولوجية التطير ـ مجلة علم النفس، يونيه، ١٩٤٩، مجلد ٥، ص ١٦٨

• البيئة المنزلية ودور الوالدين:

تشكل الأسرة بإسهامها الفعال فى عملية التطبيع الاجتماعى للفرد مطلبًا مهمًا من مطالب النمو الاجتماعى، بما تقدمه من محاولات لتعليم الأبناء وكيفية التمييز بين الصواب والخطأ والخير والشر ومعايير الأخلاق والقيم، وكيفية تكوين اتجاهات سليمة نحو الجماعات والمؤسسات والمنظمات الاجتماعية، وتكوين المفاهيم والمدركات الخاصة بالحياة اليومية، وتعلم فن المشاركة فى الحياة اليومية وكذلك تعلم وممارسة الاستقلال الشخصى، ونمو مفهوم الذات واكتساب اتجاه سليم نحو الذات.

ومن خلال هذا الدور المهم، نجد الأبناء والبنات يكتسبون عن طريق المحاكاة من الوالدين أو أحدهما بعض الاعتقادات، التى تدور حول علامات «السعد وعلامات النحس»، أو ما يمكن أن يسمعوه من خلالهم حول علامات «الفأل الحسن والفأل السيئ أو الشؤم».. فمثلاً نجد بعض الأسر، وقد استخدمت تعاويذ معينة، وعلقت بعض الأحجبة أو بعض العاديات، مثل «حدوة الفرس - خمسة وخميسة، وهى التى يعبر عنها برسم أصابع اليد مفتوحة...» واستخدام الخرزات الزرقاء؛ لكى تبعد العكوسات، وتدفع عنهم الأذى الذى قد يأتى من الحساد وأصحاب النوايا غير الطيبة.

وإذا كانت هذه الأساليب تمثل حماية من نوع معين، ووقاية فإن هناك من الأسر من تحاول أن تغرس فى نفوس الأبناء بعض السلوكيات التى تجلب المشكلات أو تؤدى إلى النحس، ومن هذه الأفعال التى تنهى عنها بعض الأسر «سماع صوت البومة أو رؤيتها - كنس المنزل ليلاً - الغراب وصوته - رؤية الوجه فى مرآة مكسورة - حياكة الملابس ليلاً... إلخ».

وهناك أيضًا بعض التكوينات لها علاقة ببعض الأشخاص، فإذا «رأيتهم فى موعد أو فى أوان معين ثم حدث لك أى مكروه.. فإنك قد تحاول أن تربط هذا المكروه بالشخص وكأنه قد أسهم فى إحداث هذا المكروه».

كل هذه الأمثلة وغيرها يأخذها الأبناء من الآباء أو الأمهات، فيحاولون اعتماداً على غرسها المستمر أن يحاكوها أو يتمثلوا بها.

• الصدفة المتكررة:

وقد تتدخل بعض العوامل التي تحدثها «الصدفة»؛ فيقرن بعض الأفراد بين ماترمز إليه هذه الصدفة، سواء كان الرمز حسيـّاً كأن يشعر بحاجته إلى «هرش راحة يده اليمنى»، فيتوقع أنه سوف يأتيه المال وسوف يقبضه بهذه اليد، الذى يشعر من خلالها بحاجته إلى «حكها أو هرشها». والغريب فى أمر هؤلاء أن يحدث لهم ما توقعوه، ويتصادف فى شعوره نفسه بحكة اليد أن هناك من يدفع له نقوداً فعلاً؛ فيقترن هذا الشعور بموقف معين أو توقع محدد وقد يثبت هذا التوقع، وكذلك أيضاً قد يجعل هذا الشعور مغزى آخر، فهناك من يرى أن هذا الشعور المصاحب، لما يستشعره الفرد من حاجته إلى هرش أو حك راحة يده اليمنى هو توقعه أن يسلم على شخص آت من السفر أو شخص غائب وسوف نراه!! وقد تحدث المصادفة العجيبة ويأتى شخص طال انتظاره، أو عودة مسافر يشتاق المرء إلى رؤيته، وتكون المصادفة عجيبة لأن الشخص الذى قد شعر بهذا الشعور قد أعلن عن أحاسيسه، وناقش توقعاته سواء أمام بعض الحاضرين.. أو على أقل تقدير بينه وبين نفسه!!

وهناك أيضاً بعض المصادفات التى تتعلق ببعض الحركات أو التصرفات، التى يخلع عليها بعض الأشخاص دلالات معينة.. فإذا نبشت القطة «السجادة أو الكليم» بمخالبها، فهذه علامة من علامات التنبيه إلى أن هناك ضيوفاً سوف يحضرون، وأن العين اليمنى إذا «رفت أو ارتعشت».. فإن ذلك يبشر بالخير عكس العين اليسرى فإن «رفتها» أو رعشتها نذير شؤم.

والملاحظ أن مواقف المصادفة المتكررة تعبر عن منبهات داخلية Intrinsic (مثل رف العين - الرغبة فى عرش راحة اليد، والفروق الجوهرية بين رعشة العين اليمنى واليسرى وما تحمله من دلالات ومعان.. إلخ)، وهناك منبهات خارجية

Extrinsic، كما سبق وأوضحنا مثل رؤية قطة سوداء أو الاستماع إلى صوت البومة ورؤيتها أو التعامل مع رقم (١٣)، أو رؤية القطة تنبش بمخالبها البساط أو السجادة، أو رؤية من يكنس الأعتاب ليلاً . . . إلخ.

وجدير بالذكر أن هذه الحالات قد يتطرف أصحابها في أمر ترسيخ عقيدتهم بها، والتذرع بما تحمله من رموز والإيمان العميق بما ستسفر عنه من نتائج؛ فتصبح علامات لخير قادم أو تهديدات لشر مستطير، وهذا دليل على أن الأمر يتوقف إلى جانب ما أشرنا إليه من تأثيرات أسرية، تغرس من جانبها بعض الاتجاهات، من خلال ما يعتقد فيه الوالدان إلى جانب ما تحدثه الصدفة المتكررة من ترسيخ بعض المفاهيم، التي لها علاقة بما يجلب «السعد والنحس»، أو بما يؤدي إلى الفأل الحسن والفأل الشؤم.

ومن هنا لابد وأن يرتبط من وجهة نظر الشخص، الذي يعتقد في هذه المنبهات ـ تكرار ظهور رمز معين بحوادث سعيدة، اعتماداً على ما ترتب عليه من نتائج، والعكس إذا ترتب حدوث هذا الرمز بحوادث نحس أن يصبح هذا الرمز مثيراً للتشاؤم، وتلتصق هذه المنبهات وماتحمله من رموز ودلالات على سلوكيات هؤلاء الأفراد، فيحمل نفسه مسئولية النتيجة اعتماداً على حساباته وتوقعاته، فإذا «رفت عينه اليسرى ثم صادفه في يومه ما يكدره أصبح (رف) العين اليسرى رمزاً مرتبطاً بحوادث نحس ومنبهًا يتوجس منه الشر، ونذيراً للسوء وباعثًا على التشاؤم يجعله يستشعر مرارة ما سوف يحدث، ويظل يجتر هذا الإحساس، حتى ولو لم يحدث ما توقع!!

وبطبيعة الحال . . فإن مثل هذه الأفكار وتلك الأحاسيس قد تؤدي بصاحبها إلى ما يمكن أن يحرمه من توظيف لغة المنطق والفكر، تلك اللغة التي تجعله ينظر إلى مثل هذه الأمور نظرة عقلانية، توجهه فيها إرادته الواعية، التي تمكنه من تفنيد الأمور، والرؤية ببصارة ووعي . . إلى جانب إيمانه الواعي بقدرة الله سبحانه وتعالى.

• **التهويل من أمر الفكرة المتسلطة:**

وهناك من الأشخاص من تتسلط عليه بعض الأفكار، فيشعر بالخوف والفزع من جراء ماسوف يحدث لهم، إذا خطرت فكرة معينة على خاطرهم، أو تداعت بعض المعانى على منوال فكرهم، فتتسلط عليهم بعض الافكار وتطاردهم وتلاحقهم، وأصحاب هذه الأفكار من الأفراد يستشعرون الخوف والشؤم، ويصابون بنوع من المغالاة فى تقدير الفكرة النفسية فى داخلهم. وقد لا يستأهل الواقع الفعلى هذا التهويل المصاحب لأفكارهم، ولكن هذا الإلزام Obligation الذى يصاحب أفكارهم، مؤداه أنهم يجعلون من الفكرة، التى تتسلط عليهم فكرة محسوسة ومجسدة فيغالون فى أمرها ويهولون من سوء عواقبها ونتائجها. ومثل هذا الأمر يجعل الشخص لا يبحث عن السبب الحقيقى الذى قد يؤدى إلى العواقب السيئة، ولكنه يترك نفسه نهبًا لضغط الفكرة، التى قد سجلت فى تفكير الإنسان اعتمادًا على تكرارها؛ بحيث لايقوى هذا المستشعر لها أن يسيطر على هواجسه وأفكاره. وبطبيعة الحال لا يستطيع صاحب هذه التهاويل أن يسيطر على الأعراض دون السيطرة على أسبابها الحقيقية، وكيف يمنع نفسه من تعميم الحكم اعتمادًا على تقصى الحقائق، وابتعادًا عن الموقف الجزئى، الذى يتشبث به ويفترض فيه النموذج والأصل فى كل ماحدث وسيحدث.

وقد نجد هذا الشخص صاحب «التهاويل»، التى تند عن الواقع وتبتعد عنه بفضل أفكاره المنذرة بالسوء والمبشرة بالتشاؤم Omnipotence of thought يصاب بحالة عصابية من جراء هذه الأفكار، فيغالى فى تقدير الفكرة ويجعل من «الحبة قبة»!!

ولعل هذه النماذج السلوكية تجعلنا نقرر أن «الحصار الذى فرضه» هذا الشخص على نفسه قد ساهمت فيه بعض الأفكار، التى قد لا ترتقى إلى مستوى الفكر المنطقى المبنى على الشواهد العلمية السليمة، والمحتكمة إلى الواقع الفعلى.

ويرى القوصى(*) أن مثل هذا النموذج قد يشعر «بأنه مظلوم ومضطهد وسيئ الحظ، ويرى هذا عادة فى نفسه أنه عبقرى مضطهد، فإذا طاله خير فقد ناله رغم أنف الجميع، وإن ناله شر فهو من سوء النية نحوه من كل من حوله، هذا الشخص تجده فى العادة قلقًا كثيرا الاتهام كثير الاعتداء على من حوله وتجده شديد الحرص خوفًا ممن حوله».

وبطبيعة الحال.. فإن أفكاره المتسلطة قد جعلت الخوف الكامن فيه من تأثيرها عليه هو الأساس، الذى تبنى عليه شخصيته.

النكدى والبحبوح:

• الشخصية النكدية:

كثيرًا ما نسمع بأن هناك من الأشخاص من يحاولون، مهما كان الموقف مبهجًا ومسليًا، ويدعو إلى التفاؤل والأمل والانشراح أن يحيلوا هذه البهجة وذلك الانشراح إلى حزن وهم وجزع، إما باختلاق المواقف المحزنة التى تثير الإحساس بعدم الانتماء إلى هذه الجماعة، من خلال تغليف الموقف بالتشاؤم وعدم الرغبة فى المشاركة وإيثار السكون، أو إطلاق التهكمات والتندرات على مصير هؤلاء الذين أسكرتهم الغفلة، وجعلتهم يشعرون بهذا الإحساس المبهج والانشراح والسعادة أو بالابتعاد والانطواء، وهذه الشخصية (النكدية) قد يرجع منشأ هذا السلوك لديها إلى تداخل بعض العوامل، التى يمكن أن نبلورها فى العناصر الآتية:

* **الإحساس بالعجز عن مسايرة الجماعة والتماشى مع ديناميتها والتفاعل مع اتجاهاتها**، وبطبيعة الحال عندما يجد الإنسان نفسه عاجزًا عن أن يفعل شيئًا.. فإنه تحت وطأة هذا العجز يمتنع عن المشاركة، ويصاب بضرب من ضروب العزوف عن المشاركة، فتصبح الجماعة بالنسبة إليه غريبة فى أفعالها

(*) عبد العزيز القوصى: مشكلات وصور نفسية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٤٥ .

وتصرفاتها، وتعزله الجماعة عنها اعتماداً على تصرفاته، التى تندهش لها الجماعة. . فهى تراه بدورها غريب الأطوار.

* **عدم وجود العلاقات الاجتماعية** بالنسبة إليه، وقد يرجع ذلك إلى رواسب تربوية، ترجع إلى تنشئته الاجتماعية. . فلم يتدرب التدريب الكافى على فن تكوين العلاقات الاجتماعية؛ مما قد يضطره إلى أن يسلك مع آخرين يقابلهم سلوكيات قد لا تعبر عن المرونة الاجتماعية، وتترجم عن قصور فى مستوى الذكاء الاجتماعى.

ومثل هذه التصرفات بطبيعة الحال تجعل الشخص يجتر نفسه ويستعيد أفكاره القاتمة، التى تجعله دائماً لا يستطيع فيبدو فى أغلب الأحوال متجهماً، عابساً.

* **فقدان الإحساس بالحياة** بحيث قد يصير كل ضحك بالنسبة إليه عبارة عن بكاء وعويل، وكل نشوة وفرح تنقلب إلى هموم وأحزان. . . لأنه يتوجس المصائب التى سوف تقع والكوارث التى سوف تحدث، وحتى إذا شاء له شعوره الحزين، وإحساسه المستمر بالهم والتوتر أن يضحك. . فإنه يبدو «مذعوراً من هذا الضحك»، ويبتهل إلى الله داعياً أن يجنبه كل مكروه من جراء هذا الضحك؛ لمجرد أنه يشعر بأن الموقف الضاحك أكبر من إحساسه، ويعلو على مشاعره الحزينة ويختلف عنها.

* **ضعف الإرادة وعدم القدرة على تحمل الإحباط** من الخصائص المميزة للشخصية النكدية، وتعد سبباً من الأسباب الجوهرية لتعاستها؛ فمثل هذه الشخصية لا تقوى على المخاطرة برأى، أو التفاعل بفكر، أو التعاون بسلوك أو تصرف، ولما كانت شخصية الإنسان فى سويتها تتمثل فى إرادته التى تناضل وترضى بما يواجهها من عقبات، وتحاول أن تذلل هذه العقبات، ثم تناضل من جديد.

فالسعادة الحقيقية تتمثل فى التحول من السلبية إلى الإيجابية، ومن القنوط

إلى الأمل، ومن المعاناة إلى الرفاهية، ومن التراخى إلى الحيوية والنشاط والعمل.

وجدير بالذكر أن الشخصية النكدية التى تتوقع دائمًا الشر وتخاف الفقر، والمرض، وتتطلع دائمًا إلى ما يحميها من الأذى قد حكمت على نفسها حكمًا قاسيًا، فأساس كل ضروب الإرادة هو الحاجة والعوز، ثم الإنجاز والعمل والمحاولة المستمرة لسد هذه الحاجة وإشباع ذلك العوز. فإرادة الإنسان إذا افتقدت موضوعات الرغبة بسبب حرمانها منها فجأة من خلال الإشباع السهل.. فإن إحباطًا وضجرًا مخيفين يحلان بها؛ أى إن كيانها ووجودها يصبحان عبئًا وهمًا عليها، ومن هنا يكون الشخص مهمومًا لأنه لا يريد أن يكون إراديًا، ولا يحب أن يكون متوقعًا للإحباطات... التى هى سر لإنجازات الإرادة السوية، من خلال تقبل هذه الإحباطات والعمل على تجاوزها وتخطيها.

الشخصية البحبوحة:

إذا كنا قد عرضنا للشخصية النكدية وتعرفنا بعض أبعادها.. فإن الشخصية البحبوحة تتطلع دائمًا من خلال سلوكياتها إلى الأمل، وأن هذا الشعور يجعلها فى حالة انشراح وتفتح وصبر وأناة وتحمل لكل أنواع المعاناة.

وإذا كان هناك أناس لا يقوون على تحمل الآلام بحكم ضعفهم، وأن تجاربهم تزعزعهم، وأن البلايا تعصف بهم وتهد المحن كيانهم؛ مما يجعلهم يقعون صرعى تحت ضربات القدر، فيعذبون أنفسهم، ومن ثم ينعزلون عن المشاركة والتفاعل ويتداعى بناء شخصيتهم، فيبدو كل منهم محطمًا مهيض الجناح مغلوبًا تمامًا على أمره فاقدًا لطعم الحياة وما يتطلبه من تذوق، معتمدًا على إرادة غير منجزة ورؤية غير مستبشرة للأمور.

إن الشخصية البحبوحة تعيش مع خبرة الأمل؛ بوصفها خبرة الإنسان فى سويته بعيدًا عن الشعور باليأس، على اعتبار أن الأمل خبرة معاشة، تعنى بالضرورة أن الشخص الذى يتمتع بهذه الخبرة يتجه إلى الامام، وأن جهده معبأ من أجل تجاوز الحاضر والإسهام الفعال فى صنع مستقبل أفضل.

والشخصية البحبوحة فى تشبثها بخبرة الأمل وتطلعها المستمر لكل ما من شأنه أن يدفعها إلى الإنجاز والإنتاج المثمر، إنما تعتمد على مجموعة من الخصائص، نوجزها فيما يلى:

التقدير السليم للظروف:

تتمتع الشخصية البحبوحة بإرادة تزن الأمور وتقدرها؛ بحيث لا نجدها تتعامل مع موقف أو ظرف طارئ إلا اعتمادًا على ما يتطلبه وتستدعيه الظروف من تصرفات، فالإرادة لديها هى التى تخلع على الظروف دلالتها، وهى التى تنسب إليها أقدارها؛ ولعل ذلك ما يجعل كل ظرف أو موقف رهنًا بمدى (قوة الإرادة) ومدى استعدادها للتحمل والمواجهة والمجابهة، وتصبح الشخصية البحبوحة فى تطلعها إلى الأمل مزودة بإرادة من وزن الأمور، ووضع نتائجها فى الصورة المعقولة، دون تهويل أو تقليل من شأنها. ومن هذا المنطلق يكون التصرف موازيًا لما تتطلبه هذه الظروف وتلك المواقف، بعيدًا عن عوامل اليأس والقنوط.

التفاعل مع الآخرين بثقة ومودة:

وحتى يتحقق الأمل وتحقق الإرادة ما تصبو إليه.. فإننا نجد الشخصية البحبوحة تتمتع بالأريحية، وما تكشف عنه من سلوك يتميز بالعطاء والتفاعل مع الآخرين، فعندما يكون بينى وبين الآخر هذا الوصال المبنى على التفاعل والمودة، تضيع فكرة التشاؤم والخوف من الآخر، سواء كان هذا الخوف مصدره تأويلاته أو هواجسه، أو خططه أو حسده. وهذه المودة المتبادلة سوف تطرح الثقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، فيشيع الأمل ويستشرى التفاؤل بين الأفراد، دون أن تكون العلاقة مبنية على الشك أو توقع الأذى أو هواجس الشر، كما نجد عند الشخص النكدى المتشائم، الشخصية البحبوحة حين تطرح ثقتها فى شخص ما من الأشخاص.. فإنها تتوسم فى هذا الشخص أنه أهل لتلك الثقة؛ حيث تعبر الثقة عن الثبات والاستقرار الانفعالى، عكس الشك الذى يجعل الإنسان الفرد

يشعر بضرب من ضروب القلق والتوتر، فى تعامله مع الآخر، ينعكس على مدى اتزانه الانفعالى واستقراره العصبى.

واعتماداً على هذا البعد المهم الذى يميز الشخصية البحبوحة.. فإننا نجد الثقة والمودة يحملان طابع الأمل، ويجعلان الشخصية تتجه بثبات وأمل وتفاؤل إلى ما يحقق لها تطلعاتها، ويعمل على توطيد أواصر المحبة بينها وبين الآخر.

الإقبال على الحياة بوجه عام:

والشخصية البحبوحة ـ بحكم ومرونتها وثقتها المطروحة بعقلانية ومودة بالآخرين ـ تقبل على الحياة مرحة منشرحة، فهى لا ترفض التفاعل والإسهام الفعال فى كل ما من شأنه أن يحقق الإنجاز، بل هى محبة للحياة متفاعلة معها، واعتماداً على هذا الاتجاه الإيجابى نراها فى سعيها المستمر تحاول أن تكتشف كل يوم أسباباً جديدة للحياة، تعمل على زيادة هذه الألفة، وتقوى عاطفة الحب فيزداد التفاعل بدوره، ويتدعم السياج المتين بين أصحاب الإرادة القوية، التى تكتسب قوتها ونشاطها من هذا الإحساس بالتفاؤل والأمل.

وجدير بالذكر أن الشخصية البحبوحة لاتقوى على ذلك، إلا إذا حطمت القيود الذاتية التى تتصف بها الشخصية (النكدية)، والتى جعلتها تبدو منغلقة على نفسها، محجمة عن التفاعل معزولة عن الآخرين.

ويلاحظ من خلال هذه العرض لبعض العوامل التى قد تميز الشخصية النكدية، والتى عرفنا من خلالها كيف كانت تشعر بالعجز وعدم القدرة؛ مما جعلها لا تقوى على تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية السليمة، فحكمت على نفسها بالعزلة بعيداً عن المشاركة الفعالة فى أمور الحياة، وما تتطلبه من إنجازات وما تتوقعه من نشاطات، ففقدت الشخصية (النكدية) بهجة الاستمرار السوى فى الحياة.. فضعفت إرادتها وتمكنت منها المشكلات وحطمتها الإحباطات.

فالأمر يختلف بالنسبة للشخصية البحبوحة... تلك التى تتجه إلى كل ما من شأنه أن يحقق لها أسباب التواصل مع الحياة والآخرين، فلا تعرف إلا الثقة فى

التعامل والمحبة فى المعاشرة، والتفاؤل فى تناول المشكلات، والإرادة الواعية فى مجابهة الظروف والمواقف والتعامل معها بمرونة وفهم وتقدير واقعى موضعى.

والهدف الأساسى الذى نسعى إلى تأكيده، من خلال عرضنا لبعض ملامح الشخصية النكدية والشخصية البحبوحة، يتجلى فى محاولتنا أن نوضح أن سلوك التشاؤم هو سلوك مرضى، تتميز به شخصية لا تعترف بالواقع المعاش؛ ولذلك فهى شخصية لا تتمتع بالصحة النفسية، أما الشخصية البحبوحة فهى الشخصية التى نراها تحاول أن تؤدى دورها الإنسانى السليم، وأنها بفضل تفاعلها ومشاركتها الواعية والتزامها بالقيم الإسلامية الرشيدة، وحرصها المستمر على إعمال الإدارة دائمًا فى كل تصرفاتها، تجعل الأمل وما يصاحبه من تفاؤل هو الغاية القصوى والهدف المنشود.

ويلاحظ أننا فى عرضنا لهذه الأنماط من الشخصيات، نحاول أن نقرب الأذهان لهذه الأنماط الجديدة التى بدأت تظهر، وخطورة التشبث بالتصرفات السالبة لهذه الأنماط. ولكى نحذر من خطورة الشخصية النكدية على وجه التحديد.. فإننا نوضح السمات التى تتميز بها وفق الدراسة العلمية، التى قام بها (سيد صبحى ١٩٨٤)(*) على الوجه الآتى:

- شخصية عاجزة عن الاندماج والتفاعل مع الجماعة.
- شخصية تميل إلى تهويل الأمور أكثر مما ينبغى.
- لا تستطيع مواجهة المشكلات.
- تحاول دائمًا أن تسترجع ما يؤلمها من ذكريات وأحداث.
- لا تحب المرح والتفاؤل.
- لا تعتقد فى الإرادة والعزيمة بل تؤمن بالحظ والنصيب.
- قدرتها على تحمل الإحباطات ضعيفة.

(*) ارجع إلى: سيد صبحى: «التفاؤل والتشاؤم دراسة نفسية مقارنة بين الكفيف والمبصر» المركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين، القاهرة، ١٩٨٤ .

- لا تثق فى الآخرين وتعاملهم بشك وخوف.

- تتوقع الأذى من الآخرين.

- المستقبل بالنسبة لها مظلم.

أما الصفات التى تميز الشخصية البحبوحة المتفائلة، فهى:

- تقدر الأمور والظروف تقديراً سليماً.

- تعامل الآخرين بمودة وثقة.

- تقبل على الحياة بانشراح ومرح.

- تتميز بالاستقرار الانفعالى.

- تتعلق بالأمل وتخطط للمستقبل.

- تواجه المشكلات بمرونة وتعمل على حلها.

- توظف إرادتها أمام الصعاب من الأمور والمواقف.

- لا تميل إلى استعادة ما يؤلمها من ذكريات سابقة.

- تشارك بفعالية فى الخدمات الاجتماعية.

والملاحظ على العبارات التى تميز الشخصية النكدية والصفات التى تميز الشخصية البحبوحة، أن هذه الصفات تشخص إلى حد ما بعض الأبعاد التى تميز كلتا الشخصيتين؛ مما يجعلنا نؤكد أن مفهوم الشخصية النكدية والشخصية البحبوحة من المفاهيم، التى تدخلت فيها العوامل الثقافية والحضارية، وما يتبعها من عادات وتقاليد وأساليب وتصرفات سلوكية.

البناء النفسى للشخصية فى الإسلام:

تناول الإسلام بوصفه الدين القيم الطبيعة البشرية، وحدد دور الإنسان ووظيفته ومصيره، وبناءه النفسى، وهذا التناول يعبر عن تكامل الرؤية وشموليتها. وأوضح الإسلام كيف أن الإنسان يتميز عن سائر الحيوانات الأخرى

بالعقل الراجح واللسان الناطق والطاقات العقلية والاستعدادات، التى تمكنه من أن يكون أهلاً للعبادة والتدبر وإقامة شعائر دين الله، هذا الإنسان الذى ميزه الله قد جعل له تركيبه تحدد شخصيته وتضع ملامحها، ومن الممكن أن نوضح ذلك البناء النفسى الشامخ، الذى حدده الدين الإسلامى الحنيف للشخصية الإنسانية، على الوجه الآتى:

أولاً: العلاقة بين الإنسان والكون المحيط به:

يوضح الله سبحانه وتعالى قيمة خلق الإنسان، وعلاقة هذا الإنسان بالكون المحيط به، ونلاحظ ذلك من خلال الآيات البينات التى ذكرت قصة خلق الإنسان من «طين» فى صورة، تعبر عن عظمة الخالق وكمال قدرته، وينبه الله سبحانه وتعالى الإنسان إلى نعمه وفضله التى لاتحصى، ويؤكد سبحانه وتعالى العلاقة الوطيدة التى تربط بين الإنسان وما سخره الله تعالى لخدمته. وسوف نذكر بعض الآيات الكريمة لنوضح كيف وصف الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وخلق نسله من بعده، وكيف حدد سبحانه هذه العلاقة بين الإنسان وبين الكون المحيط به.

يقول الحق تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾.

[الحج: ٥]

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾.

[الأعلى: ١، ٢]

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾.

[الزخرف: ١٠]

هذه الآيات وغيرها توضح كيف أن الله سبحانه وتعالى أراد للإنسان أن يتفاعل مع الكون المحيط به، وأن تكامل الإنسان يحتاج إلى أن يتفاعل هذا الإنسان مع بيئته؛ ليجعلها أكثر ارتقاءً وتكاملاً.

ثانيا: النظرة الشمولية للشخصية الإنسانية:

نظر الإسلام إلى الإنسان نظرة شمولية، فالإنسان له كيان مركب من جسم وعقل وروح، ويقدر الإسلام هذه الأبعاد في الشخصية الإنسانية، ويحدد أهمية كل بعد منها بالنسبة للحياة الإنسانية، وما تتطلبه من توازن وتوافق.

ويؤكد الإسلام أهمية إرضاء المطالب الجسمية والمادية عند الإنسان، من خلال قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾.

[الجمعة: ١٠]

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾.

[الملك: ١٥]

ومن أحاديث المصطفى ﷺ قوله:

«ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده».

وأن نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده.

وقوله ﷺ: «لا رهبانية في الإسلام»

هكذا... يدعونا الإسلام إلى العمل والإشباع السوي لمطالبنا المادية.

ومن الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، التي تدل على أهمية العقل والعلم وضرورة الاهتمام بهما، ما نورده من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

يقول ﷺ:

«اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد، اطلبوا العلم بحكمة ولو فى الصين».

وقوله أيضًا صلوات الله وسلامه عليه:

«لا يزال الرجل عالمًا ماطلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل».

وهناك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التى تؤكد الدور المهم التى تقوم به الروح فى نسيج الشخصية الإنسانية؛ تأكيدًا للتكامل بين الجسم والعقل والروح، فيقول الله تعالى:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾.

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾.

[الفجر: ٢٧، ٢٨]

ويقول المصطفى ﷺ:

«ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب».

وهكذا... نظر الإسلام إلى الأبعاد المختلفة للطبيعة الإنسانية، ونظر إليها على أنها تتكون من جسم وعقل وروح، وكيف أوضح الإسلام ضرورة التفاعل بين هذه العناصر جميعا.

ثالثا: طاقات الإنسان تتجلى من خلال مناشطه وقدراته:

وهب الله الإنسان طاقات وقدرات عقلية، وهى من أهم ما يميز شخصيته؛ خاصة تلك العناصر المكونة للقدرات العقلية العليا والقدرة على توظيفها، بما تحتويه من تساؤل ورموز ومجادلة وحكمة وإرشاد. والإسلام بوصفه دين الحق والفطرة السليمة يعترف بهذه القدرات وتلك الطاقات، فيعطى الإنسان الفرصة للتساؤل والاستفهام والتعجب.

وفى القرآن الكريم كثير من الأسئلة والمواقف، التى كانت توجه إلى النبى ﷺ.

ومن هذه الأسئلة:

قول الله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

[الإسراء: ٨٥]

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾.

[الكهف: ٥٤]

إعمال الفكر والعقل والمناقشة من الأمور الضرورية، كما أوضحت بعض الآيات، ولكن لابد وأن يكون الجدل عن حاجة إلى الاقتناع، فحق كل إنسان فى المناقشة والأخذ والعطاء من الحقوق المشروعة، وبهذا أمر نبى الإسلام والمسلمون فى قول الله تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

[النحل: ١٢٥]

رابعاً: الإنسان مدنى بالطبع واجتماعى بالضرورة:

يؤكد الإسلام بوصفه الدين القيم أن الإنسان مدنى بالطبع واجتماعى بالضرورة. . فالإنسان فى نظر الإسلام من حيث طبيعته الاجتماعية، يميل إلى الحياة فى مجتمع إنسانى، وما تتطلبه هذه الحياة من إقامة علاقات اجتماعية فى التفاعل والتكيف والمرونة وتكوين الاتجاهات والقابلية للتطور والتغير، وتحمل

المسئولية وأداء الأدوار الاجتماعية، والإنسان يتميز بطموحه ورغبته في السمو والارتقاء، وكل ما يحقق له تأكيد ذاته ويعمل على تدعيمها.

والدين الإسلامي يؤكد صنع الحضارة والاهتمام بالجوانب الثقافية والإبداعية، ويدفع الإنسان دائمًا إلى التحلى بكل العوامل، التى تغذى شخصيته وتعمل على إثرائها وتدعيمها.

والدين الإسلامي يؤكد صنع الحضارة والاهتمام بالجوانب الثقافية والإبداعية، ويدفع الإنسان دائمًا إلى التحلى بكل العوامل، التى تغذى شخصيته وتعمل على إثرائها وتدعيمها؛ تحقيقًا لمبدأ التوازن والتكامل فى جوانب شخصيته.

وهكذا يتناول الإسلام الحنيف الحياة النفسية للإنسان، وما تتضمنه من عوامل تتدخل فى تكوين شخصيته من جميع جوانبها، فهى حياة مستمرة الحركة دون انقطاع، دائمة النمو بلا توقف، موصولة التجدد بلا حدود.

وهذا الاستمرار للحياة النفسية الإنسانية، طالما يتماشى مع التعاليم الإسلامية العظيمة.. يكسب الإنسان قيمته، ويعطيه إرادته الفعالة فى حدود الشريعة والقانون والأعراف والتقاليد، وتلك هى الثمار التى تجنيها دوحة الإنسان المسلم فردًا، وجنة الإنسانية جمعاء، طالما أن كل فرد يتمسك بتعاليم الدين، ويتوق دائمًا إلى تحقيق كل ما يؤكد احترامه لنفسه ولمجتمعه ووطنه والإنسانية على وجه العموم.

◆ عندما يتذرع الإنسان بالحيل الهروبية

أولاً: حيل تعتمد على العدوان.

ثانياً: حيل تعتمد على الانسحاب

ثالثاً: حيل تعتمد على الإبدال

وجهة نظر في هذه «التماحيك» السلوكية

يميل الإنسان دائمًا إلى أن يتصرف بطريقة، تحقق له سعادته وتبعده عن مصادر الألم. ومن أجل تحقيق هذا الهدف يصبح السلوك تفكيرًا أو عملاً يقوم به الموجود البشرى، ثم يتجه به وجهة معينة قد توصله إلى هدفه أو تبعده عنها.

وقد يمر الإنسان بمواقف جديدة، تتطلب منه جهدًا وإدراكًا للعلاقات التى تكون وتشكل هذه المواقف، أو قد يكون السلوك مكررًا وخبرته معادة بصورة تكاد تكون طبق الأصل، أو مقارنة لما قد مر به فى مواقف سابقة.

وجدير بالذكر أن تعدد المدارس النفسية وكثرتها؛ خاصة فيما يتعلق بتفسير السلوك ومنشئه واتجاهه يعد أمرًا من الأمور الطبيعية؛ لأن علم النفس هو فى الحقيقة (علم السلوك)، على الرغم من كثرة الدراسات والنظريات، والتى تمثل - مع تعددها وكثرتها - حيرة لمن يتعامل معها لما تقدمه من براهين ووجهات نظر مختلفة ومتضاربة؛ بحيث نجد أن ما يخيل إلينا أنه يمثل فكرًا جديدًا، لايعدو أن يكون سوى ترديد بشكل ما أو بصيغة أخرى لنظرية، قد مرت عليها سنوات وسنوات.

ولعل الهدف الذى يتطلع إليه الإنسان هو كيف يتكيف مع البيئة، وكيف يتصرف فى الحدود التى تجعله متوافقًا مع أفراد الجماعة، الأمر الذى يدعونا إلى التساؤل: ما الذى يدفع المرء إلى أن يتصرف تصرفات معينة فى ظروف معينة، وما الذى يدعوه إلى أن يغير من تصرفاته أو يكررها فى موقف آخر؟ كل هذه

الأسئلة تجعلنا نتناول مايسمى بالحيل الدفاعية، تلك التى بذلت مع الإنسان على المستوى (الفسيولوجى)، من خلال السلوك الهادف الذى يتجه بصاحبه نحو إشباع دافع الجوع مثلاً إذا ما نقصت كمية السكر فى الدم، أو إشباع دافع العطش إذا ما نقصت كمية الماء فى الجسم، أو ما تفرزه الغدد الصماء من هورمونات استجابة لحالات الضغط الخارجى، الذى يأتى من خلال ديناميات الجماعة ومايتتج عنها من تفاعلات بين الأفراد... كل هذه الأساليب يأتى بها الإنسان دفاعًا عن النفس ووقاية ضد غائلة الجوع أو العطش، أو ما يهدد كيانه من عوامل خارجية.

ومن الممكن أن نرجع وفقًا لكل هذه التصرفات محركات سلوك الإنسان إلى مجموعة من الدوافع، هى:

* ما يدركه ويحسه الفرد قبل أن يقدم على عمل ما أو تصرف معين.
* ما يجرى فى ذهن الفرد قبل فترة طويلة من الفعل.
* ما يتوقعه من نتائج فى المستقبل إذا ما قام بهذا التصرف.

وتعتبر الحيل اللاشعورية من التصرفات، التى قد يلجأ إليها بعض الأفراد؛ لتساعدهم على التخلص من موقف أو الخروج من مأزق أو تجنبًا لآلام، أو محافظة على الوقار والاحترام، أو عندما يرى ضغط الجماعة فلا يملك إزاءه إلا أن يتذرع بهذه الحيل فى حدود المعقول وما يتطلبه الموقف.

وهناك تقسيمات لهذه الحيل إلا أن هذه التقسيمات يتداخل بعضها فى بعض؛ الأمر الذى سوف يجعلنا نقسم هذه الحيل على أساس مدى ما يريده الفرد منها، أو كيف تخلق له عوامل واهمة، تمكنه فى حدود ما يتوهمه ويصطنعه من توظيفها للهروب من عالم الواقع.

أولا: حيل تعتمد على العدوان

١- العدوان و «الأذى» «Aggression»

عندما يلجأ البعض لسلوك العدوان.. فإن هذا التصرف قد يكون نابعًا من حاجة لديهم للخروج من مأزق أو لخفض توتر ناتج عن عقبة أو أزمة تصادفهم. وبطبيعة الحال يكون العدوان موجهًا إلى سبب الإعاقة، ويكون الهجوم شديدًا على أطراف الأزمة. والذى يعنينا ليس العدوان المباشر الذى يمكن صاحبه من مواجهة الموقف، ولكن الذى يعنينا ذلك الجانب غير المباشر الذى يتجه بصاحبه إلى هدف غير سبب الإعاقة، وقد يكون ذلك معبرًا عن الخوف من مواجهة المشكلة أو هروبًا من مجابهة الأزمة.. فنرى هؤلاء يلجأون إلى أسباب غير مباشرة، ويصدق عليهم المثل الشعبى الذى يقول «مقدرش على الحمار وقدر على البردعة».

ويأخذ العدوان من هذا الصنف غير المباشر أشكالاً متعددة، فمثلاً نجده يتخذ صورة المؤامرات والتشهير والنميمة والغمز واللمز، وكثيرًا ما نجد هؤلاء لايستطيعون أن يعبروا عن المشكلة أو يواجهونها بصورة مباشرة.. إلا أنهم يلجأون إلى «تماحيك وتلاكيك»، من شأنها أن تجعلهم يقذفون بالحاجيات المادية، معبرين بذلك عن درجة عالية من التوتر والقلق.

وقد يصل الأمر إلى العدوان على الذات، ذلك الذى يجعل بعض الأفراد يستدرون العطف من خلال هذا العدوان... فتراهم قد يضربون الأرض بأرجلهم والحوائط برؤوسهم.

٢- الإسقاط «Projection»

يعد الإسقاط حيلة لا شعورية يوظفها بعض الأفراد؛ لإلقاء اللوم على الآخرين ودفع اللوم عنهم؛ بهدف التهرب من المواجهة وتحررًا من المسئولية، إلى جانب أن هذه الحيلة تمكن صاحبها أن يلحق كل النزعات البغيضة بالآخرين، ويسقط ما ينكره على نفسه من أفكار وصفات على غيره.

وبطبيعة الحال.. فإن هذه الحيلة تجعل صاحبها يشوه مفهومه عن الواقع، ويقطع صلته الحقيقية بالعالم الخارجي؛ خاصة وأنه لا يرى هذا العالم بنظرة موضوعية صادقة، وإنما يجعل من نفسه محقًا في كل الأمور.

إلى جانب أن الإسقاط يعبر عن محتويات لا شعورية، تظهر عند صاحبه في شكل تعبيرات أو أقوال يعبر من خلالها عن نزعاته الدفينة، ويلاحظ أن كثيرًا من الأمور النفسية تعبر من خلال الهلوسات والضلالات عن إسقاطات معينة كنوع من أنواع التفريغ، الذي يظهر من خلال بعض المواقف التي يفرغ فيها رغبة لاشعورية في تحقيق هدف أو الوصول إلى رغبة... إلخ.

ثانيًا: حيل تعتمد على الانسحاب

وقد يلجأ الإنسان إلى مجموعة من الحيل الإنسانية، التي تجعله لا يقوى على مواجهة الموقف ومحاولة تخفيف حدة الصراع الناشيء منها، وهذه الحيل تجعل صاحبها يعترف بفشله، وقد يؤدي به الأمر إلى احتقار ذاته والوصول إلى مشاعر دونية، تسبب له الألم وتجعله يعيش في وهم وخداع؛ لأنه يعتمد على الانسحاب من الموقف. وبطبيعة الحال.. فإن هذا السلوك الانسحابي لا يعتمد على خطة مدروسة أو يوظف الإرادة بطريقة موضوعية وظيفية، ولكن يعتمد على مجموعة من الأساليب اللاشعورية، يتذرع بها ليخلص نفسه من المواجهة المباشرة، والتي تعتمد على التبصر والفهم والوعي بالأمر. وبطبيعة الحال.. فإن هذه الأساليب التي تعتمد على هذا السلوك الانسحابي تظهر لدى بعض الأفراد، دون وعي منهم، وبعيدًا عن دائرة الشعور. وتظهر مثل هذه الحيل الانسحابية في «الانطواء، الإغراق في الخيال وأحلام اليقظة، النكوص، الإنكار، التبرير».

وقبل أن نتناول هذه الحيل الانسحابية، نود أن نؤكد حقيقة مهمة مؤداها: أن الانسحاب في الوقت المناسب يعد من الأساليب الدفاعية المقبولة إذا لم يبالغ فيه صاحبه، وكان هذا الانسحاب بعيدًا عن التخطيط وتقدير المواقف بطريقة سليمة.. الانسحاب هنا له ما يبرره عكس الانسحاب المرضي الهروبي، الذي يتبلور في الحيل الآتية:

الانطواء: Introversions

يلجأ إليه البعض ليبتعدوا عن المشاركة في الحياة والتفاعل مع الآخرين، ويحاول هذا البعض خلق أعذار لهذا التقوقع وذلك الانطواء؛ حتى لا يعرضوا أنفسهم للصراع، وكأنهم يحكمون على أنفسهم بالعيش في عزلة مرضية، تجعلهم بمنأى عن المشاركة الفعالة في الحياة، وتحرمهم من الاتصال المثمر والإقبال على الحياة بوجه عام(*).

الإغراق في الخيال وأحلام اليقظة: Day dreams

ويعتبر الإغراق في الخيال حيلة من الحيل اللاشعورية، التي تجعل صاحبها يسبح في أوهام هروبًا من مواجهة الواقع، وإرضاءً لدافع لم يتحقق إشباعه في عالم الواقع، وكان نتيجة عدم الإشباع شعور الفرد بالعجز والفشل وقلة الحيلة... وبدلاً من مواجهة الواقع وتعرف الأسباب الحقيقية.. نجد هذا الفرد يطلق العنان لخياله ويسرح في عوالم متعددة، ينسج من خلالها صورا، تمكنه من إشباع واهم، يند عن الواقع من خلال هذا العالم الذي يصنع خياله الواهم.

والملاحظ أن مثل هذا الإغراق في الخيال، وما يصاحبه من أحلام يعيشها في عالم الواقع، يجعل صاحبه يتوقع في أوهام؛ بحيث يصبح هذا التقوقع بمثابة عالم متكامل، يعيش فيه ويجتر الأوهام، ويلوذ بهذا النسيج المتهالك من أفكار لا علاقة لها بعالم الواقع.

النكوص: Regression

إذا حاولنا أن نضع تعريفًا للنكوص.. فإن هذا التعريف يدور حول المعنى اللغوي للكلمة، ذلك الذي يتحدد على أن النكوص هو الرجوع إلى طور سابق من أطوار النضج، ويعتمد النكوص على مظهر من مظاهر السلوك، الذي يحاول

(*) يعبر أصدق تعبير عن سلوك الانطواء المرضي، أولئك الذين ينادون بعدم الاشتغال والركون إلى الخمول، ويتذرعون بسلوكيات دينية متطرفة، تدعو إلى الانطواء والعزلة عن التفاعل مع المجتمع، وتلك صورة مرضية تعبر عن الانحراف واللاسوية.

الإنسان أن يرتد إليها، وهو يعبر عن حيلة هروبية، تجعل صاحبها يتراجع أمام ضغوط الحياة، وما يصاحبها من مواقف تحتاج إلى المواجهة.

وقد يظهر النكوص من خلال بعض التصرفات الانفعالية، وتكون ترجمتها (ثورة وغضب) خاصة عندما يشعر الفرد بفشله، وقد يبدو هذا التصرف أقرب إلى تصرف الصغار من الأطفال؛ لأنه تعبير عن التحكم والضبط الانفعالي.

ويلاحظ أن هذا النكوص فى حالته السوية يكون وقتيًا وله حدوده، التى قد تفيد المرء فى سعيه إلى التوافق... فهناك الذى نراه فى مجال الانفعال (ينكص) فيطلق لانفعالاته الحرية؛ لتعبر عن نفسها بطريقة طفولية من خلال البكاء أو الصياح أو الحركة السريعة العشوائية، والتى من خلالها يفرغ طاقاته، وينفس عن هموم متراكمة تسبب له توترًا وقلقًا.

وبطبيعة الحال.. فإن الاستمرار فى هذا السلوك يجعلنا نرى الكبير صغيرًا، وقد يقدمه دون مراعاة لكبر السن بأنه مثل الأطفال فى تصرفاته، أو أنه «راجل عيل».

الإنكار Denial

يستلزم الصراع النفسى وجود قوتين متصارعتين؛ لذا فإن الشخص الذى يريد أن ينكر أمرًا نراه يحاول أن يغفل عن إحدى هذه القوى التى تشارك فى الصراع، وقد يصل به الأمر إلى أن يتصورها غير موجودة، ويضغط عليه اللاشعور فيجعله يصر على هذا الإنكار، تجنبًا للخطر الخارجى وتخفيضًا للضغط النفسى، والتوتر العصبى الذى يستشعره من جراء هذا الصراع. ويعد الإنكار صورة من صور الانسحاب التى تجعل صاحبها يلوذ بنفسه، فينكر الحقيقة دفعًا للخطر أو كما يقول المثل الشعبى «يخرج من المشكلة كما تخرج الشعرة من العجين»، وهذا الذى يفعله يجعله رغم ما يشعره من راحة من هذا الهروب، يتلمس ضعفه وقلة حيلته؛ لأنه يخدع نفسه ويهرب من واقعه، ولا يقوى على مجابهة مشكلاته.

التبرير Rationalization

عندما يتعثر الإنسان فى أمر من الأمور . . فإننا نجده يبرر هذا التعثر بمسوغات يراها عقلية يحاول من خلالها تبرير عثرته وتسويغ أفعاله، وهو بذلك السلوك يخفى الأسباب الحقيقية، وغالبًا ما تكون أسبابه التى يعتمد عليها فى تبريراته غير مقنعة وغير متناسقة.

ويعد التوتر حيلة دفاعية يبرر بها المرء سلوكه ومعتقداته وآراءه ودوافعه المستهجنة بأن يعطى أسبابًا معقولة لها، والعامة تصف هذا السلوك الذى يظهر عند بعض الأفراد على أنه «قصر ذيل»؛ لأنه يعبر عن عدم قدرة فى الوقت، الذى ينسب فيه ادعاء القدرة، أو أن هذا الشىء قليل الأهمية، تمامًا كما تتهم المرأة العانس كل الرجال بالخلق السىء، وأن هؤلاء الرجال جميعهم يتميزون بالخيانة وهى لذلك ترفض أن تتزوج منهم، أو تفكر فى أمرهم، ويعمل التبرير كحيلة دفاعية على المستوى اللاشعورى ضد اتهام الذات والإحساس بالذنب بعد وقوع الحادث، وهو يختلف لذلك عن الحجج والأسانيد الشعورية التى نبرر بها قيامنا أو رفضنا لعمل.

ثالثًا: حيل تعتمد على الإبدال

تعتمد الحيل الإبدالية على إزاحة شعور أو انفعال إلى هدف آخر، أو محاولة إبداله بعكسه. ويعتبر الإبدال من الحيل التى إذا تمت بطريقة شعورية. . فإنها قد تدفع صاحبها إلى الوصول إلى خفض التوتر عن طريق توظيف الإرادة والوعى، أما عندما يعتمد عليها الفرد دون توظيف الإرادة الواعية، فإنها قد تظهر كوامن لا شعورية لا تفيد صاحبها، وهناك مجموعة من الحيل الإبدالية. . نذكر منها:

الإزاحة Displacement

هذه الحيلة تجعل صاحبها يضع أهدافًا محل أهداف أخرى: فمن الممكن أن تتحول مشاعر الكره عند فرد إلى خليط من المشاعر لجده يزيحها على الآخرين، فقد نجد الموظف يزيح مشكلاته وشعوره العدوانى على الجمهور، فيعطل أعمالهم

ويقسو فى معاملته لهم. وتكون هذه الإزاحة بمثابة الشعور العدوانى الكامن، الذى يريد أن يزيحه على الجمهور، دون أن يتعرف الأسباب الحقيقية التى تكمن وراء هذه التصرفات، وقد يصل الأمر بمثل هذا الشخص أن يعمم سلوك العلوان؛ حتى يصبح السمة الغالبة على تصرفاته.

تكوين رد الفعل: Reaction Formation:

عندما يتصنع الإنسان الفرد فى إظهار عواطفه.. فإن تكوين رد الفعل يفضح تصرفاته؛ لأنها بمثابة حيلة إبدالية، يظهر هذا الإنسان من خلالها غير ما يبطن وكثيراً ما نرى أولئك الذين يحاولون أن يظهروا عواطفهم بطريقة مبالغ فيها... وسرعان ما ينكشف حالهم، وتدحض على أرضية الواقع عواطفهم المتأججة بغير داع والمزيفة بحكم طبيعته، ولعل ذلك ما جعل البعض يتشككون فى كل ما هو مبالغ فيه من العواطف والقبلات، التى قد يواجهنا بها بعض الأفراد تعبيراً عن صداقتهم ومحبتهم.. هذا التصنع يعبر عن النفاق والسلوك غير الدقيق، الذى يجعل صاحبه فى صورة مهزوزة... لأنه يبالغ فى انفعالاته وإظهار عواطفه.

التقمص: Identification:

يحاول الفرد أن يدمج شخصيته فى شخصية آخر كحيلة تقربه من النموذج الذى ينال إعجابه، وللتقمص دوره الإيجابى الذى يتجلى فى تقمص الفرد للأشخاص أصحاب المواهب والخبرات السليمة، كأن يتقمص الابن سلوك الأب المكافح الناجح، أو يتقمص الإنسان شخصية تتميز بالبطولة.. ويرى فيها حكمة وإرشاداً.

والتقمص يساعد الأفراد أيضًا أن يشاركوا بعضهم البعض بطريقة سليمة، يلعب فيها الوجدان الراقى دوراً مهمـًا فى تدعيم العلاقات الاجتماعية، ولكن التقمص قد يبلغ صورته المرضية غير السوية، عندما يتقمص الفرد بصورة متطرفة

بعض النماذج المثيرة للدهشة؛ كأن يتقمص المراهق صورة بطل من أبطال (المصارعة) فنراه يحاول أن يعتدى على كل الأفراد، أو يتقمص الطفل «فرافيرو» فيلبس ملابسه، وقد يحاول أن يطير كما كان يطير فيكون نصيبه الموت؛ لأنه لم يحكم الوعى والفكر فى أمر النموذج البشرى الذى تقمصه، وما مدى معقولية التصرفات التى يقوم بها.

التعويض: Compensation

يعد التعويض من الحيل الإرادية التى تقاوم النقص، وتعمل على التغلب عليه، فهو ـ فى جانبه الموضوعى الإيجابى ـ يدفع صاحبه إلى أن يبذل جهداً فى حياته وعمله ويتطلع إلى الأفضل، ونرى ذلك فى الأشخاص الذين يعانون من فقدان الحنان أو التعليم، أو عضو من الأعضاء الجسمية ـ نراهم فى جانبهم الإيجابى يحاولون أن يغطوا هذا النقص بأفعال إيجابية، تمكنهم من الاستمرار السليم والعلو على هذا النقص، من خلال إنجازاتهم وأفعالهم المثمرة.

أما الجانب السلبى للتعويض.. فإننا نلحظه من خلال بعض التصرفات، التى تبدو غريبة ومستهجنة، فيكون التعويض بعيداً عن السلوك الإيجابى، وقد يدفع صاحبه إلى العدوان أو الانطواء والاكتئاب النفسى.

وجهة نظر فى هذه «التماحيك» السلوكية:

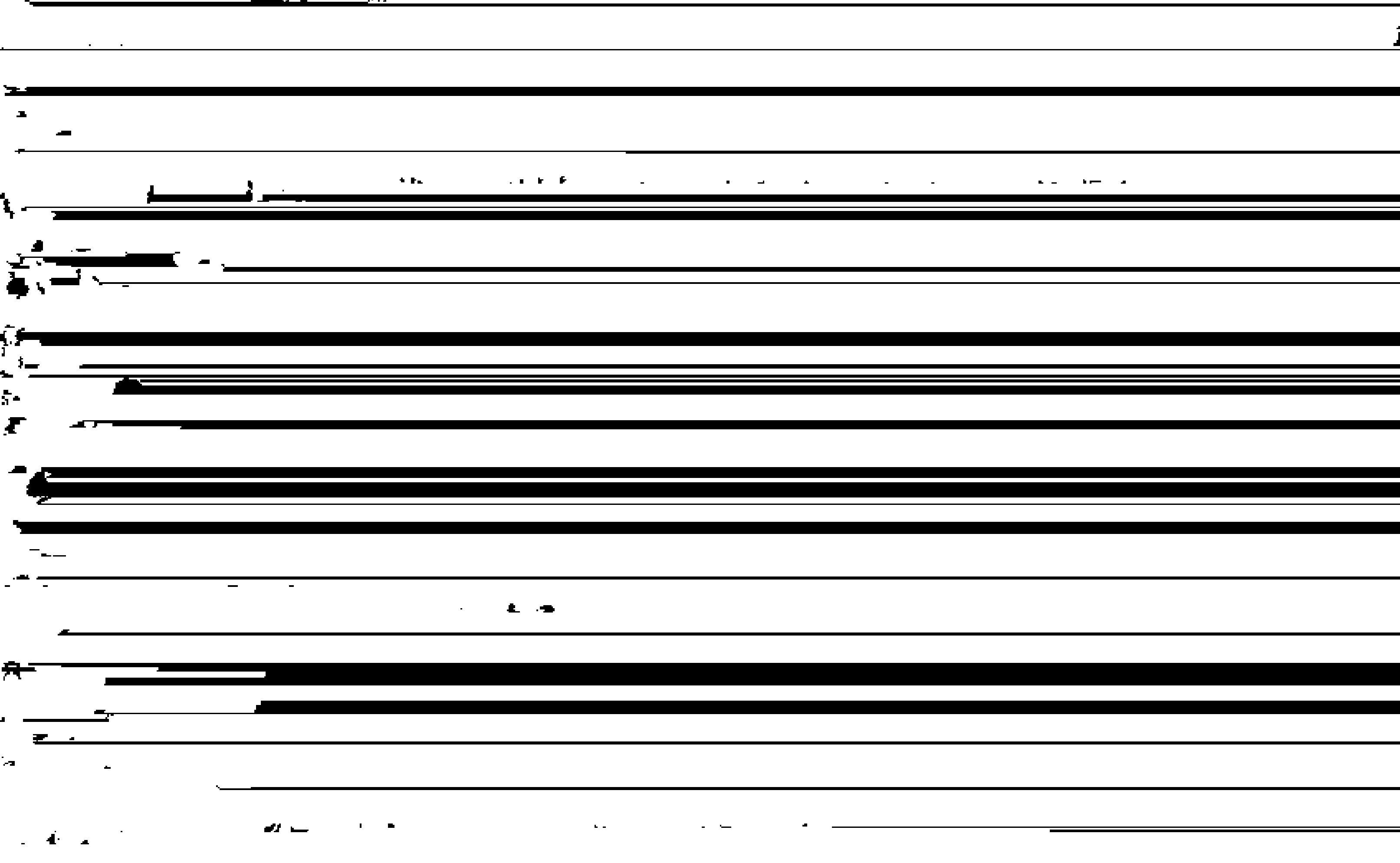
عرفنا أن هذه الحيل الدفاعية تهدف تخفيض التوتر والعمل على تجنب الآلام، وقد يلجأ فيها الإنسان الفرد إلى أساليب هروبية. وعلى الرغم من أن الإنسان يعتبر هذه الحيل الدفاعية بمثابة «تماحيك وتلاكيك»، قد يجد فيها متنفساً لأفعاله وتصرفاته وسداً لنقص يعانيه أو تطلعاً واهماً لمستوى، لا يقوى على الوصول

إليه.. فإن هذه الحيل تجعلنا نضع أيدينا مرة أخرى على سلوك الإنسان، فمهما تعددت تصرفاته وردود أفعاله.. فإننا قد نجد الإنسان يتصرف فى بعض الأحيان بطريقة بسيطة، كما يتصرف القنفذ، ذلك الحيوان الذى يعيش على أكل الحشرات والنمل، وله جلد مكسو بشوكات إبرية مؤذية لمن يلمسها، وكل ما يفعله القنفذ هو أحد سلوكين:

إما أن ينبسط وتنام شوكات جلده على بعضها، ويسير الهوينا بحثًا عن طعامه وشؤونه الأخرى.

أو يتكور على نفسه فتبرز الشوكات لدرء الخطر عنه، ويصبح كرة هامدة ثابتة فى مكانها لا تتحرك، بل تؤذى كل من يقترب منها.

وبطبيعة الحال - واعتمادًا على عرضنا للحيل الدفاعية - نجد من البشر من يؤثر



ترك إنجازات لها قيمتها ولها تأثيرها فى هذه الحياة، التى عاشوا فيها وخرجوا منها، دون أى تأثير أو أى فائدة.

وإذا كانت هذه الحيل الهروبية قد تمكن فى بعض الظروف أصحابها من العيش فى راحة بعيدين عن التوتر والصراع.. فإن هذه الراحة بمثابة «المخدر الموضعى»، الذى قلما يستمر، وغالبًا ما تضيع فائدته ويخف تأثيره.. وتظهر الآلام مرة أخرى، الأمر الذى يجعلنا نطالب بلغة الواقع، المعتمدة على إرادة الفعل والقدرة على المواجهة وتقبل الإحباطات.

◆ مواقف نفسية إرشادية

- أولاً: الخوف ومشكلاته السلوكية
- ثانياً: تحقيق الذات وإرادة الفعل
- العلاج بالمعنى وتوظيف الإرادة
- الرضا وقيمة الاطمئنان
- الحب وبهجة الحياة

نحاول في هذا العرض الموجز أن نوضح بعض المشكلات والمواقف النفسية التي قد يمر بها الإنسان في حياته، والهدف منها إعطاء القارئ صورة قد تساعده في التعامل مع هذه المواقف، وما قد يصاحبها من انفعالات وتوترات. ولعل اختيارنا لبعض هذه المواقف يعتمد على مدى انتشارها وكثرة ما يمر بها الإنسان، وليس هذا الاختيار يعبر عن انتقاء مقصود، أو هدف إحصائي لمجموعة المشكلات السلوكية التي يعاني منها الإنسان، ولكن الاختيار لا يعدو أن يكون عينة كمثال لخبرات الإنسان، التي تمثل في بعض الأحيان مخاوف أو مواقف يرى فيها الإنسان أن إرادته ربما هي خير دليل على أفعاله. والفرق الجوهري بين الإنسان عندما يرضى والإنسان المتبرم غير القانع بشيء، وإلى أي حد يمثل الحب خبرة بشرية مهمة في حياة الإنسان، تؤثر في أمر البناء النفسي لشخصيته وتدفعه إلى العمل والإنجاز؟ وكيف يؤثر في إشاعة البهجة في حياة الإنسان.

أولاً: الخوف ومشكلاته السلوكية:

تتمثل حياة الإنسان في كل ما يمر به من مباهج ومسرات، إلى جانب ما يعتريه من مخاوف ومخاطر، ويتأرجح شعور الإنسان بين الرغبة وإشباعها والآلام ومحاولة القضاء عليها أو تجنبها وتحاشيها.

ويضع علماء النفس (الخوف) على رأس قائمة الانفعالات الأصلية، التي يواجهها ويستشعرها الإنسان منذ نعومة أظافره، وإذا كان الإنسان هو الموجود البشري، الذي لا يكاد يكف عن البحث عن «الأمن». فما ذلك إلا لأنه مهدد في كل لحظة بعديد من الأخطار فهو يتأرجح بين مخاوف تأتيه من الخارج (من

البيئة المحيطة به) وكذلك المخاوف التى تأتيه من الداخل، وهى المصوبة من ذاته نفسها.

ويظهر الخوف من خلال تلك الهواجس التى تعترى الإنسان، فنراه فى بعض الأحيان يخاف المرض، والفشل، والتعرض للكوارث وعدم تحقيق ما يتطلع إليه... إلخ.

وبطبيعة الحال.. فإن الإنسان فى مواجهته لهذه الأمور يحتاج دائمًا إلى أن يحقق هذا الحنين الدائم والمستمر، وهو حاجته إلى الأمن والطمأنينة.

وحاجة الإنسان إلى الأمن تجعله يستشعر الخوف من كل ما يهدد هذا الأمن ويعمل على تقليل حدته، فنجد الإنسان كثيرًا ما يخاف لمجرد تفكيره فى الخوف؛ لأن التفكير فى الخوف يستدعى الإحساس بالخوف.

والملاحظ على علماء النفس - عندما قالوا بضرورة بقاء الأم إلى جوار طفلها خلال سنوات الطفولة المبكرة - فهم بذلك يريدون أن يؤكدوا أن ابتعاد الأم عن ابنها تهديدًا خطيرًا لشعوره بالأمن. الطفل بطبيعة الحال فى حاجة ماسة إلى هذا الشعور بالأمن؛ نظرًا «لأن الإحساس بالطمأنينة سياج ضرورى ينبغى أن تحاط به حياة الطفل النفسية، خصوصًا فى السنوات الخمس الأولى من عمره».

ويحتاج الإنسان البالغ نفسه إلى مثل هذا الشعور بالأمن؛ لأن هذا الشعور إذا تلاشى، أصبحت حياة هذا الإنسان نهبًا للمخاطر والمخاوف المستمرة.

وليس من شك أن الإنسان الذى تستبد به مخاوف الفشل أو مخاوف المجهول أو مخاوف المستقبل (أو غير ذلك من المخاوف المتصلة) لا يستطيع أن يؤدى دوره كاملاً أو لا يستطيع أن يتحمل المسئولية، أو يمكن الركون إليه، حيث يزعزع الخوف أركان شخصيته، فيجعلها شخصية مهزوزة لايمكن الاعتماد عليها أو الاسترشاد بها.

الخوف السوى والخوف المرضى:

وجدير بالذكر أن هناك خوفًا سويًا وخوفًا مرضيًا، ولابد من التفرقة بين هذين النوعين من المخاوف... حيث تتمثل المخاوف السوية فى ذلك الذى نلاحظه بين العاديين من الناس، (مثل: الخوف من مواجهة الخطر، الخوف من الوباء، الخوف من عدم تحقيق النجاح فى أمر من الأمور... إلخ)، هذه الانعكاسات السليمة التى قد تصاحب الإنسان فى مواقف واقعية تستدعى الخوف وتؤدى إليه.

أما المخاوف المرضية العصابية، فهى تلك التى لامبرر لها، ولا تستند إلى مسوغات عقلية، وهى مجموعة من الأعراض غالبًا ما تصاحب الأمراض النفسية؛ لأنها تعتمد على هواجس غريبة وأفكار واهمة لا تستند إلى واقع، ولا تعترف بمنطق عقلى.

ونذكر بعض هذه المخاوف غير السوية على الوجه الآتى:

- **الوساوس: Obsessions:**

هى حالة من الخوف المرضى، نجد صاحبها منشغلاً بفكرة أو عدة أفكار تعطل تفكيره وتبعده عن الواقع وتنعكس عليه بالتوتر والضيق، وغالبًا ما تكون هذه الفكرة فكرة ضاغطة رغم عدم أهميتها، مثل التفكير بخوف فى أن ما حدث العام الماضى من أحداث، سوف يحدث لامحالة فى هذا العام نفسه وفى الشهر نفسه بالدرجة أو الطريقة نفسها، أو التفكير فى أن أحد الأفراد سوف يلم به مكروه. وهناك نوع من المخاوف المرضية نراه فى ذلك الذى يتميز بالحساسية المفرطة فى النظافة، وأنه حريص على أن يكون نظيفًا فلا يخالط أحد خوفًا من الجراثيم، ولا يأكل إلا ما يصنعه هو بيده، فلا يشعر بالأمن والاطمئنان إلا ما يراه هو وما يثق فيه وفق معاييره الخاصة التى كثيرًا ما تجافى الواقع وتبتعد عنه، ويصبح هذا الإنسان مقهورًا أمام هذه الأفكار، فيصاب بوساوس تمنعه من الاختلاط بالجماعة، وتحرمه من الاستمتاع بمباهج الحياة.

• **الشــك:**

ومن المخاوف المرضية ذلك القلق العارم الذى يصاحبه شعور بالشك، وهذا النوع من المرض المعتمد على المخاوف المرضية يجعل صاحبه شكاكًا مفرطًا فى حساسيته، ويجعله هذا الخوف لا يحسن التصرف، ويدفعه إلى سوء التأويل لكل ما يدور حوله.

وجدير بالذكر أن هذا النوع من الخوف يجعل صاحبه مترددًا، لا يقوى على توظيف إرادته، ولا يعرف كيف يتخذ قرارًا فى أموره. وقد يؤدى به هذا الشعور الشاك إلى القلق والاكتئاب والهوس والحساسية المفرطة والصلابة والجمود والتقوقع داخل الذات.

• **الاكتئاب التفاعلى:**

من المخاوف المرضية ما يؤدى إلى الاكتئاب؛ حيث نجد صاحب هذه المخاوف يتفاعل مع أحداث الحياة الأليمة فيتوقع حدوثها معه، ويجب أن يجد هذه الوقائع الأليمة فيتوهم حدوثها لامحالة، فلماذا لم تحدث له وقد حدثت للآخرين؟ مثل هذا الإنسان يجتر دائمًا تلك الأحداث المؤسفة، التى تثير الشجن وتبعث الحزن فنراه (خوفًا) يشعر بالتعب والقلق، يسود تفكيره التشاؤم وتغلب عليه الأفكار السوداء، فالحياة اعتمادًا على هذا الخوف المرضى بلا أمل، ويصبح النوم مقطعًا عنده ويشعر بالأحلام المزعجة والأرق، وقد يرتفع ضغط الدم عنده، وتسوء حالته الهضمية، وما يصاحبها من فقدان للشهية، وما يترتب على كل ذلك من ضعف عام فى تكوينه الجسمى.

هذه بعض أعراض المخاوف غير السوية، التى نحاول أن ننبه الأذهان لها؛ حتى تتجنبها، لأن الإنسان الذى كرمه الله بالعقل والفكر فى حاجة إلى أن يوظف فكره وعقله وإرادته فى مواجهة الواقع، وأن الاتجاه إلى الله والاعتماد عليه وذكره الدائم بمثابة البلسم الواقى، الذى يشيع الاطمئنان فى نفس الإنسان «فبذكر الله تطمئن القلوب». والله سبحانه وتعالى قد وعد عباده المخلصين،

الذين يتجهون إليه بقلوب صافية مؤمنة، فتقودهم إلى الصراط المستقيم بأنهم لاخوف عليهم ولاهم يحزنون.

والحق يقال: إن مشاعر الخوف التى بدأت تنتشر بين بعض الأفراد، إنما ترجع إلى ذلك الاهتمام العجيب، الذى بدأ فى زحمة حياتنا المعاصرة وما يغلب عليه من طابع مادي، أبعدنا عن الرؤية الحقيقية للأمور... فقد أصبح اهتمام الفرد منحصرًا فى كيفية جذب اهتمام الآخرين، والحصول على استحسانهم والظفر بتقديرهم وإعجابهم. ويرى (فروم Fromm)[1] أن هذا الاهتمام المفرط بالغير لايمثل ميلاً اجتماعيًا سليمًا نحو التعاون مع الآخرين أو مشاركتهم، بل هو مجرد ثمرة (لعقلية السوق)، التى أصبحت تغلب على كل تفكير الإنسان المعاصر فى زحمة الماديات...

إن عقلية بعض الأفراد الآن قائمة على مبدأ التنافس الشكلى، الذى يعتمد على أمور ظاهرة، تحددها سوق المبادلات الاجتماعية والمعاملات الاقتصادية؛ من أجل الوصول إلى الشعور بقيمة ذاتية واجتماعية، فكل من يريد أن يحصل منهم على قيمته وجدارته، هو ذلك الذى يملك المال والملبس والجمال... شروط خارجية قد نشرت الذعر والخوف بين أولئك الذين قد لا يجدون فى أنفسهم هذه المواصفات، أو قد تمنعهم ظروفهم المادية من الظهور على مسرحهم!!

هذا هو السر الخفى وراء تصدع بعض الشخصيات، أولئك الذين جعلوا من هذه العوامل الخارجية أمورًا مخيفة ومفزعة؛ فتحولوا إلى أفراد يخافون التفاعل، وينسحبون من زحمة الحياة.

والحق يقال:

إن الإنسان صاحب الإرادة الواعية والقلب المؤمن والخصال الحميدة هو ذلك الذى يؤمن بالقيم الإسلامية الرشيدة، التى تدفعه إلى الحياة بوصفه حاملاً للقيم، ومتجهًا إلى صراط مستقيم، بعيدًا عن عوامل الخوف والقلق والتوتر.

(I) Eric Fromm: "Aman for himself" New Yourk Rinehart 1960 P.P. 69 - 70.

ثانياً: تحقيق الذات وإرادة الفعل:

يسعى الإنسان دائمًا إلى كل ما يعمل على تحقيق ذاته، وكأن حياته تنحصر بتمامها في عملية البحث، التي يقوم بها من أجل العثور على ذاته: فكل إنسان عليه أن يبحث عن نفسه حتى يهتدي إليها؛ لأن حياة الإنسان الحقيقية في صميمها هي عملية تكوينه النفسي، وما يتعلق بهذا التكوين من إرادة وقوة وفعل..!!

ويلاحظ أن الإنسان في سعيه المستمر نحو تحقيق ذاته، يحتاج إلى تحقيق ضرب من ضروب المواءمة بين الداخل والخارج، عن طريق الفعل الذي من خلاله يترجم الإنسان من تصرفاته ويبني مواقفه ويوظف إرادته.

وجدير بالذكر أن الناس منذ الخليقة يتوقون لمعرفة ما إذا كانت آراؤهم صحيحة، ويؤدي بهم هذا الدافع إلى تعرف مدى صحة هذه الآراء، وما يتطلبه من تقييم دقيق لقدراتهم. وقد يخبو هذا الدافع وتقل جذوته، عندما لاتتوافر وسائل موضوعية غير اجتماعية، وعندئذ يتجه الناس لتقييم آرائهم وقدراتهم بمقارنتها بآراء وقدرات الآخرين.

ولعل هذه النظرة إلى الآخرين قد تجعل البعض يميل إلى تغيير الآراء، وتعديل الاتجاهات؛ بغية تقليل الاختلاف بينهم وبين الآخرين، وأن يسمحوا لأنفسهم بالتعرض للمواقف، التي قد يظن فيها خبرات جديدة ومعارف ومعلومات، من شأنها أن تحدد لهم المسار وترسم الطريق. ويصبح الإطار الجمعي هو الإطار الملائم، الذي يستطيع الفرد من خلاله أن يصل إلى درجة من درجات تأكيد الذات، وتتوقف هذه الدرجة على مدى مثابرة الشخص وطموحه وقدرته على المبادرة والإنجاز؛ بحيث يشعر بالإحباط والتوتر والقلق النفسي، ذلك الذي لايقوى على مسايرة هذا الإطار الجمعي ويتماشى مع أصوله.

تلك هي الخطوط العريضة التي نسج على منوالها تكنيك علاج الاتجاهات Attitude therapy، ذلك الذي بدأ تجاربه (فولسوم) ١٩٦٥، واستمرت هذه

التجارب في تطورها حتى توصلت إلى ضرورة استخدام فريق للعلاج(*) فى تناول الاضطرابات السلوكية للفرد، ويتكون من الأخصائى النفسى والأخصائى الاجتماعى والطبيب ثم جهاز التمريض، بحيث يعمل الفريق فى تكامل وتعاون، ويذكر فولسوم أن هذا التكنيك لا يحتاج إلى استخدام الأدوية والعقاقير، بقدر ما يحتاج إلى اتفاق فريق العمل فى تحديد وتشخيص الأبعاد السلوكية، التى قد أدت بصاحب المشكلة إلى هذا الاضطراب.

ويغلب على هذا الأسلوب العلاجى الجانب العملى؛ حيث يمر صاحب المشكلة حسب فنيات علاج الاتجاهات بخطوات، نوجزها فيما يلى:

- **الخطوة الأولى: الحزم مع العطف: Kind firmness.**

فى هذه المرحلة يقابل فريق العلاج صاحب المشكلة(**)، كل فى تخصصه بطريقة حازمة حانية عطوفة؛ الهدف منها تقييم سلوكه تقييمًا موضوعيًا، بحيث يوضح الفريق جوانب النقص وجوانب الكمال، وما التصرفات التى تحتاج إلى تغيير، وكيف تساعده على هذا التغيير.

- **الخطوة الثانية: المشاركة والتفاعل والصداقة الحميمة: Active friendliness.**

ففى هذه المرحلة يشعر صاحب المشكلة بمدى تفاعل وصداقة فريق العمل، بحيث يوضح الفريق، كل فى تخصصه، إمكان الحصول على البدائل المختلفة، وكيف أن هذه البدائل سوف تساعد على خفض التوتر، مع مراعاة الالتجاء إلى وسيلة حميمة فى الإقناع، وتجنب استخدام العنف والشدة.

- **الخطوة الثالثة: السلبية مع الاحتفاظ بالصداقة: Passive friendliness.**

هنا لابد من تعويد صاحب المشكلة عدم الاعتماد على الفريق العلاجى، إلى

(*) Folsom. J. C. :Attituse Therapy and the Team approach, The Journal of Hospital and Community Psychiatry. American Psychiatric Association, November. 1975. p.p. 307-320.

(**) يقصد بتعبير صاحب المشكلة (المريض الذى يعانى من اضطراب نفسى)، وقد استعضنا عن كلمة المريض بتعبير صاحب المشكلة.

الدرجة التى قد تجعله مسلوب الإرادة، بل لابد من معاملته بطريقة يشوبها الجفاء بعض الشيء والسلبية فى إجابة مطالب صاحب المشكلة؛ بحيث ينتبه إلى أهمية وضرورة الاعتماد على نفسه، وإدراك أهمية تغيير اتجاهاته السلوكية التى سببت له القلق والتوتر والمرض.

- **الخطوة الرابعة: المواجهة بالحقائق: Matter of fact**

يعتمد فريق العلاج على أن يقدم مجموعة من الحقائق لصاحب المشكلة، تتضمن مفاهيم تساعده على إدراك مشكلته؛ بحيث تمثل هذه الحقائق وتلك المفاهيم نظامًا يقف أمام المشكلات التى يعانيها، وقد أطلق (فولسوم) على هذه الطريقة المكاشفة والحقائق. ويتعاون الفريق العلاجى، كل فى حدود تخصصه، على إبراز الحقائق التى تتعلق بالمشكلة.

- **الخطوة الخامسة: رفض عودة صاحب المشكلة إلى المطالب والاستفسارات:**

No demand

بعد أن يقدم فريق العلاج مجموعة المعلومات والمعارف إلى صاحب المشكلة، يحاول كل منهم أن يرفض المطالب الاستفسارية لصاحب المشكلة، بعد تعويده الاعتماد على النفس، وتكوين دوافع جديدة تحدد له المسار السلوكى، وهنا يكون صاحب المشكلة موجهًا من ذاته Inner directed، وبقدر توفير هذه المبادأة، يطرأ على صاحب المشكلة بعض المتغيرات السلوكية، التى من شأنها أن تعدل فى اتجاهاته إزاء المواقف التى كنت تسبب له المشكلات.

وواضح من عرض خطوات هذا التكنيك العلاجى، أنه يهدف تأكيد مجموعة من الأسس النفسية والاجتماعية، مؤداها:

١- أن الإنسان كائن اجتماعى لديه حاجات نفسية اجتماعية، لابد من إشباعها فى إطار اجتماعى، مثل: الحاجة إلى الأمن والنجاح، والاعتراف، والتقدير، والمكانة الاجتماعية، والشعور بالانتماء والإحساس بالمسئولية

والحب والمحبة والمسايرة، وتجنب اللوم، والانقياد، والسلطة والضبط والتوجيه . . . إلخ.

٢- تعتبر العزلة الاجتماعية سببًا من أسباب المشكلات والاضطرابات النفسية.

٣- الاهتمام بالقوى الإرشادية في الجماعة، وتوظيفها والاستفادة منها، تلك القوى التي تتمثل في التفاعل الاجتماعي، وما يتطلبه من اندماج وتآزر في النشاط، إلى جانب الخبرة الاجتماعية، التي تتيح للفرد الفرصة لتكوين شبكة من العلاقات الاجتماعية من شأنها أن تجعله يشعر بالأمن، وأنه في مقدوره أن يقاوم ويناضل ويأخذ ويعطي، ومثل هذه الحركة المستمرة والدائبة تجعله يشعر بقيمته وكيانه.

٤- التركيز على الأسرة والعائلة في العمل على تحسين اتجاهات صاحب المشكلة؛ لأن الأسرة تمثل نظامًا سلوكيًا له خصائص فريدة ومميزة، أكثر من كونها مجموعة من الخصائص العضوية والاجتماعية، التي تميز أعضاءها.

وهنا نجد أن علاج الاتجاهات يقترب من العلاج العائلي Family therapy(*)، الذي يفترض وجود علاقة داخلية Intrnsic قوية بين مجموعة الوظائف الاجتماعية للعائلة، كمجموعة من شأنها أن تحقق ضربًا من ضروب التفاعل والوصال من ناحية، والتكيف لكل فرد فيها من ناحية أخرى.

وهكذا يركز العلاج على العائلة بوصفها وحدة أو خلية اجتماعية، تشمل مجموعة من الأقارب والأصدقاء وغيرهم كثيرين، لهم دور مهم في حياة العائلة، على الرغم من عدم قرابتهم لها.

ويوظف المعالج المعلومات التي يحصل عليها من العائلة، على اعتبار أنها معلومات تاريخية، ويعرضها على الفريق بحيث توضع هذه المعلومات في البعد المناسب كجزء فعال في الحاضر؛ بحيث لا يعتبر هذا الجزء التاريخي ماضيًا ميتًا.

(*) Freeman, A. M., Kaplan, H., Editors. "Treating illness, Aspects of Modern Therapy. New York. Athenoum. 1975.

ولكنه يعتبر الماضى الحى، الذى يفسر كثيراً من العلاقات الداخلية فى ديناميات العائلة، ويقترب علاج الاتجاهات من نقطة الارتكاز الأساسية، التى يعتمد عليها العلاج العائلى، وهى درجة المودة Affection ، التى لابد وأن تتم وتوجد بين المعالج وأفراد العائلة؛ خاصة وأن العائلة قد تعمل جاهدة على الاحتفاظ بأسرارها. والمسألة هنا تتبلور فى كيفية التميز بين الحالات التى يعمل فيها الأفراد على إخفاء الأسرار الخاصة، وتلك التى يكشف فيها أسرارهم... وهنا لابد له من إثارة التفاعل بين أفراد العائلة والتأثير عليهم؛ حتى يشعر الأفراد بارتباط قوى بينهم وبين فريق العلاج.

وعلى الرغم من أن علاج الاتجاهات قد قدم من خلال الخطوات السابقة مجموعة من المؤشرات ـ التى قد تعمل على تعديل سلوك الفرد، والتخفيف من حدة المشكلات التى يعانى منها الفرد ، من خلال الوسط الجماعى، أو من خلال عمل الفريق العلاجى ـ إلا أن هذا التكنيك العلاجى لم يقدم لنا كيف يستطيع الفريق العلاجى أن يغير الاتجاهات، إلى جانب تأكيده أن الإنسان على الرغم من خضوعه للظروف غير الملائمة التى قد تعصف بوجوده، على الرغم من ذلك الخضوع.. فإنه فى مقدوره أن يختار ويعدل من اتجاهاته، دون أن يوضح الفريق العلاجى كيف يتم ذلك.

وتحضرنا هنا تلك المحاولة التى سبقت هذا الاتجاه، وقدمها عبد الغفار ١٩٧٢(*) من خلال الملامح الرئيسية التى طرحها عن طبيعة الإنسان، والتى من شأنها أن تغير وتعدل من اتجاهاته وسلوكه، تلك الملامح التى نادى بها على الوجه الآتى:

١- تأكيد أهمية التكوين العقلى للإنسان، وكيف أنه يمثل المحور الأساسى فى تحديد شخصية الفرد، ويعمل على تكوين اتجاهاته وسلوكه.

٢- حرية الإنسان من أهم أبعاد شخصيته، وتعتبر من أهم محددات إنسانية

(*) عبد السلام عبد الغفار: فى طبيعة الإنسان: دار النهضة العربية ـ ١٩٧٢ ص ٧ .

الإنسان، وحرية الإرادة والقدرة على تحمل مسئولية ما يريده الإنسان ويختاره من أهم الجوانب فى طبيعة الإنسان.

٣- الإنسان دائم البحث عن معنى لوجوده، وهو دائم السعى لتحديد هدفه من الحياة والوجود هنا الالتزام برسالة ما. . . وجود الإنسان يتمثل فى حريته فى اختيار هدف لحياته، يتفق مع المعنى الذى يصل إليه فى حياته، ثم إلزام نفسه بهذا الهدف والعطاء فى سبيله.

٤- قدرة الإنسان على الانفصال والسمو فوق تكوينه البيولوجى، وهو بهذا السمو يبلغ حد الالتزام بالرسالات السماوية؛ حيث يمثل هذا الجانب الروحى جانبًا من جوانب شخصية الإنسان.

٥- التفكير فى المستقبل يثير القلق، الذى ينشأ من الخوف وتوقع حدوث الفشل، خاصة وأن الإنسان ليست لديه معرفة به، وبالتالى فليس فى استطاعته أن يعد نفسه لمواجهته.

٦- الإنسان الذى يترك نفسه نهبًا لهذا القلق، وهذا الصراع يصبح غريبًا عن نفسه.. غريبًا عن حياته، ضائعًا فى فراغ وجودى، لا يشعر من الحياة سوى بقسوتها، وقد يضعف أمام هذه القسوة فيستسلم ليصبح شيئًا... مجرد شىء.

هنا توضح لنا هذه الملامح الرئيسية كيف يمكن للموجه والمرشد النفسى أن يستثيرها فى الشخص، ويحاول أن يبحث عنها؛ لأن هذه الملامح الرئيسية التى قدمها عبد الغفار تؤكد حقيقة مهمة مؤداها:

إن الذات البشرية تعرف أن وجودها متناه عرضى، محدود موقوت مجعول للفناء... فوجودى هو الشىء الوحيد الذى أملكه، وهو أيضًا الشىء الوحيد الذى أنا معرض لفقدانه فى كل لحظة... وهنا لابد للموجود البشرى إذا أراد أن يغير اتجاهاته ويحدد مسار سلوكه، ويجنب نفسه المشكلات والاضطرابات، أن يتجنب حياة الألم والخوف السام، على الرغم أن وجودنا ما هو إلا آثار أقدام فوق الرمال، أو وميض خاطف سرعان ما ينطفئ.

«ولعل البعد الدينى الذى يتجلى فى قدرة الإنسان على السمو خير دليل على تلك الإمكانية العقلية التى زود بها الإنسان، واستطاع أن يوظفها توظيفًا من شأنه أن يجعله يصل إلى الحد، الذى يستعذب العذاب فى سبيل الدين والقيم، بل كلما ازداد العذاب وقست المواجهة، ازداد عطاء الإنسان فى سبيل دينه وقيمه»[1].

وعلى ضوء ذلك.. فإن علاج الاتجاهات لم يوضح لنا كيف يمكن للجماعة أن تهيئ للفرد صاحب المشكلة الموقف الذى على هداه يتصرف، ولم يبين لنا «فولسوم» وفريق العلاج مجموعة الأدوار المختلفة، التى يلعبها كل فرد من أفراد الفريق؛ خاصة وأن فولسوم قد أكد ضرورة أن يكون اتجاه أفراد الفريق العلاجى واحدًا، وأن تكون أفكارهم وخططهم فيما يختص بالعلاج على درجة عالية من الانسجام من حيث التقاء الآراء والأفكار.

وإذا كان علاج الاتجاهات ـ من خلال الفريق العلاجى ـ يحاول أن يعدل ويغير من سلوك صاحب المشكلة، الذى يغلب عليه التوتر والقلق والاضطراب إلى السلوك الأكثر اتزانًا، من خلال تحضير المواقف التى تساعد صاحب المشكلة على ذلك.. فإنه من الضرورى أن يوضح لنا هذا الأسلوب العلاجى، على سبيل المثال، النقاط الآتية:

١- تحويل القوة فى صاحب المشكلة إلى فعل:

لأن الفرد هو حزمة من الإمكانات التى تسعى إلى التحقق، أو هو بمثابة مجموعة من القوى الضمنية؛ التى لابد للفريق العلاجى أن يحولها إلى وقائع فعلية.

وبطبيعة الحال.. فإن صاحب المشكلة لا يكاد يشعر براحة نفسية حقيقية، اللهم إلا حين يمارس نشاطه الذاتى؛ لأنه يشعر عندئذ بقدرته، من خلال ممارسته الفعلية لنشاطه الخاص.

---

(١) فى طبيعة الإنسان ـ ص ٥٦ .

وقد تصدق عبارة لافيل Lavelle(*)، عندما يقول عن الشخص صاحب المشكلة التي تجهز له المواقف الإرشادية أنه «أشبه ما يكون بالسجين الذي يحطم سلاسله، أو تلك اليرقة التي تخرج من شرنقتها». ومن هنا.. فإن الفعل هو الذي يمثل المحور الأساسي في تعديل الاتجاهات؛ بل إن إدراك الإنسان الفرد لمعنى حياته، يرتهن بمدى مواقفه وتصرفاته وأفعاله.

٢- تحقيق الذات من خلال تحقيق الإمكانات:

كان لابد لهذا الأسلوب العلاجي أن يوضح لنا ـ خاصة وقد ركز على ضرورة أن يعتمد صاحب المشكلة على ذاته ـ كيف يستطيع الفريق العلاجي أن يوضح لصاحب المشكلة أن الذات البشرية هي مقدرة على الوجود (Pouvoir d'etre)، أكثر مما هي وجود (Etre). وبطبيعة الحال.. فإن الرجوع إلى حياة صاحب المشكلة الشخصية قد يجعل الفريق العلاجي يضع بين يديه مجموعة من المعلومات، من شأنه أن تساعدهم على إعادة ترتيب المواقف، التي تساعد صاحب المشكلة على أن يهتدي إلى مجموعة الإمكانات، التي تساعده على إعادة النظر في أمر مشكلته.

والواقع أن الصلة وثيقة بين شعور صاحب المشكلة بذاته، وتحقيقه لإمكاناته لأن الذات إذا كانت تبدأ باكتشاف الإمكانات الباطنة في أعماقها.. فإن تحقيق الذات لا يتم إلا حين تتحقق الإمكانات. وهنا كان لابد على الفريق العلاجي أن يوضح مدى المسئولية، التي لابد وأن يستشعرها الفرد صاحب المشكلة؛ خاصة في المرحلة الرابعة، التي يرفض فيها الفريق الاستفسارات والمطالب التي قد يبديها صاحب المشكلة[١].

وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا للفريق العلاجي أنه ينبغي اعتبار أن حياة صاحب المشكلة في جانب من جوانبها (وجوب)، أكثر مما هي (وجود)؛ بمعنى

(*) Lavelle, Louis: De L'acte, Paris, Aubrier, 1964, p.p. 286-287.

(١) عبر عن هذه المرحلة : Nodemand.

أنها مهمة لابد من أدائها، أكثر مما هي واقعة تقتصر على تقبلها. ومن هنا فإن هدف الفريق العلاجى لابد وأن ينحصر فى مهمة من المهام الرئيسية، وهى أن يدرك الفرد ما زود به من إمكانات، وأن ينجح فى تحقيق هذه الإمكانات، وأن يرضى عن نجاحه فى تحقيق ما زود به[1].

٢- تأكيد أن الحياة قيمة، لا مجرد واقعة،

كان لابد لهذا الأسلوب العلاجى أن يوضح لنا من خلال المراحل السابقة كيف أن عملية تحقيق الذات لصاحب المشكلة ليست عملية سيئة، بل هى عملية لابد من أن تلتقى فى طريقها بمقاومة وتصطدم بالعوامل، ومن هنا. فإن المحك الأساسى الذى لابد من الاعتماد عليه فى التأكد من تغيير اتجاهات صاحب المشكلة يتحدد بمقتضى تلك المقاومة، التى يواجه بها كل عائق، وتكون تلك المقاومة بمثابة التحدى الذى يدفع الذات إلى العمل على إحالة (العائق) إلى (وسيلة) للحل.

ومن هنا فإن مهمة الفريق العلاجى تنحصر فى كيفية توضيح المواقف الأصلية، التى تكتنف طريق صاحب المشكلة، الذى قد لا يواجه مجموعة من التحديدات التى ترسم له مرة واحدة وإلى الأبد معالم طريقه، بل هو يلتقى أيضاً بمجموعة من القيم التى تستثير طاقاته؛ من أجل العمل على تحقيق مصيره، ولعل هذا ما عبر عنه عبد الغفار[2] (بالعطاء) كمحك من محكات الصحة النفسية للفرد؛ حيث يعتبر العطاء من أهم مظاهر تحقيق الفرد لوجوده أو تحقيقه الحال، فكل ما يؤدى إلى التطور والاستمرار هو الطبيعى وهو الصحى.

وإذا كان علاج الاتجاهات قد قدم لنا من خلال فنياته هذه المراحل التى عرضناها. فإن الهدف الأساسى الذى كان يسعى إليه هو الأسلوب العلاجى؛ كان ينحصر فى مدى محاولة فريق العلاج فى تغيير اتجاهات صاحب المشكلة.

ولعل وجهة النظر السابقة حول مراحل العلاج لا تمثل سوى اجتهادات من

---

(١) ارجع إلى عبد السلام عبد الغفار: مقدمة فى الصحة النفسية - دار النهضة العربية - ١٩٧٧ ص ٢٤٨ .
(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٥ .

شأنها أن تسهم فى تنمية أسلوب العلاج عن طريق الفريق؛ خاصة وأن هذا الأسلوب قد يتعرض لمجموعة من الانتقادات؛ إذا كانت هناك مجموعة من الحواجز، التى مازالت تفصل بين التخصصات المختلفة على سبيل المثال بين الطب النفسى والعلاجى النفسى، وبين العلاج النفسى والخدمة الاجتماعية... تلك الحواجز التى قد تحول دون تحقيق التفاهم بين أصحاب التخصصات المختلفة...

وليس من شك أن فى السبيل الأوحد إلى تزايد التفاهم والتواصل بين أصحاب التخصصات المختلفة، يتجلى من خلال مدى اهتمامهم واحترامهم لصاحب المشكلة، واستعداد كل فرد من أفراد الفريق لتقديم خدماته الإرشادية والعلاجية، كل حسب تخصصه، فى تآزر وتعاون... بحيث تحقق الاحترام للتخصص والتكامل للعلاج.

ثالثاً: العلاج بالمعنى وتوظيف الإرادة:

من الضرورى لمن يتصدى بتقديم وجهة نظر حول أسلوب من أساليب العلاج النفسى، أن يبدأ بتحديد ما يستخدمه هذا الأسلوب من خطوات، وما يستند إليه من مصطلحات وفنيات؛ بحيث يسمح هذا التحديد بالمضى فى تناول الأسلوب موضوع الدراسة بطريقة تجعلنا فى مأمن من التخبط أو التناقض غير الواعى؛ مما قد يحدث من جراء الاستخدام الفضفاض للألفاظ(*)، أو من سوء الاستخدام للمصطلحات.

والعلاج بالمعنى Logotherapy يعتمد على مخاطبة عقل صاحب المشكلة(*)؛ على اعتبار أن العقل قوة بشرية، توضع فى مقابل الانفعال أو العاطفة، وهو بمثابة القوة المضادة للسلطة بشتى مظاهرها، والتى تحاول جاهدة إلى التخلص من كل آثار التفكير الأسطورى (اللاعقلانى).

(*) يقصد هنا بصاحب المشكلة (المريض الذى يعانى من اضطراب نفسى، وقد استعضنا عن كلمة المريض بتعبير صاحب المشكلة).

وإذا كان هذا الاتجاه فى العلاج النفسى قد ركز على الاحتكام للعقل.. فإن تركيزه على العقل قد جعل له بعداً آخر؛ لأن العقل إذا كان بمثابة قوة للمعرفة والعلم.. فإن للعقل جانبًا آخر عمليـًا، وما يمكن أن يسمى أخلاقيـًا واجتماعيـًا بحيث لا يمكن تجاهل هذا الجانب الأخلاقى... ويكفى للاستدلال على هذا البعد الأخلاقى أن العقل قد ارتبط منذ أيام اليونانيين القدماء (بالهارمونى) والتناسب الصحيح، والعدل...

وفى أوربا الحديثة، كانت الاتجاهات العقلانية بمثابة فلسفات تنادى بإقرار العدل، فى الوقت نفسه الذى تؤكد فيه ضرورة سيادة الإنسان على الطبيعة، من خلال إعلان حكم العقل فى أرجاء العالم.

والوعى بالشكلة من قبل الشخص، الذى يعانى من الاضطراب النفسى، لايمثل واقعة معطاة أو هبة يهبها له المعالج من خلال حواره ومناقشته له، بل هو بمثابة كسب تدريجى يجئ لصاحب المشكلة فيحدد معالمها أمامه، ويرسم من خلال هذا الوعى مراحل تطور المشكلة.

وليس (الجدل) الذى يأتى من المعالج الذى يوظف أسلوب العلاج بالمعنى، سوى تلك العملية التى يتم بمقتضاها هذا التحقق التدريجى من عدم معقولية الأفكار المتسلطة، والتى سببت هذا الاضطراب النفسى وتحكمت فى أحداثه.

ومن هنا.. لابد لنا من عرض ركائز هذا الأسلوب العلاجى (نستطيع أن نقف على فنياته ومراحله، وكيف يستطيع المعالج النفسى أن يوظفها).

يرى (فيكوتر فرانكل) صاحب هذا الاتجاه العلاجى[1] «أن الإنسان إذا وجد فى حياته معنى أو هدف.. فإن معنى ذلك أن وجوده له أهميته وله مغزاه، وأن حياته تستحق أن تعاش، بل إنها حياة يسعى صاحبها لا ستمرارها واستمتاع

---

(1) Folsom. V. E., "Man's Search for Meaning, an introduction to logotherapy., Allahabad: Better Yourself Books, 1974.

ظهرت ترجمة عربية لهذا المؤلف (الإنسان يبحث عن المعنى) تقديم الأستاذ الدكتور القوصى، وترجمة الأستاذ الدكتور طلعت منصور، دار القلم، الكويت، ١٩٨٢، وقد رجعنا إليها (ص ١٣٠ - ١٧٠).

بمغزاها». ومن أجل التوصل إلى هذا المغزى العميق فى حياة الإنسان، وضع (فرانكل) ركائز أسلوبه العلاجى على الوجه الآتى، كإطار نظرى لهذه النظرية:

أولا: الإنسان يبحث عن معنى حياته بإرادة المعنى:

يعد سعى الإنسان إلى البحث عن معنى بمثابة قوة تدفعه؛ لكى يدافع عن قيمة أو شخص ما فى حياته، ولديه الإرادة التى تجعله على استعداد لمواجهة الموت فى سبيل هذا الشخص أو تلك القيمة.

وينبه (فرانكل) أنه علينا أن نحتاط من النزعة إلى تناول القيم فى ضوء مجرد تعبير الشخص عن ذاته؛ فالمعنى Logos ليس انبثاقًا من الوجود ذاته فحسب، ولكنه بالأحرى شىء يواجه هذا الوجود.

وهنا يؤكد (فرانكل): «أن المعنى المراد تحقيقه من الإنسان فى واقعه إذا لم يكن سوى تفكيره الذى يريد تحقيقه فى عالم الواقع، فإنه يفقد على الفور طبيعته الباعثة على التحدى والعمل»(*).

وإذا اعتبرنا كما يرى (فرانكل) أن إرادة المعنى تمثل تلك الركيزة الأساسية من ركائز العلاج بالمعنى.. فإننا قد نجد صعوبة فى تحديد هذه الإرادة، على اعتبار أنه ليس من السهل علينا فى كثير من الأحيان أن نرتد إلى ذواتنا، ونغلق أبوابنا علينا ونقبع فى أنيتنا... فإن نداءات العالم مغرية، ومقتضيات الحياة الجمعية كثيرة، وحاجات البدن لا تحتمل تأخيرًا.

والدليل على ذلك ما تميل إليه حضارتنا الراهنة إلى اعتبار الفرد مجرد حزمة من الوظائف... مجرد ظاهرة خارجية، يمكن قياسها ومعاينتها وإصلاحها والتحكم فى سيرها!!

إرادة المعنى إذًا تحتاج إلى أن نؤكد قيمة تحويل (القوة إلى فعل)؛ لأن الفرد هو حزمة من الإمكانات التى تسعى إلى التحقق، أو هو بمثابة مجموعة من القوى

(١) الإنسان يبحث عن المعنى - ترجمة دكتور طلعت منصور، مراجعة وتقديم الأستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى، ص ١٣٣ .

الضمنية، التى لابد للمعالج النفسى من أن يكتشفها لدى صاحب المشكلة؛ حتى يصبح العمل عنده هو الذى يمثل المحور الأساسى فى تحقيق ذلك المعنى.

ثانياً: يحدث الإحباط الوجودى عندما تفشل إرادة المعنى:

يرى (فرانكل) إن إرادة المعنى قد تتعرض عند الإنسان إلى الإحباط، وهو ماحدده بالإحباط الوجودى، وهو ما يحدث عندما تخبو عزيمة الإنسان الفرد فى السعى للتوصل إلى معنى محسوس وملموس، فى وجوده الشخصى؛ أى إلى إرادة المعنى.

وبطبيعة الحال هذا الموقف الذى جعل الإنسان عاجزاً عن التوصل إلى المعنى قد يتمخض عنه الاضطراب النفسى، ولهذا النمط من المرض النفسى يبتكر (فرانكل) - من خلال فنياته - مصطلح العصاب المعنى No ögenie neurosia، خلافًا للعصاب بمعناه الشائع لهذه الكلمة، والذى يميزه عن العصاب النفسى أن العصاب المعنوى يرتهن بالجوانب الروحية؛ لأن المصطلح مأخوذ من الكلمة اليونانية (Noose) وتعنى العقل أو الروح.. ويؤكد فرانكل أن مصطلح (الروح) هنا لا يعنى دلالة دينية بشكل أساسى، وإنما يشير إلى البعد الإنسانى على وجه التحديد.

ويؤكد فرانكل أن مثل هذا الإحباط الوجودى يأتى من المشكلات الروحية، تلك التى تأتى من الصراعات بين القيم المختلفة.

ثالثاً: الصراعات بين القيم يؤدى إلى العصاب المعنوى:

يتولد العصاب المعنوى من الصراعات المعنوية الأخلاقية، ومن هنا يكون العلاج بالمعنى هو الأسلوب الوحيد، الذى يستطيع أن يغوص فى الجوانب الروحية للإنسان، على اعتبار أن المقصود بكلمة Logos ليس المعنى فقط كما أسلفنا، ولكن بمعنى الروح أيضًا. ومن هنا تكون المشكلات التى قد تعترض الإنسان، مثل: مستوى طموحه، أو تطلعاته إلى المثل العليا واصطدامه ببعض العوائق، التى قد تحد من هذا الطموح، وتمنع تحقيق التطلع إلى المثل العليا

والقيم، والتى لا يمكن أن تعالج على أساس المفاهيم الغريزية؛ بل لابد من أن تؤخذ بإخلاص وحماس على مستوى التعقل ومجابهة المشكلات. وهنا نجد أن (فرانكل) يريد أن يجعل المعنى شعوريًا، وفي الوقت نفسه نجده يهتم بالحقائق المعنوية، فهو يجعل صاحب المشكلة واعيًا بالمعنى الكامن Hidden Logos وراء مشكلاته، ثم يساعده على تحقيق إمكانات المعنى Potential Meaning؛ أى يجعل صاحب المشكلة يصل إلى ما يعرفه حدود مشكلته وأبعادها المختلفة.

ويذكر فرانكل أن الفرق الأساسى بين العلاج بالمعنى، والتحليل النفسى يتجلى، من خلال اعتبار الإنسان كائنًا، محوره الحقيقى تحقيق المعنى وتأكيد القيم، بدلاً من أن يكون مهتمًا فقط بمجرد إرضاء أهوائه وإشباع حوافزه وغرائزه، أو على حد تعبير مدرسة التحليل النفسى أن يهتم بمجرد إحداث المصالحة بين المطالب المتصارعة التي يفرضها (الهو والأنا ـ والأنا الأعلى)، أو يكرس جهوده على المواءمة والتكيف مع المجتمع.

رابعًا: الديناميات المعنوية هدف بديل لاستعادة الاتزان:

يرى فرانكل أن التوتر يكاد يكون المتطلب الذى لابد منه للصحة النفسية؛ خاصة وأنه لايوجد شيء في الدنيا، يمكن أن يساعد الإنسان بفاعلية على البقاء؛ حتى فى أسوأ الظروف مثل معرفته بأن هنالك معنىً فى حياته(*) ومن ثم فإن الصحة النفسية تستند إلى درجة من التوتر، بين ما أنجزه الفرد بالفعل وما لايزال عليه أن ينجزه، أو ما يمكن أن يسمى الفجوة بين الواقع وما يريد أن يكون.

ومن الخطأ أن نظن أن ما يحتاجه الفرد لكي يخفف من حدة هذا التوتر، هو استعادة الاتزان؛ تلك التى توصله إلى حالة (اللاتوتر). ولكن الإنسان يحتاج إلى استدعاء إمكانات المعنى، وما يريد أن يحققه، وما يصاحب هذا التحقيق من

---

(١) يسترشد (فرانكل) فى هذا الصدد بعبارة نيتشه صاحب فلسفة القوة، عندما قال: (إن من عنده سببا ليعيش من أجله. . فإنه غالبًا يستطيع أن يتحمل فى سبيله الصعاب بأى شكل من الاشكال).

ديناميات معنوية، تلك التى تمثل حركة متفاعلة بين الإنسان، وما يريده من معنى وهدف، وقدراته على تحقيق هذا المعنى وذلك الهدف.

والمتأمل العميق لوجهة نظر فرانكل.. سوف يجد أنه يريد أن يحدث ما يمكن تسميته (بالتوجه نحو المعنى) Meaning Orientation؛ بمعنى أنه يريد أن تكون محصلة الديناميات المعنوية للإنسان الفرد أن يحدد معنى لحياته، ويسعى بقدر المستطاع لتحقيقه، وإذا سألنا عن هذا الإحساس الذى بدأ يساور بعض الأفراد فى مجتمعنا المعاصر، والذى يعبرون من خلاله عن خلو حيواتهم من المعنى.. فإن (فرانكل) يقدم الركيزة الخامسة التى شرح فيها سر انتفاء المعنى عند هؤلاء.

خامساً: يشعر الإنسان بالفراغ الوجودى عندما لا تكون للحياة معنى:

* يرى (فرانكل) أن الفراغ الوجودى أصبح مشكلة العصر الراهن، يسترشد (فرانكل) فى هذا الصدد بعبارة نيتشه صاحب فلسفة القوة، عندما قال: (إن من عنده سبب ليعيش من أجله.. فإنه غالبًا يستطيع أن يتحمل فى سبيله الصعاب بأى شكل من الأشكال)، وأنه قد أصبح ظاهرة يتميز بها القرن العشرون، ويكشف هذا الفراغ الوجودى عن نفسه عند الإنسان فى حالة الملل، التى قد يراها المتأمل العابر بسيطة إلا أنها تؤدى إلى الانتحار، والإدمان، وجنوح السلوك.

وبالإضافة إلى ذلك.. فهناك بعض الأقنعة المختلفة والمظاهر المتعددة، التى يتجلى من خلالها الفراغ الوجودى، فنجد فى بعض الأحيان كما يحدد (فرانكل) تعويضًا لإرادة المعنى المحيطة بإرادة القوة، تلك التى من الممكن أن تتجلى فى إرادة المال، أو فى بعض حالات أخرى تحل إرادة اللذة محل إرادة المعنى المحيطة... ولعل ذلك ما جعل فرانكل يؤكد أن الإحباط الوجودى ينتهى غالبًا بالتعويض الجنسى، من خلال ما نلاحظه فى تلك الحالات أن اندفاع الطاقة الجنسية يصبح متفشيًا فى حالات الفراغ الوجودى.

الدراسة الكلينيكية:

(تطبيق لفنيات العلاج بالمعنى على حالة من حالات العيادة النفسية)

من خلال هذا التسلسل التدريجي لفنيات للعلاج بالمعنى، حاولنا تطبيق هذه الخطوات على (حالة طالب جامعي ـ العمر الزمني: ٢٥ سنة ـ المرحلة الدراسية: طالب بيكالوريوس الخدمة الاجتماعية ـ الشكوى: قلق وخوف وفقدان الثقة بالنفس).

معلومات عن أسرة الطالب:

* يعيش صاحب المشكلة مع والدته المطلقة من أبيه ـ في بيت جدته، ويتكون المنزل من غرفتين، وهو منزل قديم به دورة مياه واحدة ـ تسكن معهم فيه أسرة مكونة من خمس أفراد، هذا المنزل يمتلكه أقارب (الحالة).

* الدخل الشهري ـ يعطي الوالد صاحب المشكلة ٢٠ جنيهًا كل شهر؛ ليصرف منها على شراء حاجياته، ويغطي كل مصروفات الدراسة. يعطف عليه خاله (على حد تعبيره) فيعطي الجدة كل شهر مبلغ خمسة جنيهات، مدعمة ببعض اللوازم المنزلية مثل (سكر ـ شاي ـ أرز ـ زيت).

* (كانت تعيش مع الحالة) شقيقته، وهي أصغر منه بعام وشهر واحد، وقد تزوجت.

الخبرات القاسية التي مرت بها في فترة الطفولة(*):

١- ضرب أبي لي دائمًا (بالخرطوم الجلد) وهو يسمّع لي أو يشرح لي دروسي، وكنت أبدو مذعورًا ـ وكان يطردني خارج البيت لوقت طويل في المساء، ثم يعود ليدخلني بعد أن يهددني ويتوعدني.

(*) وجه هذا السؤال إلى (الحالة أثناء ترددها على العيادة النفسية لكلية التربية، جامعة عين شمس) وتركت (الحالة) تكتب الإجابات بطريقة التقرير الذاتي Self Rating ـ توطئة للوقوف على الظروف المحيطة بأحداث المشكلة.

٢- طلاق أمى من أبى - وخروجها من بيتنا إلى بيت جدتى - وتركتنى مع زوجة أبى التى كانت تعذبنى - وتلسعنى بالنار - أو تلفق لى التهم لحين حضور والدى.

٣- كنت إذا لعبت كرة فى الحارة مع أصحابى - كان أبى يضربنى - مما جعلنى أخاف من سماع صوته أو دبيب أقدامه - عرف الأطفال نقطة الضعف هذه - وهى أننى أخاف جدًا من أبى - فكان عليهم إذا تشاجرت مع أحدهم، دفاعًا عن حقى، يهددونى بإبلاغ والدى؛ فيزداد خوفى وانعزالى.

الخبرات القاسية فى مرحلة المراهقة:

١- لم أكن أعلم شيئًا عن تلك المرحلة، والتغيرات التى تحدث فيها، على الرغم من إحساسى برغبة جنسية عارمة، دون أن أعرف السبب الحقيقى وراء إحساسى (يلاحظ هنا مدى تأثير غياب رعاية الأب).

٢- مررت بخبرة عاطفية صادقة وأنا فى السنة الثانية الثانوية، ولكن محبوبتى كرهتنى لأننى على حد تعبيرها (غشيم - خواف - عاوز أتلدرج).

٣- كان بعض زملائى يضحكون على فى الفصل لأننى ألدغ فى حرف (الراء)؛ مما كان يؤلمنى جداً، وأتحاشى التحدث معهم.

٤- كان أبى يجعلنى خادمًا له ولزوجته حيث كنت أشترى لهم الخضار - أصلح باجور الجار - أتزاحم فى الجمعيات - كنت أرفض ذلك فى قرارة نفسى، ولكن خوفى من أبى جعلنى لاأحدثه فى هذا الشأن.

٥- نجاحى فى الثانوية العامة - وكنت لا أرغب فى إكمال تعليمى، بل كنت أريد أن أتوظف، فدخلت الكلية ولم أكن أعلم عنها شيئًا.

٦- لا أستطيع أن أنسى ذلك اليوم الذى وقفت فيه أمام ناظر المدرسة الثانوية بتهمة تكسير الكراسى، وهو يمسك (خرزانة) فكنت فى غاية من الخوف واللجاجة (لأننى لم أفعل هذا العمل موضع التهمة)، وما كان من الناظر إزاء هذا الخوف الفظيع إلا أن قال أمام الطلاب (ده ولد غلبان خالص).

الخبرات القاسية في المرحلة الجامعية:

١- عندما دخلت الكلية، كنت أرى الشباب يندمجون بسرعة مع البنات ويتكلمون بطلاقة معهن، وأرانى متعثراً صامتاً لا أستطيع الكلام، وأكتفى بالنظر من بعيد.

٢- كنت أخاف جداً من الأساتذة، وأتحاشى الكلام معهم.

٣- رسبت في العام الثانى من الكلية بسبب انقطاع المصروف، ومرض والدتى، واضطرارى للاشتغال في (طايفة المعمار) أقوم بعمل خلطة المونة الخرسانية نظير ثلاثة جنيهات في اليوم.

٤- كان أبى كثيراً ما يقول لى «أنت غبى تعيش حمار وتموت حمار»، أنت لاتحل ولا تربط ـ وكثيراً ما كان يطردنى علانية أمام الناس عندما كنت أزوره.

٥- عدم القدرة على إبداء رأى مخالف لرأى أبى ـ أو حتى مناقشته ـ لأن ذلك كان يؤدى إلى زعله منى.

٦- جاءت على لحظات كثيرة كنت أكره فيها أبى ـ وأكره الذهاب إليه ـ وأكره يوم الإجازة لأنه لابد من الذهاب إليه، وكنت أرتعش حتى أصل آليه.

٧- تهديده المستمر بقطع المبلغ البسيط الذى كان يعطيه لى.

٨- لابد من الاشتغال في كل إجازة صيف في (طايفة المعمار)، وتحمل الأعباء الشاقة (بدنيّا ونفسيّا)؛ من أجل الحصول على قدر من المال، أنفق من خلاله على نفسى من حيث الكتب والملابس، حتى تنقضى الأيام المتبقية من السنة الرابعة على خير.

أجرى تطبيق اختبار الشخصية المتعدد الأوجه (M.M.P.I.)؛ لتعرف الخلفية النفسية لصاحب المشكلة، بعد إجراء المقابلات الكلينيكية، وقد حصل صاحب المشكلة على درجات عالية في المقاييس النفسية الآتية(*):

(*) اختبار الشخصية المتعددة الأوجه، قام بإعداد النسخة على البيئة المصرية (د. عطية هنا ـ د. عماد الدين اسماعيل ـ د. لويس مليكه).

(هـ س) **ويقيس توهم المرض ـ انقباض:** ويتميز بأنه يتعرض لنوبات مفاجئة من الضعف، ويميل إلى الاعتماد على الغير.

(د) **ويقيس درجة الانقباض:** وتدل على انخفاض الروح المعنوية، والشعور باليأس والعجز عن النظر للمستقبل نظرة عادية متفائلة.

(هـ ى) **ويقيس الهستيريا:** ويشعر صاحب المشكلة بنوبات مفاجئة من الضعف والإغماء، أو حتى ما يشبه الصرع.

(ب ت) **سيكاثينا... يعاني من المخاوف المرضية:** أو السلوك المظهرى، وهو شديد الارتباط بالمثلث العصابى (هـ س، هـ ى، د)، ويفيد هذا البعد أن صاحب المشكلة يشعر بالقلق ـ مسالم إلى حد بعيد ـ عاطفى ـ انطوائى.

(س ى) **الانطواء الاجتماعي:** دلت مقاييسه على أن صاحب المشكلة يميل إلى الوحدة العزلة، وينسحب من التفاعل والمشاركة الاجتماعية.

تعقيب على دراسة الحالة:

والواقع أن نتائج مقياس الشخصية المتعدد الأوجه والظروف المزاملة للمشكلة قد جعلت صاحب المشكلة فى حيرة من أمر نفسه، وحياته؛ الأمر الذى جعلنا نناقش معه مدى فهمه لمعنى حياته؛ لأنه كثيراً ما كان يقول (أننى أحاول أن أبحث عن نفسى حتى أهتدى إليها)، وهو يريد أن يؤكد من خلال العمل أن يشعر بأنه قوى، وأن طاقاته لابد وأن توظف فى هذا العمل الذى اختاره (لكى يكسب منه قوته، وما يمكنه من الصرف على دراسته). وهنا بدأت أركز على تغذية المناقشة خلال الجلسات الإرشادية بمنطق يستحثه على العمل وجدولة الوقت حتى لا يرهق نفسه، وحتى لا ينجرف فى التيارات السلوكية، التى نبه عنها خلال اعتراضه على سلوك العمال ومعاملاتهم... وقد نجح صاحب المشكلة فى إظهار هذه القدرة على العمل والاستمرار السليم.

هنا تتحقق قيمة الأسلوب العلاجى المستخدم من أن المعنى والالتزام بتحقيقه

عن وعى بهذا الالتزام من الأمور الضرورية؛ لأن الواقع أنه إذا كانت الصلة وثيقة بين «شعور صاحب المشكلة بذاته» وتحقيقه لإمكانياته.. هنا يستطيع المعالج أن يجعل صاحب المشكلة أن يقنع بما لديه من إمكانيات، وأن يقذف بكل إمكانياته إلى عالم الواقع؛ بغية تحقيق الهدف، الذى يرى أنه بمثابة (ولادة جديدة) ستجعله يحظى بالمكانة الاجتماعية ويقدم المعونة لوالدته، ويعطف على أخته المتزوجة، والتى كان يتأثر عندما يزورها دون أن تصاحبه الهدايا.

وأثناء تأكيد هذا المعنى المسئول للحياة، والنابع من إرادة صاحب المشكلة، لابد لنا من أن نعوده تحمل الصعاب، والمعاناة فى سبيل تحقيق الهدف؛ لأن الموقف البشرى لا يتحدد إلا بمقتضى تلك (المقاومة) التى تواجه بالضرورة كل (نشاط) إرادى، فتكون بمثابة التحدى، الذى يدفع بالذات إلى العمل على إحالة (العائق) إلى واسطة.

ومهما سنلتقى فى حياتنا بالكثير من الحدود والعوائق.. فإن هذه الحدود هى مجرد تحديدات، تساعدنا على رسم طريقنا، دون أن تمنعنا من الوصول إلى ما نهدفه، ونتطلع صاحب المشكلة هنا نجده تحول إلى إنسان مريد، يسعى جاهداً فى سبيل التحرر من مظاهر القلق والألم والصراع؛ لأن الحياة قد أصبح لها معنى، ولها دلالة ينبغى أن تعاش، ولم تعد خاوية كما كان يتصورها صاحب المشكلة فى بداية تردده على الجلسات الإرشادية.

وبالنسبة للخبرة العاطفية التى بدأ يكونها صاحب المشكلة نحو زميله فى الدراسة يرى أنها تقدر فيه كفاحه، وتعرف مشكلاته، وتساعده.. فقد تم تبصيره بأهمية هذه التجربة، وكيف أن هذه الحياة العاطفية النقية تمثل حياة مشاركة يتعلق فيها الإنسان بأسمى وأرفع ما فى الإنسان. ومن هنا لا يجوز لصاحب المشكلة أن يخاف من هذه التجربة النقية السليمة؛ لأن الحب الشخصى المبنى على التفاهم والوضوح والصدق يمثل قيمة أخلاقية كبرى فى حياة الإنسان، ولعل ذلك ما سوف يخلع على حياة صاحب المشكلة عمقًا، ومعنى وقيمة، مما يكسبه اتجاهًا وقصداً وغائية.

والواقع أن العلاج بالمعنى كأسلوب للعلاج النفسي ينجح تماماً، إذا كان صاحب المشكلة فى مقدوره أن يستوعب القضايا المنطقية، التى من شأنها أن تجعله يسمو بنفسه إلى أعلى درجة، وأن يفهم أن النضج النفسي يستلزم بالضرورة إقامة ضرب من ضروب الاتزان الوجدانى؛ حتى يتمكن من الإقبال على الحياة بما فيها من سعادة وألم، وهنا يتحدد المقصود (بالعلاج بالمعنى)؛ لأنه يخاطب العقل ذلك الذى يسعى إلى تحقيق التوازن المنطقى، وتنظيم الانفعالات وتقوية الإرادة على تعقيل الأهواء.

وإذا كانت هناك ثمة عوامل، قد يكون من شأنها، أن تحد من قدرات الإنسان فى الحياة، وبالتالى تنعكس على شخصيته.. فإن هذه العوامل لاينبغى أن تكون قوى هدامة، بل لابد من اعتبارها قوى منشطة ومحركة ودافعة للإنسان على العمل والاستمرار السليم، فى مواجهة هذه الصعاب.

وجدير بالذكر أن هذا الأسلوب العلاجى يحتاج إلى دراسات متعددة؛ حتى تقف من خلالها على مدى نجاحه فى حالات القلق، والمخاوف والتعلق بالأفكار الغيبية الأسطورية؛ خاصة وأن الحالات التى قدمها (فرانكل) كانت حالات أمينة خاصة، على مستوى من العلم والمعرفة والثقافة؛ الأمر الذى يجعلنا نستخدمه كأسلوب علاجى مع فئة خاصة (ونعنى بها على درجة عالية من الثقافة والذكاء والتعليم).

وإذا كان هذا الأسلوب العلاجى، قد تصور الإنسان بمثابة مجموعة من القوى تحدد سلوكه، ولكنه هو الإنسان الذى لابد له أن يفهم تلك القوى، وعن طريق هذا الفهم تتكون لديه القدرة على القيام بدور فعال فى تحقيق مصيره... وهنا تكون صعوبة سر هذا الأسلوب العلاجى.

رابعاً: الرضا وقيمة الاطمئنان النفسي:

إذا كان الإنسان قد اعتاد أن يقبل على اللذة ويعرف عن الألم.. فإنه لابد له من أن يجد نفسه مدفوعاً إلى المبالغة فى تقرير أهمية الخبرات السارة على حساب الخبرات الأليمة.

ويعد الإحساس بالرضا مطلبًا من المطالب المهمة، التى يسعى إليها الإنسان ويهدف لتحقيقه، ويعتبر هذا الإحساس من وجهة نظر المشتغلين فى مضمار الصحة النفسية ملمحًا من ملامح الشخصية السوية، تعتمد عليه وتتصرف وفق هداه وإرشاده؛ حيث يشعر الإنسان الفرد بمدى انعكاس هذا الشعور بالرضا على سلوكياته وتصرفاته.

وقد يحتار العقل البشرى فى ظل زحمة الحياة المادية وما يصاحبها من ضغوط وسرعة ولهفة، وتتبلور هذه الحيرة من خلال هذا الاندفاع الرهيب لاقتناص الفرص، والحرص الشديد على تحقيق المنفعة المادية بأى شكل من الأشكال.

والحق أن كثيرين قد يتوهمون ـ فى سبيل امتلاك هذا الشعور بالرضا ـ أن الحياة هى الإشباع المادى فقط، وأن السعادة فى (الرفاهية).. فانعكس هذا التصور الواهم على تصرفات البعض، فلم يعد هذا البعض يرى من القيم سوى جانبها النفعى، وقد يتأكد لديهم الوهم ويتجسد ويتبلور فى أن الشعور بالرضا يرتكز على مدى إشباع الإنسان الفرد لهذه الحاجات المادية!!

وهناك من يرفض أن يتشبث بهذا السعى المستمر وراء الماديات، وعقد الصفقات، وتكوين شبكة من العلاقات المبنية على المنفعة المتبادلة، بعيدًا عن إطار القيم... مثل هذا الإنسان الرافض لخوض المعركة المادية بما فيها من مهاترات وصراعات، يضع لنفسه إطارًا من القيم يعيش عليه، فإذا به يشعر بالرضا لأن إفرازات هذا الشعور نابعة من ذاته مبنية على إرادة واعية، تحدد ما تريد وترفض ما لا تقتنع به.

ولكن نوضح العلاقة الوثيقة بين الإحساس بالرضا وشعور الاطمئنان النفسى، نسترشد بدراسة (سيد صبحى ١٩٨٧)، التى قدم فيها بعض الأبعاد المميزة للشعور بالرضا ودلالاتها النفسية على الوجه الآتى(*):

(*) سيد صبحى: الرضا لمن يرضى: دراسة فى الصحة النفسية ـ المطبعة التجارية الحديثة ـ القاهرة ١٩٨٧ .

• الرضا في مقابل التبرم:

يتطلع الإنسان الفرد دائمًا إلى ما يحقق له الانسجام مع مطالبه والاتزان مع رغباته، ويتوق إلى الكمال وإلى اقتناء كل ما ينمي ثروته وصحته وتعليمه ومعارفه وعلاقاته بأحبائه. ولذلك نراه في غالب الأحوال يحاول جاهدًا أن يلتمس شتى الوسائل المادية، التي تساعد وتعمل على تحقيق ذلك الانسجام المنشود.

وهذا الانسجام مع الذات ينعكس بطبيعة الحال في تعامله مع الآخرين من الناس، وكأننا نصل إلى معادلة بسيطة قوامها:

أن الإنسان كلما أرضى حاجاته ـ سواء كانت هذه الحاجات عضوية أم نفسية ـ فإنه يشعر برضا واتزان بين ما يمكن أن يسمى مطالب الجسم ومطالب النفس وما يصاحبهما من سعادة، تتجلى في زيادة حيوية الإنسان ونمو قدراته وتطلعه المستمر، في طلب المزيد من ذلك الذي أعاد إليه الراحة والسعادة والطمأنينة.

ولكن هذا الحرص على الاتزان من خلال إشباع الحاجات ـ سواء كانت عضوية أو نفسية ـ قد يخبو ويقبل وفق ما يعترض الإنسان من عقبات تحد من إشباع رغباته أو تقلل منها، بل وقد تمنعها.

وبالإضافة إلى هذه العقبات.. نجد أن الإنسان في تطلعه لإشباع هذه اللذات يفاجأ باختلاف طبيعة حاجاته، سواء كانت نفسية أم عضوية، فاللذات التي تشبع وتنعكس بشعور من الرضا عليه لاتتفاوت فقط في درجة شدتها، بل تختلف أيضًا في طبيعتها ونوعيتها والأسلوب، الذي يختاره الإنسان الفرد لإشباعها لهذه الطبيعة وتلك النوعية.

وجدير بالذكر أن الإنسان في سعيه المستمر يتطلع إلى الإشباع، ويحاول في سعيه أن يحرز التقدم المطلوب الذي يجعله متزنًا مشبعًا راضيًا، ويستمر حال الإنسان بين هذه المحاولات يقاوم المواقف، التي قد تقف حجر عثرة بين الإشباع وبينه؛ خاصة وأن هناك من الأفراد من يتصورون أن عليه أن يبحث الحاجة

ويتوسل إليها، ويصطنع المواقف التى تغذى إحساسه «بالرضا»؛ حتى ولو كان صوريـًا شكليـًا مزيفًا(*)!!

ويطبيعة الحال.. فإن الإحساس بالرضا عن طريق بعث الحاجة بوسائل صناعية مبشرة، يعمل على ضعف اللذة أو الراحة أو الإشباع، الذى قد يأتى من هذه الحاجة، وغالبًا ما تنقلب مراحل الإشباع إلى إيقاعات رتيبة تبعث على الملل والألم. والإحساس بالملل والألم يصنعه الإنسان؛ لأنه يتسرع فى تنبيه نداء الجسم، دون أن يدرك كنه هذا النداء وأبعاده، فيشبع الحاجة بغموض وتخبط أو بسرعة ولهفة، والغموض والتسرع من شأنهما أن يجعلاه متوترًا متبرمًا، وكلما كانت الحاجة التى يريد الإنسان الفرد أن يشبعها واضحة النداء، كانت وسائل تلبية هذا النداء مستجيبة لدوافع قوية، تخدم هذا الإشباع وتعمل على تحقيقه.

أما إذا كانت الحاجة غامضة، لايدرك من أمرها الإنسان شيئًا سوى الدغاغات السريعة أو الإيقاعات الخافتة.. فإن هذا الإنسان يشعر بالتوتر والقلق وعدم الرضا؛ لأن هذه الحاجة سوف تعاوده بين حين وآخر، فتقرع باب الرغبة لديه بضراوة وقسوة، دون أن تكشف الحجب عن سر إصرارها على عدم الدخول إلى عالم الإشباع.

ويزداد التوتر لدى الإنسان ويتارجح بين الأمل واليأس أو بين الرضا والتبرم، وقد يكتفى هذا الإنسان بلذة البحث عن اللذة المنشودة، التى لم ير منها سوى وميض خاطف كلمع السراب!!

إن الرضا والتبرم طرفان متضامنان، وقد يبدو للمتأمل العابر أن ظاهرهما ضدان متقابلان، فالإنسان الفرد فى سعيه نحو ما، يريد أن يشبعه تستهويه طموحاته إلى العلا، كما تستهويه نفسه للخوض فى الأعماق، ويفتش دائمًا عن عوامل تعبه بقدر ما يحاول أن يتلمس جوانب راحته، وكأنه البوتقة العجيبة التى

(*) Al- Koussy, A. A. "Inequalities and gaps inside and outside the home, Unesco, Paris, 1984.

تتصارع داخلها قوى خفية غاشمة، وتنصهر بين جوانبها عوامل الرغبة فيخرج الخليط يعبر عن الرضا تارة، ويعلن عن التبرم والتوتر تارة أخرى.

وإذا كان الرضا من الأهداف التى إذا تحققت للإنسان.. فإن الاختلاف على أهميته يبدو طفيفًا فكل إنسان يسعى إليه ويتطلع، بل ويتمنى أن يكون راضيًا مرضيًا(*)، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه؛ فلا يلبث أن يكون شعور التبرم من بين ما يصادفه من انفعالات، ذلك الشعور الذى يطيح بالمشاعر، ويشمل الوجدان شيئًا!! ويتبلور هذا الشعور من خلال:

* مواقف العجز التى يمر بها الإنسان حيث يجد نفسه لا يقوى على فعل أى شىء، أو لا يستطيع أن يحكم إرادته فى تقبل المواقف الضاغطة، أو أن مستقبله وما يتعلق به من آمال وتطلعات قد أصبح فى يد خفية، تبعث به وتسيره كما تشاء وتريد.

* يتجدد التبرم أيضًا من خلال انعدام شعور الإنسان بالحرية.. ذلك الشعور الذى عندما ينعدم يرى الإنسان نفسه، وقد تعلق فى الهواء، شأنه شأن ريشة ضئيلة فى مهب ريح عاتية.

* يشعر الإنسان بالتبرم عندما يتحول إلى آلة صماء، لا يقوى على التفاعل السليم والأخذ والعطاء المبنى على الأريحية والفهم والوعى بقيمة الإنسان الآخر؛ فتحدث الفجوة بينه وبين الآخر، ويضيع الوصال من خلال هذا الشعور المتبلد.

* ويتبرم الإنسان الفرد من عدم وضوح شبكة العلاقات الاجتماعية، فما يراه صدقًا ومقنعًا يتحول فى بعض المواقف إلى كذب ومداهنة وافتراء، فلا يملك الإنسان إلا أن يصاحبه هذا الشعور بعدم الرضا، والذى يجعله مهما حاول أن يخفيه من خلال أقنعة المسايرة، فإنه يبدو للنظرة الفاحصة متوترًا ضائقًا متبرمًا.

(*) فى أقوالنا الشعبية المصرية كثيرًا ما نسمع تمجيد هذا الشعور، من خلال القول الآتى: «ياعينى على الرضا».

* ويتملك شعور الإنسان بالتبرم نواحي حياته، عندما يرى الجو الاجتماعي المحيط به يغلب عليه طابع التزلف والنفاق، وأن كل فرد يحاول من خلال السلوك التبريري الجديد ـ الذى ظهر من خلال ضغوط الجوانب المادية ـ أن ينقذ نفسه ويحقق مآربه، ولو على رفاق الآخرين، دون وجل أو ندم.

* يشعر الإنسان بالتبرم عندما يفقد الإحساس بالحياة، ويرفض الإقبال عليها بوجه عام فيبدو مكدودًا ثقيلاً مهمومًا، وينعكس هذا الشعور على تصرفاته، فيحيلها إلى تجمعات سلوكية غريبة فى أطوارها ومثيرة فى انعكاس أفعالها على الآخرين، فى الوقت الذى لا يشعر صاحب الشعور المتبرم أنه يؤدى الآخر، أو ينال منه.

وإذا كان هذا الشعور المناهض للرضا قد أوضح معالمه من خلال النقاط السابقة وأعلن عن صيغته القائمة.. فإن علاج التبرم لايتم إلا من خلال العناصر الآتية:

١- إعطاء الإنسان الفرد الفرصة لكى يطلق القوى الحبيسة فى ذاته، سواء كانت حاجات عضوية أو نفسية؛ لكى تتوحد لديه هذه القوى، فيصير قوله مواكبًا لفعله ووجدانه، موازيًا لفكره وإحساسه، معبرًا عن إنسانيته.

٢- العمل على مساعدة الإنسان لتحقيق رسالته.. تلك التى تعتمد على دعوة يقدمها للحياة بحب وتفاعل ومودة، من خلال المشاركة الفعالة والتفاعل السليم، الذى يمكنه من تأكيد ذاته والإحساس بقيمته.

٣- الابتعاد عن الخصال غير الحميدة التى تحاول بقدر المستطاع ـ كلغة جديدة ـ لروح العصر الذى نعيش بين جوانبه ـ التى محصلتها الكراهية والحقد والحسد ـ والتى تنعكس على النفس بشعور التشتت والتوتر والضياع والتبرم.

٤- على الإنسان أن يهذب سلوكياته ويدافع عن قيمه وأخلاقه، مهما كانت نداءاته المادية عالية الصوت صاخبة الإيقاع، ومهما أعلن أصحاب السلوك المنافق المتزلف عن مدى نجاح سلوكهم فى إحساسهم بالرضا، فإن عليه

واجبًا أن يقضى على النفاق والكذب والخداع والتضليل والتبرير والتملق والجبن وعدم الالتزام بالوعد، وعدم الاعتراف بالحق والتنصل من أداء الواجب. . .

هذا هو الشعور الجديد للإنسان الذى يريد لنفسه أن يكون راضيًا بعيدًا عن الإحساس بالتبرم. . ذلك الإحساس الذى عملت على انتشاره عوامل كثيرة صنعها الإنسان الفرد بنفسه، فى غفلة من المبادئ الأخلاقية، وتحت نشوة التملق بالماديات. . ومن يتعلق بأحبال الماديات فقط. . فقد تعلق فى الهواء وهو ممسكًا بأحبال واهية.

• البهجة فى مقابل «العكننة»:

نميل فى غالب الأحوال إلى نقد الذات ومحاولة وضع النفس أمام مرآة النقد العجيبة التى تعانى من كسر فى بعض جوانبها، فلا يرى الإنسان إلا صورة معوجة وتكوين متكسر غير متوافق. . . ومثل هذا الشعور الغريب قد رأى بعض المتخصصين فى مجال تأصيل الخصائص النفسية للشعوب بأن الروح العامة التى تميزنا هى روح الفكاهة والدعابة والبهجة، إلا أن هذا الشعور يواكبه ضرب من ضروب «العكننة» أو الميل إلى إيذاء النفس، وتغليفها بغلاف قاتم رهيب من هذه «العكننة»، والذى يحيل هذه البهجة إلى شعور قاتم وتعاسة وحزن!!

والحق يقال:

إن أخلاق أى شعب لاتتميز على أخلاق شعب آخر؛ لأن الظروف الموضوعية المتراكمة عبر التاريخ، والتى مر بها هذا الشعب تختلف عن ظروف هذه الشعوب الأخرى موضع المقارنة.

ولعل هذا ما يدفعنا إلى أن نعيد النظر فى أمر هذه القسوة القطيعة، التى تجعلنا نقسو على أنفسنا بضراوة، دون أن نتفهم الأبعاد الموضوعية لتلك الأحكام القاسية، والتى تجعلنا نفرط فى توجيه هذا اللوم وذلك التأنيب. . . ولابد من أن نتفهم الأبعاد الموضوعية لتلك «العكننة» قبل أن نوجه هذا اللوم، وقبل أن نقف

أمام أنفسنا تحت وطأة هذا الشعور الناقد والقاسي في ضراوة في لوم أنفسنا، علينا أن ندرك مدى تأثير العوامل المعاكسة التي تعرضنا لها عبر التاريخ، وكيف استطعنا مواجهتها وما أثرها على نفسيتنا؟

وإذا كان الضحك علامة من العلامات المعبرة عن البهجة؛ حيث نجد الشخص البالغ قد يضحك وهو يستحم في البحر، أو حينما يهبط بسرعة من فوق جبل عال تعصف به الرياح، فإن هناك بعض الجوانب الحضارية كما يرى (يونج)(*) أيضًا قد عملت عملها في الضحك، فأصبح له من الدلالات الاجتماعية والمعاني العقلية ما جعله يفقد رونقه الطبيعي (العقل)؛ لأننا بفعل هذه الجوانب الحضارية وما يصاحبها من (بروتوكولات) (وأتيكيتات) ومراسم وحيثيات.. قد أصبحنا نضحك للتعبير عن شعورنا بالرفاهية أو الراحة أو السعادة.

والواقع أن شعورنا «بالعكننة» قد يأتي من تلازم مجموعة من العوامل فتضغط على الإنسان وتحرمه بهجة الحياة وحلاوتها، ومن هذه العوامل التي قد تساعد على انتشار «العكننة»، عندما يصير حديث الأفراد عن انتشار ظاهرة عدم الاهتمام بالمصلحة العامة للمجتمع الذي نعيش بين جوانبه، وهذا الوطن الغالي الذي يظللنا بسماؤه ويروينا بنيله العذب.

* تزداد العكننة عندما يرى الأفراد أن قدراً غير قليل من عيوبنا الأخلاقية راجع إلى انتقال عدوى القدوة السيئة؛ بحيث تتسلل هذه العدوى تدريجيًا إلى المستويات العليا في المجتمع مروراً بالمستويات الدنيا.. فتجمع بين هذا وذاك(**).

* تتجلى «العكننة» في أبشع صورها، من خلال أسلوب النفاق والمجاملة والتطرف والذي يظن البعض ـ وهم واهمون ـ أن هذا السلوك سوف يعود

(*) Young, Cf. K.: "Personality and Porblems of Adjustment". London Kegan Paul and Routledge. 1952, 2ed., p. 66.

(**) تطالعنا الصحف السيارة بأخبار عن اختلاس مسئول لمبلغ ضخم من المال، ويكون هذا المسئول راعيًا لمصرف أو بنك فيتأكد المثل «حاميها حراميها».

عليهم بالمنفعة ويجلب لهم البهجة، إلا أن هذا السلوك يؤدى إلى «عكننة» المنافق و«عكننة» الآخرين، الذين يتعامل معهم، والذين يشاهدون نفاقه ويراقبونه بعين النقد والاستهجان.

* وتستمر «العكننة» فى الظهور كملمح من ملامح الانفعال، الذى يعبر عن عدم الارتياح وانعدام البهجة عند البعض، أو عندما يشيع سلوك قلة الذوق، وانعدام الشهامة والمفهومية، وينحسر سلوك الأدب والخشية والحياء، ذلك الذى تحاول مجموعة العلاقات الاجتماعية الجديدة أن تطيح به وتقضى عليه، من خلال تبادل المنفعة، والغاية تبرر الوسيلة «واللى تغلب به العب به» «واللى يتجوز أمى، أقوله يا عمى».

* وتتلاشى البهجة أيضًا من مواجهة «العكننة» التى تأتى من عدم قدرتنا - فى بعض الأحوال والظروف والملابسات - على أن نفصل بين الأهداف الشخصية بما فيها من أطماع وجشع، والعمل الذى يفترض أن نقوم به ابتغاء مرضاة الله بموضوعية وأمانة، بعيدًا عن المصلحة الشخصية من عوامل ذاتية... دون أن نضع فى اعتبارنا أن هذا البلد الذى نعيش فيه، وهذا الوطن الذى يحتضننا بين جوانبه ليس ملكًا لفرد أو مجموعة أفراد، ولكنه وطن الجميع، وأن الذى يعمل بجد واجتهاد وأمانه وموضوعية وكفاءة هو ذلك الذى يرعى مصلحة الآخرين، قبل أن يحقق مصلحته الشخصية.

* ومن عوامل «العكننة» أيضًا أن هناك من لا يستطيع أن يفرق بين التفكير النظرى والتفكير الفعال؛ حيث يكثر الكلام وتكثر الوعود الوردية ولاتتحقق الكلمات ولا الوعود فى واقع التنفيذ، ولعل هذه المشكلة هى التى جعلت هؤلاء البعض يعيشون على اجترار هذه التصورات الشكلية واللفظية، دون النفاذ إلى تفاصيل الموضوعات والتخطيط السليم الفعلى، المعتمد على إجراءات منهجية فى تنفيذها(*).

(*) ارجع إلى: سيد صبحى - وجهة نظر فى بناء البشر - مجلة الفكر المعاصر - يونيو ١٩٧١، العدد ٧٦ - ص. ص ٥٣ - ٥٤.

* وتظهر ملامح «العكننة» بجلاء ووضوح من خلال هذا السلوك السلبى، الذى يجعل صاحب «العكننة» (إذ صح هذا التعبير) يميل إلى الانسحاب وعدم المشاركة الفعالة، ويصاب بضرب من ضروب الإهمال المتعمد والمقصود؛ لأنه يرى أن الذى يعمل يجد هو نفسه الذى لا يقدر، وأن الذى لا يعمل «ولكنه يستخدم أسلوب التزلف للوصول» يرقى ويتقدم(*).

ومن هنا لا يهتم بمصالح وطنه ولا يكترث بمشكلاته ولا يتعاون فى حلها؛ لأنه لا يرى البهجة إلا فى عيون وقحة سمحت لنفسها أن تأكل هى فقط، دون مراعاة لعيون الآخرين تلك التى تلمع فيها دموع الحرمان!!

والذى يمكن أن يقال فى أمر «العكننة» وما أدى إليها من عوامل، أن هذا الشعور من الممكن أن يخفف وتقل حدته عندما تتغير طرائق التفكير لدينا، وتعتمد على المنهج السليم الذى يعتمد على الأصول الواضحة، وعندما نتخلص فى ثقافتنا من اتجاهات تقديم الالتماسات والرجاءات، وأن نبتعد عن أسلوب الإزاحة والإسقاطات.. ذلك الأسلوب الذى بدأ ينتشر عند البعض، وكانت نتيجة انتشاره «تمييع» المسئولية وتبرير الأخطاء، أو أن أداء العمل يتم طمعًا فى ثواب أو خوفًا من عقاب.

• جبر الخاطر فى مقابل كسر الخاطر:

حين يصبح الجو العام الذى يسود أى مجتمع من المجتمعات، هو جو الكفاح والحرص على الحصول على ما يشبع الحاجات، وكل ما من شأنه أن يجعله متقدمًا، فإن الروح العامة لهذا المجتمع تتضح من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية، التى تسودها المنفعة المتبادلة بحكمة وموضوعية، وثقة وطيب خاطر.

وجبر الخاطر هنا معناه أن الإنسان يحتاج فى تعامله مع الآخرين إلى ضرب من ضروب الوصال، الذى يجعله يتعامل وهو آمن مطمئن إلى أن هناك قدرًا

(*) انتشرت القضية الإدارية التهكمية الآتية: من يعمل كثيرًا يخطئ كثيرًا فيعاقب، ومن لايعمل لايخطئ والمكافأة له.

مشتركًا من التفاهم والتفاعل والتعاون، ومن هنا كان «الجبر الخاطر» دلالة أخلاقية(*). أما ما نعنيه من استخدامنا لمصطلح «كسْر الخاطر»، هو تلك النظرة السلبية إلى الغير حيث يتجه الإنسان الذى يميل إلى «كسر خاطر» الآخر عن طريق الامتناع عن تقديم المعونة وقت الحاجة إليها، أو عن شعوره السلبى نحو زميله، عندما يلتجئ إليه، طالبًا مكرمة، وهو يرى عندما قرر الالتجاء إليه أنه فى استطاعته أن يقدمها له فوراً.. ولكنه يتقاعس، ويتكاسل فتخبو جذوة الصديق... وتهون عليه الأمور وتضيق أمامه السبل، ويشعر بانكسار داخلى... والم دفين!!

وكثيراً ما نجد هذا الإنسان المشوه فى عواطفه (إذا صح هذا التعبير) والقاسى فى تصرفه، يميل إلى إلحاق الضرر بالغير، أكثر مما يميل إلى تأكيد ذاته من خلال تفاعله مع الآخرين بمودة وحسن معاشرة، بعيداً عن عوامل الحقد والحسد والاحتقار. وكثيراً ما نجد هذا الإحساس بانكسار الخاطر، من خلال استعراضنا لبعض فئات المجتمع الذى نعيش فيه؛ لنوضح كيف أن «كسر الخاطر» يتم عندما لا يشعر الإنسان بأخيه الإنسان، ويفر المرء من أمه وأبيه، ويبحث لنفسه فقط عن كل ما من شأن أن يحقق مصلحته الشخصية.

ويتجلى الشعور بكسر الخاطر عندما نرى:

* الفلاحين يشعرون بأن مجتمع المدينة هو المجتمع، الذى يحظى بالخير كل الخير، وأن مجتمع الريف لا يملك إلا أن يبعث بخيراته إلى ذلك المجتمع المتقدم، أما أصحاب المجتمع الريفى فهم أولئك الذين ينتظرون أهل المدينة... ويا حبذا لو كان مجيئهم مدعمًا بكل ما تقدمه المدينة من معطيات حسية، لها مذاقها الحلو المتحضر(**). وبطبيعة الحال.. فإن مثل

(*) كثيراً ما نسمع المرشد والمصلح يقدم نصيحته، من خلال استخدام «جبر الخواطر على الله»، وكثيراً ما نسمع دعوة الأم الحانية لابنها، وهو ذاهب إلى أمر يقضيه «ربنا يجبر بخاطرك».

(**) كثيرًا ما نسمع عن وصايا بعض أهل الريف لكل قريب ينزل إلي المدينة؛ ليحضر لهم وهو عائد بالسلامة «الحلاوة الطحينية ـ وحلاوة المولد ـ بل وعليه أمانة إحضار بعض أرغفة الخبز الإفرنجى»!!

هذا الشعور، وهذا الانتظار الشغوف لأهل المدينة قد جعل كسر الخاطر من الأمور الواردة بالنسبة إليهم؛ خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار ذلك الشعور، وهذا الانتظار المتكبر عند البعض من أهل المدينة، والذى يجعلهم يترفعون على أهل القرية ويعلنون عن غطرستهم، من خلال محاولة تجنبهم، أو التهكم والسخرية منهم، إما من خلال النكات البذيئة التى تصفهم فى أغلب الأحوال على أنهم فى مستوى أدنى منهم لقلة حيلتهم أو عدم كفاءتهم، أو لأنهم يرون من خلال الإطار الحضارى، الذى يلف بأسواره جوانب المدينة أن عقولهم فى مستوى أعلى من عقول هؤلاء القرويين!!

* ويتجلى كسر الخاطر بالنسبة لطبقة العمال، فعلى الرغم من أنهم قد حصلوا على حقوقهم، وتحسنت أحوالهم.. إلا أننا نجد أن النظرة إليهم لم تعد هى نظرة «جبر الخاطر»، بقدر ما أصبحت هى نظرة كسر الخاطر؛ فمهما كسب العامل أو نشط.. فإن هناك ضربًا من ضروب الحساسية، التى تجعل نظرة البعض من ذوى الياقات البيضاء ينظرون إلى هذه الطبقة نظرة ملؤها التقليل من شأنهم، أو التهكم عليهم؛ الأمر الذى جعل المغالاة فى أجورهم، أو التندر عليهم عندما يحتاج ذوو الياقات البيضاء إلى خدماتهم، وكأنهم يقولون لهم: «إن بيننا وبينكم هدنة مؤقتة لاستئناف الحرب فى أى لحظة من اللحظات»!!

وبطبيعة الحال.. فإن مثل هذا الإحساس بالدونية، هو السر وراء غلاء تقديراتهم إذا عملوا عملاً، أو عندما يصطدم بهم شخص؛ خاصة من المتعلمين، أو بلغة الرمز من ذوى الياقات البيضاء.. فإننا لنجدهم تحت وطأة هذا الإحساس يتخبطون فى معاملاتهم، ويسترون بغلالة المكاسب المادية، تلك التى تجعلهم أمام مرحلة التقويم المادى فى موقع مرموق؛ خاصة إذا قورنوا بما يدخل على ذوى الياقات البيضاء من عوائد وفوائد وماديات، فى شكل رواتبهم النحيلة أمام تضخم رواتب العمال، ومهما كانت وظائفهم مرموقة.

* أما الطلبة.. فإن كسر الخاطر يتجلى فى ما يحيط بهم من أنظمة مضحكة،

سواء كانت في شكل مناهج ومقررات دراسية، أو ما يحيط بهم من نظم إدارية، تراقبهم بحذر وتربص، تمنعهم عندما يعبرون، وتؤيدهم عندما لايفهمون بوعي وأصالة أمورهم ومشكلاتهم؛ فالنجاح يعتمد على الدروس الخصوصية، والذى يملك المال يستطيع أن يستأجر المدرسة ويحولها إلى منزله.. في شكل هذه الفضيحة الجديدة التي يعانى منها نظام التعليم، وهى فضيحة انتشار الدروس الخصوصية بهذا الشكل التعسفى الضاغط؛ مما يجعل بعض الطلاب غير القادرين يشعرون بصراع نفسى مؤداه:

* إننى أريد أن أحسن موقفى، وأعمل على زيادة كفاءاتى، ولكن تمنعنى المادة وقلة المال من ذلك... إذًا لايمكن أن أشعر بأن خاطرى مجبور، وتكون أننى لهذا العوز الذى أعانيه أفقد مستقبلى شكلاً ومضمونًا، في الوقت الذى فيه ينعم القادرون بالنجاح، ويتمتعون بشراء «ذمم بعض المدرسين»، ويستأنسون بالمال ضراوتهم وقسوتهم، ويحصلون من خلال هذه الدروس على الدرجات، دون فهم أو تحصيل(*) أو حتى انتظام في العمل المدرسى، فلماذا أنتظم وقد انتقلت المدرسة برمتها إلى بيتى!!؟

* وجاء دور المثقفين ذلك الذى جعل الداء مستفحلاً، وساعد بفضل مناشطهم الزائفة على انتشار (كسر الخاطر)؛ فهم أصحاب الذكاء وغيرهم ممن سواهم أغبياء، وهم أصحاب التمييز من خلال معارفهم وعلومهم ودرايتهم بالأمور «والبروتوكولات»، ومثل هذه الأنشطة التى يقومون بها يغلب عليها الطابع النظرى، أو اللغو اللفظى الفارغ، ومن هنا فإن «كسر الخاطر» بالنسبة لهم لايعنى شيئًا؛ فلغة الوجدان اليوم بالنسبة للمثقفين، لم تعد هى اللغة السليمة، بل ضاعت في زحمة لغة المنطق المادى والتكنولوجى، بما فيه من

(*) لقد أصبحت الشكوى الآن في كل بيت (فيه تلاميذ) أو طلاب صارخة لهذا الانتشار العجيب لهذه الدروس، إلى درجة أن هناك من التلاميذ والطلاب من يستأجرون الأساتذة من إجازة الصيف؛ حرصًا على المجموع «خاصة في الشهادات»؛ مما يجعل غير القادر يشعر بكسر الخاطر.

تقدم حضارى، يجعل غيرهم من الفلاحين والعمال والطلاب وكل الفئات الأخرى يشعرون بغضاضة، تدفعهم إلى الكره والحقد والجمود(*).

• «العشم» فى مقابل «الجفاء»

عندما يشعر الإنسان بأن الأفراد الذين يتعامل معهم يسيئون فهمه، وأنهم لايقدرونه وأن العالم ضده، فإن هذا الإنسان يشكو من الجفاء فى المعاملة، فلايملك إلا أن يفكر فى الماضى ويتأمل ما فات من أحداث، ويستمر اجتراره للخبرات الماضية، فيفرزها ليخلق من هذا الإفراز شرنقة، تحجبه عن الممارسة الحقيقية للحياة وأداء الأدوار السليمة؛ اعتماداً على هذا الجفاء الذى يسود مناخ العلاقات ويخيم عليها.

وإذا وجدنا فى الحياة التى نحياها أن «العشم» قد قل، وأن الجفاء أصبح هو السلوك السائد.. فإن شبكة العلاقات الإنسانية تتهتك وتتقطع، ويصبح كل فرد لايرى سوى مصالحه، ولا يسعى إلا لإنجازها فقط؛ الأمر الذى يجعلنا نحدد ما الذى نقصده «بالعشم».

«العشم» فى دراستنا هو ذلك الإحساس الوجدانى، الذى يترجم من خلال سلوك الأفراد على أرضية من المودة والمحبة الخالصة، يلعب فيه الإيثار دوراً مهمًا، وتتضاءل أمامه كل عوامل الأنانية والأثرة.

وجدير بالذكر أن هذا الإحساس الإنسانى القويم يتجلى من خلال ما نشده عند القليل من أهل «العشم»(**)؛ حيث نرى التعاون بين الناس - والحرص على الجيران، وإغاثة الملهوف، من خلال المساعدة الفورية المبنية على الشهامة والأريحية.. فالجيران يقدمون للأسرة المجاورة المساعدة عند وقوع حالة وفاة، وعند إنشاء مسكن... وعند حالات المرض، وفى إعداد جهاز العروس... كما

(*) يلاحظ مدى انتشار النكات السخيفة والبذيئة على بعض (فئات)؛ بقصد إعلان هذا الاستعلاء المرضى من قبل بعض المثقفين.

(**) نستخدم هذا التعبير ونحن نؤمن أن الدنيا مازالت بخير، وأن عوامل الشر وما يتعلق بها من ماديات مهما ارتفعت بطريق الخطأ.. فإن الخير سوف يعمل على إسقاطها من سماء الرفعة والسمو.

يعير بعضهم البعض شتى الأشياء، ابتداءً من النقود حتى أدوات المنزل، والمواد الغذائية . .

وتتجلى هذه الصور فى مجتمعات القرية، فنجد أن جماعة الجوار فى بعض الأحيان تنظم عملية إعداد الخبز؛ بحيث لا تحتاج كل أسرة إلى إشعال فرنها فى كل مرة تحتاج فيها إلى إعداد شىء(*).

ويلاحظ الآن أن التطور الذى أصاب صور التعاون بين جماعات الجوار، قد بدأ يتغير، ولم يعد هناك ـ اعتماداً على الجفاء ـ تلك الرابطة الشخصية الوثيقة التى كانت تؤلف بين جماعة الجوار فى الماضى. وإن كانت لازالت موجودة بدرجة طفيفة بين جماعة الجوار فى بعض الأحياء الشعبية فى المدن الكبرى، أما فى الريف . . فإن هذه الظاهرة موجودة بدرجة حتى الآن، وإن كنا نسمع أيضاً شكوى بعض كبار السن من أن الناس قد أصبحت هذه الأيام «قليلة الخير» شديدة الحرص على المادة، تفكر ألف مرة، قبل أن تمد يد المعونة إلى الجار أو المحتاج!!

ومن هنا تتدخل بعض العوامل؛ لكى تحدث هذا الجفاء، الذى على هيكله تذبح النفوس المحتاجة، وتهان الأفئدة المتطلعة إلى روح التفاعل والوصال.

* يتطلع الإنسان دائماً إلى أصحاب السلطة الذين يحققون له منفعة فيهتم بمطالبهم ويسعى إليهم، بل ويضحى من أجل رضاهم، ويتمسح فيهم حتى يحقق مآربه(**). . . بل وقد يعانى ـ إذا كان لديه شعور ـ من تحقيرهم له وتحكمهم فيه. . . ومن هنا يكون الجفاء بالنسبة للمحتاج، والوصال لمن لايحتاج.

(*) ارجع إلى: الدكتور سيد صبحى: القهومية: دراسة سيكولوجية من خلال الأمثال الشعبية المصرية، دار التقدم، ١٩٧٨، ص ٢٦ .

(**) فى أمثالنا الشعبية مثلا يؤكد ذلك: «طلب الغنى شققة .·. كسر الفقير زيره».

ويقول أيضاً: «إذا لقيت الفقير بيجرى .·. يبقى بيقضى حاجة للغنى».

* فقدان الأمان يجعل الجفاء أسلوبًا من أساليب المعاملة.. فعندما يفقد الإنسان إحساسه بالأمن والأمان في عمله وعلى نفسه، فلا يملك إلا أن يدارى مرة ويرائى مرات، وهذه الرذيلة يستخدمها بعض الناس وسيلة للنجاح فى الحياة، وهى قد تبدو طريقة وذريعة نافعة عند البعض، بل وهناك فعلاً من نجحوا فى استخدام «الزيارات - وتقديم الهدايا والقرابين - والتمسح و«التمحك» فى أعتاب ذوى النفوذ».. فما كان منهم إلا أن ساعدوهم؛ اعتمادًا على خفة ظلهم ومرونتهم، بل وذكائهم الاجتماعى «هكذا يسمونهم»، على أن يرتقوا ويحصلوا على كل ما يتطلعون إليه، دون النظر إلى الكفاءة الحقيقية أو القدرات الأصيلة... أما ذوو الكفاءات العالية، فهم ثقلاء الظل؛ لأنهم لا يعرفون من أين تؤكل الكتف!!

وبطبيعة الحال.. فإن هذا السلوك غير السوى هو الذى أسهم الآن فى ضياع «العشم»، كوجدان أصيل يتشرب القيم الرفيعة، ويرتوى بها ويعمل على هداها؛ لأن الذى يرضى أن يبيع نفسه عمدًا ليشترى قوتًا يعيش به أو وظيفة يفخر بها، لا يمكن أن يكون إنسانًا يمثل ما يتوقعه الله منه من خلق وفضيلة، ولا يكون حافظًا للصورة التى خلقه الله عليها صورة الحرية، والإرادة والوصال الوجدانى بينه وبين الآخر... فالرياء سبب الجفاء، وهو مرض من أمراض النفس.. ذلك المرض إذا لم نتنبه إليه تتضاعف أعراضه شيئًا فشيئًا، حتى تموت فى النفس البشرية خاصية الأريحية، وتضيع منها نخوة القيم، وما تدعو إليه من مبادئ وأخلاق وأصول.

* الخوف من الفقر والعوز يشكل الجفاء؛ على اعتبار أن هذا الإحساس يتكون عند البعض، من خلال عملية التطبيع الاجتماعى... تلك العملية التى تتشكل من خلالها شخصية الإنسان الفرد، ويتزود بالقيم والاتجاهات ومعانى الخطأ والصواب، ومن هنا نجد أن بعض الأسر تحاول أن تجعل علاقات أبنائها تشابه تلك العلاقات، التى كانت بين الفرد وحاكمه إبان عهود الاستبداد... فيها أسلوب الشك وفقدان الثقة - فيها القوة الغاشمة

التى تسلبه حقه فى المعيشة الحرة التى يبدى فيها رأيه... والحياة الكريمة التى تمكنه من تعود العطاء.

ولعل السبب فى ارتباط البعض بأسرهم بصورة غير سوية (تظهر عند سفرهم إلى الخارج)، وتظهر من خلال الخوف الشديد الذى يتملك هؤلاء البعض؛ لأنهم خرجوا مرة واحدة إلى العالم شأنهم شأن الطائر الذى خرج إلى الفضاء، دون أن يتمرس على الطيران!! هذا الاستلاب للشخصية قد جعل «العشم» يقل، ويحل محله الجفاء بضراوته وغضبه، ويصبح الجفاء خصلة من خصال النفس المريضة، وأن الإنسان الذى يعامل الآخر بجفاء... فإنه يزرع بذور الضغينة ويقطع بينه وبين الآخر حبال المودة والتفاعل والمحبة.

والملاحظ أن سلوك «العشم» الذى نتطلع إليه يحتاج إلى تدريب وتخطيط؛ لكى يقوم بين الأفراد قدر مشترك من المحبة والألفة، بدلاً من أن تصير العلاقات علاقات مشاحنة، يأكل فيها الصغير الكبير لقلة أدبه، ويبطش الكبير بالصغير لعدم مروءته وفظاظته!!

• «الدردحة» فى مقابل «العشم»:

وفى سبيل الحصول على الرضا، نواجه المواقف ونحتار فى بعضها لصعوبتها وغموضها ونفهم البعض الآخر، وما نحتار فيه إما أن يكون غريبًا علينا، أو يمثل قيمًا جديدة، أو يعلو على قدراتنا «هذا إذا كنا على درجة كبيرة من الموضوعية فى تقويمنا للأمور».

أما عندما يتحول الإنسان إلى شخصية، يغلب عليها الادعاء فى تصرفاتها وتصنع الحكمة وعلو الهمة، فإن هذا التصرفات السيكوباتية يطلق عليها دون فهم للأمور «تصرفات مدردحة»، والمقصود هنا أن الشخصية المدردحة هى تلك التى تستطيع أن تتصرف بفهلوة وذكاء وحسن تصرف.. «أليس «الفهلوى» هو الذى يستطيع أن يخالط الجن الأحمر، ويعايش فى الوقت نفسه ملائكة السماء

والأرض، دون أن يجد فى ذلك غضاضة، أو دون أن يتطلب هذا منه جهداً جهيداً؟»(*).

ويتميز الشخص «المدردح» الذى يشعر بهذا الرضا المزيف بقدرته على التكيف السريع، اعتماداً على مرونته وفطنته وقابليته للهضم والتمثل للجديد، فنراه عليمًا بكل شيء «هكذا يدعى»، ومسايراً للأمور بسطحية لكى يغطى الموقف، ولايرتبط ارتباطًا حقيقيًا بما يقوله أو بما يلتزم به من تصرفات، كان قد أخذ على نفسه عهداً بتنفيذها.. وهذه الشخصية التى يميل إليها الآن معظم الشباب لاتتحمل المسئولية، ومن هنا ـ واعتماداً على الثقة الزائدة لدى هذه الشخصية دون أن تعتمد هذه الثقة على أصالة أو قدرات حقيقية ـ فإننا نجدها تعامل الأمور باستهتار، وتهكم على الغير أحيانًا. وفى ادعاء القدرة البارعة على حل الأمور فوراً، وكذلك فى القدرة على التخلص من المآزق، كما تخرج الشعرة من العجين!!

والغريب فى أمر هذه الشخصية «المدردحة» ـ أنها تنال إعجاب الكثيرين، بل وهناك من يضرب بها المثل، عندما تظهر المشكلة التى تحتاج إلى حل رصين وفكر واع بحيث لا يقوى عليها هذا «المدردح»، ولكنهم لفرط إعجابهم بسرعته وحيله المزيفة يتذكرونه فى كل المواقف، وهم فى حسرة إذا صعب الحصول عليه، أو فى لهفة التشوق إلى سماع رأيه السديد، عندما يأتى ومعه الحلول الواهية المعتمدة على المسكنات الموضوعية فى شكل التزييف والوصولية!!

أما الشخصية «الغشيمة» فهى تلك التى لا تتميز فى نظر المعجبين بسلوك الدردحة أو المرونة وخفة الظل، وأنها تميل إلى تصعيب الأمور من خلال التدقيق والتمحيص، وأنها لا تتسرع فى الحكم، وتتحكم القيم فى كل تصرفاتها وأفعالها؛ مما يجعلها فى موقف جامد أمام، أولئك الذين يتطلعون فقط إلى

(*) حامد عمار: فى بناء البشر ـ مطبوعات مركز تنمية المجتمع ـ ١٩٦٠ ـ ص ٨٤.

سلوك الدردحة وتشهيل الأمور؛ حتى ولو كان ذلك التشهيل على حساب القيم والأصول المعرفية السليمة.

وبطبيعة الحال وتحت وطأة هذا التمييز العجيب بين «المدردح» و «الغشيم»، يشعر الشخص الذى اتهم هذه التهمة ـ تهمة الغشم ـ بأنه غريب عن نفسه، وغريب عن الآخرين وأن أطواره وتصرفاته غريبة هى الأخرى.. فيشعر بالإحباط، ويخسر المعارك من خلال مروره ببعض المواقف، التى تقابله فى حياته الاجتماعية، فهو لا يعرف الرقص بأنواعه من «تانجو وديسكو وفالس»، ولايعرف ألعاب القمار، ولا التصرفات الشاذة، ولم يحتس الخمور فى حياته، ولن يحتسيها لإيمانه(*)، ولا يوافق مهما كانت الظروف والأحوال أن يخرج على هذه المبادئ... كل هذه المواقف قد تجد بعض الاستحسان من جماعة المدردحين ومن على شاكلتهم، ولا تمثل قيمة عند «الغشيم». ومن هنا كان على هذا «الغشيم» أن يتمسك بولائه لقيمه وإيمانه بها، وأن يسعى مهما جذبته عوامل «الدردحة» إلى ما يجعل هذا الولاء للقيم على أعلى درجة من الفهم والوعى والتمسك الموضوعى بها.

فالولاء هو الأمر الوحيد، الذى يخلع معنى على كل جوانب حياتنا، وهو بمثابة الإخلاص، الذى ينبغى أن نحيا من أجله فهو الذى يعطى السبب الكافى لتبرير الحياة التى نحياها؛ لأنه يخلع على كل تصرف قيمة معينة نابعة من الإيمان العميق بمبادئ الدين... تلك المبادئ التى يراها أهل «الدردحة» تقف حجر عثرة بينهم وبين إشباعاتهم الحسية الغريزية.

فإذا كان «الغشم» يعنى التمسك بالقيم، والدردحة هى سلوك السرعة واللهفة والتفريط فى القيم.. فإن الرضا يجد طريقه مع الغشم، أكثر مما يجده مع سلوك الدردحة بما فيه من زيف وخداع وسرعة ولهفة.

(*) انتشار الحبوب المخدرة أو التى تؤدى إلى الهلوسة خير دليل على انتشار سلوك الدردحة المزيف بين بعض الشباب.

خامسًا: الحب وبهجة الحياة:

يستشعر الإنسان ضربًا من الراحة النفسية يصاحبها ذلك الشعور الجميل، الذى يحسه الإنسان الفرد، عندما تقوم حياته العضوية بوظيفتها السوية، هذه الراحة تأتى من سلامة التعامل مع الجزئيات ودقة التفاعل مع مكونات الجسم، وصفاء النفس التى تحرك سائر الأعضاء فى هدوء وراحة ووئام.

والحب يمثل قمة الانفعالات البشرية، التى يمر بها الإنسان لما يحتويه من شحنات وجدانية تنطوى على خبرات ومواقف وأحاسيس تواكبها انفعالات هى مزيج من الغبطة والسرور والسعادة. ولكن هذه التجربة الشاقة المجهدة تستلزم بالضرورة هذا السياج المتين، الذى نتطلع إليه عندما نتكلم عن الحب، وما يصاحبه من انفعالات؛ وأعنى بهذا السياج المتين «الوفاء»، فمشكلة الحب أن المحب يضع كل ثقته فى المحبوب. . . وينتظر حصاد هذه الثقة، من خلال الوفاء الذى يعنى الاستمرار ويعبر عن الالتزام والثبات على المبدأ.

وما أقسى أن يستشعر الإنسان ـ من الناحية النفسية ـ فى لحظة أنه كان مخدوعًا، أو أنه قد وقع ضحية لضرب من الخيانة أو عدم الوفاء، وليس أقسى على النفس البشرية من أن تتحقق يومًا من أن كل الآمال التى نسجتها وزرعتها فى أرض الحب قد ذهبت، ولم تؤت بثمارها المتوقعة. . . وأن كل ما قد عايشته من أحاسيس لايعدو أن يكون مجرد أوهام، قد كشفت الحقيقة المرة عن زيفها، وأظهرت خداعها!!

هكذا. . . لابد للحب كتجربة بشرية نفسية تعبر عن رقى الإنسان، من أن تقترن (بالإيثار) بوصفه يحول الأنانية إلى عطاء، ويبدل الجفاء إلى تعاون ووصال؛ لأن الحب الحقيقى يفسح دائمًا للآخر مكانًا كبيرًا فى أعماق نفسه، بل يضع الآخر بوعى وفهم تحت تصرفه فيتفانى فى تقديم الخدمات، ويقدم مخلصًا كل مامن شأنه أن يسعد المحبوب بتلقائية معبرة عن التفانى والثقة والوفاء والإيمان والإخلاص والتفاعل والتعاون.

وإذا كانت هذه التجربة الفريدة، التى لابد وأن يستشعر بهجتها الإنسان الفرد تحتاج منا إلى أن نعبر عن إنسانيتنا، من خلال معانى التضحية والوئام والمودة والرحمة. . فإنها فى حاجة إلى أن نبرز عناصرها؛ لكى نوضح ضرورتها وأهميتها بالنسبة للإنسان فى زحمة هذه الحياة المادية، التى ضغطت علينا بقسوتها وضراواتها فأبعدتنا إلى حين عن هذا الشعور المبهج، الذى يدفع إلى الأمل ويؤدى إلى السعادة.

• الحب والعدالة:

يمثل الحب والعدالة قيمتين وفضيلتين تمثلان بدورهما موقفين أخلاقيين، يتخذهما الإنسان نحو أشباهه من الناس، فإذا كان الحب يسعى إلى تحقيق الوصال بين الإنسان والآخر. . فإن العدالة بدورها تهتم بحقوق الآخر ومطالبه المشروعة ـ وهنا يكون اللقاء الحميم بين الحب والعدالة؛ فالحب لا يعرف الظلم، ولا يعرف القسوة، ولايعرف إضاعة الحقوق تمامًا، كما لا تعرف العدالة إلا كل مامن شأنه أن يحقق للإنسان سعادته، وفق المشروعية والالتزام بالقيم والأعراف والقوانين. . . الحب كتجربة بشرية لا يطلب سوى ذلك التفاهم الواعى والتفاعل الرشيد؛ حتى لا تصطدم الحقوق ولا تختفى الواجبات ـ فإذا عرف كل إنسان ما له وما عليه تجاه الآخر ساد الحب وسادت المودة، وشعر كل إنسان بقيمة الحياة وسعادتها.

وعندما يقترن الحب بالعدالة. . فإن هذا الاقتران مؤداه:

إننى أتجه إلى الآخر بوعى واختيار رصين، فأصبح حق الآخر أن يعامل بعدالة وحقوق التزامات وواجبات... ولعل ذلك ما يجعلنا نؤكد أن الشفقة هنا مرفوضة... فالعدالة تعطى الحقوق، والشفقة قد تطمس الحقوق ولا تجعلها براقة لامعة.

الحب لا يعرف إلا العدل. . . والعدل لا يمكن أن يسود بين الإنسان والآخر، إلا فى حضرة النفوس الصافية المحبة المخلصة، التى تعبر عن سلوكيات سوية وتصرفات أخلاقية، مشبعة بالقيم السامية الرفيعة.

• الحب طاقة وإنتاج:

من الخطأ أن نتصور الحب مجرد عاطفة، تدفع أصحابها إلى الشرود والسرحان؛ لأن الحب الحقيقى لابد وأن يدفع أصحابه إلى العمل والإنتاج، فالحب له من القوة ما يسمح للمحبين فى بعض اللحظات من أن يحققوا من الأفعال، ما لا طاقة لغير ذوى الإرادة القوية بتحقيقه(*).

وتصبح العلامة المميزة لنجاح هذه التجربة السامية بين أفراد البشر هى مدى ما تحققه من إنتاج وإنجاز؛ لأن الحب الأصيل يحشد كل مالدى الفرد من طاقات ويعبئها فى خدمة محبوبه.

وجدير بالذكر أن هذه التجربة السامية العميقة، لا تعرف الأنانية أو إضاعة الوقت أو إخضاع الغير، أو الرغبة فى الامتلاك . . . فكل هذه المظاهر تعبر عن المرض النفسى، الذى لا يرمز إلى المودة أو يؤدى إلى إيجابية العلاقات الإنسانية.

• الحب وإرادة الفعل:

وجدير بالذكر أن هذه التجربة العظيمة المعبرة عن كيان الإنسان تحتاج إلى توظيف الإرادة الخيرة، والنية الطيبة؛ فالحب لا يعرف الشر، ولا يسعى إلا لتحقيق السعادة، إذا كان مبنيًا على أصول ومودة واحترام وإخلاص وتضحية وإيثار. ومن هنا فإن العلاقة الودودة بين الإنسان والآخر، لابد وأن يسودها الحب من خلال العمل المتبادل، الذى ينطلق من الخير ويعمل على تحقيق السعادة والرفاهية للآخرين.

فالحب لايوجد إلا بقدر العمل المخلص المتبادل بين الحبيب ومحبوبه، ولابد وأن يكون هذا العمل نابعًا من قلوب متآزرة متماسكة متعاونة. الحب فى هذه الحالة يعمل على تدعيم القيم البشرية ويقوى الرابطة الوثيقة، التى ينبغى أن تكون بين الإنسان وأخيه الإنسان.

(*) كثيرًا مانسمع عن أولئك الذين قدموا أعظم أعمالهم فى مناخ من الحب والوصال الوجدانى ـ فكانت تجاربهم بمثابة طاقات منتجة وفعالة؛ فالحب بالنسبة إليهم إضافة جديدة، دفعتهم إلى العمل.

• الحب والشعور بالألم:

وإذا كنا قد عرضنا بإيجاز لهذه التجربة النفسية العميقة، التى يستشعرها الإنسان. . فإن هذا الشعور وما يصاحبه من سرور وبهجة قد نجده لا يخلو فى بعض اللحظات من آلام، بل ولعل هذه الآلام ومرارتها تعطى طعمًا حلوًا، يضفى على العلاقة قيمة من شأنها أن تقويها إذا كانت مخلصة، فكثيراً ما تذرف الدموع لتصاحبها راحة نفسية.. ولعل هذه هى البهجة الحقيقية فى أمر هذه التجربة الفريدة السامية؛ فالألم الذى قد يظهر على المسرح، إنما يعبر عن ذلك الشعور الفياض، أو يوضح تلك الأحاسيس الصافية لقلوب راقية نابضة بالحياة. وإذا كنا لاننكر قيمة الخبرات السارة فى حياة الإنسان ودورها فى تعميق إحساسه بالحياة. . إلا أننا لا نستطيع أن نغفل هذا الدور، الذى تؤديه مشاعر الألم، التى قد تظهر كسحابة مشبعة بقطرات المياه الباردة فى ليلة عاصفة!!

والحق يقال:

إن تناول هذه التجربة النفسية العميقة يحتاج منا أن نقول حقيقة مهمة مؤداها: **أن الانفعالات المصاحبة لتجربة الحب تحتاج إلى تغليب حياة العقل والنظام على حياة العاطفة، التى قد تخرج على السائد المألوف.. أو تبتعد عن الإطار، الذى يجعل من الحب دافعًا للإنتاج والإنجاز والعمل الصالح.**

◆ البعد الديني والصحة النفسية

- القرآن الكريم مصدر للصحة النفسية
- الشخصية السوية من وجهة نظر القرآن الكريم

القرآن الكريم مصدر للصحة النفسية:

قد يكون من نافلة القول

إن علماء النفس حينما يتناولون الشخصية الإنسانية بالدراسة.. فإنهم غالبًا ما ينظرون إلى الموجود البشرى نظرة شمولية؛ بمعنى أن الفرد الإنسانى يعمل ويستجيب ويتفاعل بطريقة، تجعل كل أجهزته البدنية والنفسية تتآزر وتتناغم فى تفاعلاتها معًا؛ بحيث تحدد سلوكه وتشكل استجاباته، بطريقة قد تجعل كل فرد يتميز بها عن سائر الأفراد من بنى البشر.

ولقد تناول القرآن الكريم أبعاد الشخصية السوية وغير السوية، بل وتناول مجموعة من العوامل المكونة لكل من السواء وعدم السواء فى الشخصية؛ ولكى نحاول أن نفهم شخصية الإنسان من خلال الوصف القرآنى الكريم، ونقف على الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية.. فلابد لنا من أن نحدد قضية أساسية تتعلق بمنهجية الرؤية إلى الإنسان، وأن القرآن الكريم فى وصفه للإنسان من حيث أبعاده التى تميز شخصيته، قد وضع منهجًا فريدًا ينطبق فى كل زمان ومكان، بما يحتويه من أسس ومبادئ، تتضح فى العناصر الآتية:

أولا: شمولية النظرة إلى الإنسان

يعالج القرآن الكريم موضوع شخصية الإنسان بطريقة شمولية؛ بحيث لا يترك منه شيئًا ولا يغفل عن شيء (جسم - عقل - وروح حياته المعاشية، وتصوراته، وقيمه، ومعنوياته، وكل نشاطه وحركته وتفاعله مع الإنسان الآخر وكل ما يحيطه من المعطيات الحسية).

وجدير بالذكر أن الوصف القرآنى الكريم للإنسان لم يقتصر على تكامل

النظرة إلى الإنسان، وإنما يحذر أولئك الذين يتصورون وهمًا أن مذاهبهم أو نظرياتهم، التى تناولت الإنسان من الممكن تصوره جسمًا بلا عقل أو روحًا بلا جسم أو عقلاً بلا روح. . . ثم يوهمون أنفسهم بأن هذا التناول الجزئى للإنسان يجعل تصوراتهم علمية دقيقة، أو يجعلهم يدعون ادعاءاتهم المضللة بأن هذا التناول الجزئى للإنسان بالدراسة، يجعل عوامل الضبط والتحكم فى أمور الإنسان أكثر دقة وأكثر منهجية.

والرد على هؤلاء:

أن حياة الإنسان المادية لا تنفصل عن حياته العقلية وحياته الزوجية ومشاعره ومعنوياته وتبلور حقيقة الكيان الإنسانى، من خلال هذا التفاعل بين هذه العوامل السابقة؛ فالكيان الإنسانى كيان مرن متحرك لا يجمد على صورة، فهو فى حركة مستمرة لاتهدأ، ولكن هذه الحركة والقابلية للتشكل المستمر لاتفقده ترابطه وتآزره وانسجامه.

ومن هنا لابد وأن نرفض كل اتجاه أو عقيدة أو نظام يرى أنه ليس ثمة روح للإنسان أو قيم أو دين، وأن الواقع المادى والمعطيات الحسية هى الحقيقة الوحيدة، أو كما يتشدقون بشعاراتهم الزائفة (حقيقة العالم تنحصر فى ماديته) (العالم تحركه المادية الجدلية)، (الإنتاج المادى والتنظيم الاقتصادى هو أساس الحياة البشرية)، (الإنسان غريزة ورغبة لابد وأن تشبع)، وهذه النظرة الجزئية تتعامل مع الإنسان من خلال زاوية ضيقة، تفقده تكامله وتعمل على احتقاره وتؤدى إلى هلاكه.

ثانياً: طاقات الإنسان تجعله قوة فاعلة وموجهة:

هذا التكامل فى وصف الشخصية (والذى ورد فى القرآن الكريم) قد جعل الإنسان يمزج بين طاقاته كلها، ويعمل على ربطها بحيث تجعل الموجود البشرى بمثابة طاقة متسقة فعالة. فالإنسان كما يريده الله سبحانه وتعالى قوه فاعلة موجهة ومريدة وهو قوة دافعة إلى الأمام... قوة تسيطر على القوة المادية،

وتحاول بقدر مجاهدتها لهذه القوى المادية أن تهذبها وتصلحها، وتوظفها فى التعمير والبناء.

يحث القرآن الكريم الإنسان على توظيف طاقاته كلها، ويعمل على ربطها بحيث تجعله طاقة منتجة فعالة.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

[الجاثية: ١٣]

والمتأمل العميق للآية الكريمة سوف يجد أن الله سبحانه وتعالى قد وهب الإنسان مجموعة من القدرات، يفيد عن طريقها، ومن خلال توظيفه لهذه القدرات يرقى بنفسه ومن حوله وفق منهج، ونظام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وتوجهه ذاته الوجهة السليمة، ويتضح هذا الوصف، من خلال الآية الكريمة فى قوله تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

[آل عمران: ١١٠]

ثالثاً: الابتعاد عن الخصال التى تجعل الإنسان سلبياً ومتخاذلاً

يحذر القرآن الكريم الإنسان من أن يتصف بالسلوك المتخاذل، الذى يجعله ضعيفًا أمام رغباته سلبيًا أمام مواجهة دوافعه الغريزية وشهواته المادية، ويصف الله سبحانه وتعالى ضعف الإنسان وتخاذله أمام هذه المغريات، فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾.

[آل عمران: ١٤]

رابعاً: الإنسان يتصرف فى حدود قدراته، ويتطلع إلى المثل الأعلى:

يصف القرآن الكريم الشخصية السوية فى آياته الكريمة، على أساس أنها تعرف حدود طاقاتها وتعرف مطالبها وضرورة إشباعها؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾

[البقرة: ٢٨٦]

ولا يحمل الله سبحانه وتعالى الإنسان مالا يستطيع تحمله أو لا يستطيع الوفاء به، بل يعامل الإنسان معاملة حانية؛ فهو الخالق وهو القادر وهو رب العرش العظيم، فيقول جل جلاله:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾

[النساء: ٢٨]

فالله سبحانه وتعالى يجعل المسئوليات فى حدود طاقة الإنسان، ويبعد عنه كل ما من شأنه أن ينوء بكاهله ويعجز عن أدائه:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾

[الحج: ٧٨]

ومن هنا يكون التكليف فى حدود الطاقة الممكنة، دون أن يترك الإنسان لتصوراته الواهمة التي قد تخدعه وتهبط بمستواه إلى الدرجة، التى تجعله يقلل من شأنه، أو يقع فى الخطأ عندما يدعى ماليس عنده.

والإنسان ـ كما خلقه الله ـ لديه الاستعداد الدائم لكى يرتفع عن المعطيات الحسية، وأن يتفوق على نفسه بحيث يتخطى الواقع المادى ليبلغ بفضل مجاهدته لشهواته كل ما يتمنى من منازل الأبرار والصالحين.. وهكذا كان ولايزال تصور القرآن الكريم للشخصية.. ذلك الذى لم يبلغ جانبًا واحدًا من جوانب الشخصية

عكس علماء النفس المحدثين، الذين ادعوا أنهم يستخدمون فى دراساتهم وبحوثهم المنهج التجريبى. . . ذلك المنهج الذى منعهم من أن يتناولوا الجانب الروحى فى الإنسان.

وقد كان الادعاء الذى استندوا عليه أن الجانب الروحى، لا يستطيع أحد أن يخضعه إلى الدراسة الموضوعية المنهجية التجريبية؛ ولأنه يند عن القياس وعوامل الضبط التجريبية. وواضح أن هذا الادعياء لا يمثل قيمة علمية، بل هو يعبر عن قصور فى التفكير قد جعل هؤلاء الأدعاء يتناولون الإنسان، والدراسات التى تهتم بالشخصية الإنسانية تناولاً جزئيًا مشوهًا، منعهم من الاهتداء إلى الطرق السليمة المثلى لإرشاد الإنسان وعلاجه نفسيًا، وتعرف العوامل الحقيقية، التى أدت إلى اضطراب شخصيته.

وقد تنبه (إيرك فروم فى دراسته عن الدين والتحليل النفسى)(*) ـ وبوصفه من العلماء الذين اهتموا بقضايا التحليل النفسى ـ إلى مدى قصور علم النفس الحديث، وعجزه عن فهم الإنسان فهمًا صحيحًا، وبأن علماء النفس المحدثين قد شوهوا الإنسان، عندما أغفلوا الجانب الروحى فيه، وأن الاهتمام الذى كان موجودًا عند بعض علماء النفس ـ ويتجلى فى الجانب المادى ـ بعيد عن اهتمامهم بدراسة الجانب الروحى، على اعتبار أن هذا الجانب قد اختفى تمامًا؛ بحيث أصبح علم النفس الآن يحاكى العلوم الطبيعية والأساليب المعملية، فيوظف الموازين والإحصاءات، واستطاع أن يغير جلده بجلد آخر، منقوشًا عليه الأرقام والجدول والمتغيرات وعوامل الضبط الأمبريقية.

وهكذا قدر لعلم النفس فى زحمة الانخراط فى متاهات المناهج الأمبريقية والعلمية المزعومة أن يضيع، وكان ذلك الضياع سببًا جوهريًا فى ضياع الإنسان؛ بحيث لم يعد الاهتمام بالروح والقيم والمعنويات أساسًا من أسسه فى تناول الشخصية الإنسانية، بل اهتم فى غالب دراساته بالميكانيزمات وتكوينات ردود

(*) لرجع إلى: إيريك فروم: الدين والتحليل النفسى: ترجمة فؤاد كامل. مكتبة غريب ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ ـ ص ١١ .

الأفعال والغرائز ومعاملات الارتباط بين الظواهر المختلفة، دون أن يعنى بالظواهر الإنسانية التى تميز الإنسان، وتلتصق به كالقيم الأخلاقية والدينية وقضايا الشعور والوجدان وما يصاحبها من مودة وحب.

وبهذا التصور يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات؛ فهو يشارك الحيوان فى معظم الخصائص الجسمية، وما تتطلبه من عوامل حفظ الذات والبقاء من دوافع وانفعالات وقدرة على الإدراك والتعلم، ولكنه يتميز عن الحيوان بخصائص روحية، تجعله ينزع إلى معرفة الله سبحانه وتعالى وعبادته والتشوق إلى الفضائل والمثل العليا، التى تجعل الإنسان فى أعلى منزلة من الكمال الإنسانى والنفسى.

يتناول القرآن الكريم الشخصية من جميع جوانبها العقلية والانفعالية والاجتماعية والجسمية والصحية؛ بحيث يوضح لنا أن الشخصية متمثلة فى أبعادها المتكاملة، وهى تلك التى تبتعد عن عوامل الانحراف، أو ما يسمى بالجوانب المرضية. ولقد وصف القرآن الكريم هذه الشخصية المريضة من الناحية النفسية، على الوجه الآتى:

١- الشخصية السيكوباتية التى تظهر غير ما تبطن:

يقول الله تعالى:

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

[المنافقون: ١ : ٤]

هذا سلوك النفاق الذى عبرت عنه الآيات الكريمة، يتميز به أصحاب

الشخصية السيكوباتية، فهم ليسوا خالصى الضمير (وقد اتخذوا أيمانهم جنة)؛ أى أنهم كانوا يدعون الإيمان كلما انكشف أمرهم، فيتذرعون بالإيمان ويدعون التقوى ليتخلصوا من الموقف وليواصلوا كيدهم ودسهم، وهل هناك ما أسوأ من الكذب الخداع والتضليل؟

ويرسم الله سبحانه وتعالى لهؤلاء صورة فريدة، تثير السخرية والزراية بهذا الضعف الممسوخ من بنى البشر أصحاب السلوك المرضى؛ فهم أجسام قد تثير العجب والدهشة، وليسوا أناسًا تتجاوب وتتفاعل وتعقل، والمحك على ذلك حين ينطقون.. فهم خواء من كل معنى ومن كل مشاعر، ولا يكتفى التشبيه الإلهى لهؤلاء، بل يضيف إليهم هذه الحالة من التوجس الدائم والفزع المستمر فهم «**يحسبون كل صيحة عليهم**»؛ لأنهم يفتقرون إلى الأمن النفسى والثقة بأنفسهم.. فهم يعرفون أنهم منافقون، مهما وضعوا على أنفسهم غلالات تسترهم من التظاهر والملق والالتواء، فهم فى حالة دائمة من القلق المرضى والتوتر، فى كل لحظة؛ خوفًا من أن ينكشف أمرهم.

٢- الشخصية التى تخاف الفقر وتتسم بالخنوع والسلبية

يحدثنا القرآن الكريم عن الشخصية المريضة نفسيًا، والتى تعتقد أن هناك من الأفراد من يستطيع أن يتحكم فى أرزاقهم وسبل معيشتهم، فيزرع الله فى قلوبهم الخوف لضعف إيمانهم وقلة حيلتهم واستكانة إرادتهم؛ لأن الرزق والحياة والأجل والنفع والضر بيد الله سبحانه وتعالى دون سواه، ويقرر القرآن الكريم أن خوف الفقر إنما هو من إيحاء الشيطان؛ ليضعف النفس ويصدها عن الثقة فى الخير، فيقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾

[الرعد: ٢٦]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

[فاطر: ٣]

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

[الأنعام: ١٥١]

والمتأمل للايات الكريمة يرى أن الله سبحانه وتعالى، يوصينا أن نبتعد عن سلوك الجبناء الذين يخافون الفقر، ويتميزون بالخضوع والسلبية. لايجوز أن يذل الاسترزاق رقاب العباد؛ لأن رزقهم بيد الله وحده بحيث لايملك أى إنسان من عباد الله الضعفاء أن يقطع رزق إنسان، ولا يضيق عليه في الرزق. وبطبيعة الحال هذا لا ينفى أن يعمل الإنسان ويكد ويكدح، ولكن عليه وهو يعمل أن يراقب ضميره متقنًا لعمله شجاعًا في الحق، رافضًا الذل والمهانة ومواقف الهوان التي قد تتطلب من الإنسان، تحت وطأة السلطة أو التهديد أن يتجاوز في بعض من أجره أو دينه أو عزته وكرامته في سبيل الاحتفاظ برزقه، وكذلك الحال أيضًا بالنسبة للخوف على فقدان المنصب أو المكانة والالتجاء إلى الإنسان كقوة، يتذرع بها الإنسان لتحميه وتصون مكانته وتحمى منصبه.

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[آل عمران: ٢٦]

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

[آل عمران: ١٦]

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾

[فاطر: ١٠]

إن الخوف من الإنسان الآخر ظاهرة مرضية تهز الشخصية، وتجعلها فى مواقف القلق والمرض النفسى والخوف على الحياة أو الرزق أو المكانة، والتأثر بالتطلعات الحسية التى جعلت الإنسان يتكالب على جمع المال، دون أن يراعى القيم والمثل والزهو بالمنصب والجاه والحسب. . . مثل هذا الإنسان الذى يترك نفسه لهذه العبودية (سواء كانت لشخص أو لمال أو لمنصب) حكم على نفسه بالتوتر والقلق، وفقد حريته وصفاء نفسه وخلاصها.

٢- الشخصية التى تدعى القوة وتتميز بالغرور والصلف

خلق الله الإنسان ليعمل ويكافح ومنحه سبحانه وتعالى قدرات عظيمة جعلته فى أحسن تقويم. . إلا أن هناك من الشخصيات المريضة نفسيًّا من ترى أن القوة، التى منحها الله لها تجعلهم فى موقف البطش والزهو بها. . مثل هؤلاء يحذرهم الله ويفند تصرفاتهم، يقول الحق تعالى:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾

[البلد: ٤ : ١٠]

فالإنسان خلق ليعمل ويكدح، ولكن الذى يكدح لمبدأ وقيمة ليس كالذى يكدح للشر والرذيلة، فالذى يكدح وهو يتمثل الهدف الأسمى غير الذى يكدح ليغوص أكثر فى أدران اللذة والشهوة، ومن يموت فى سبيل دعوة خير ليس كالذى يموت فى سبيل نزوة شر. . ولكن الإنسان الذى خلق ليكافح ينسى ما قد خلق من أجله فيدعى القدرة والقوة، ويتصرف تصرفات مغرورة فيزهو بنفسه، ويتوهم أنه لن يحاسب على أعماله، ويتوهم ـ تحت وطأة هذا الصلف، وهذا الغرور الكاذب ـ أنه لن يقدر عليه قادر؛ بحيث يحاسبه، فيطغى ويبطش ويسلب وينهب ويجمع الأموال ويفسق، دون أن يخشى، ودون أن يشعر بحرج، وينسى بطبيعة الحال وتبعًا لهذا الغرور الكاذب أن عين الله تراقبه وتلاحظه، وأن علم الله وقدرته تحيطه من كل جانب من جوانبه.

والملاحظ على الآيات الكريمة السابقة - والتي أوضحت بعض أنماط الشخصية - أنها قد صورت هذه الشخصيات تصويراً يبعدها عن السواء النفسي. وبطبيعة الحال.. إن المتأمل العميق لهذه الآيات الكريمة سوف يجد أن الإنسان قد زوده الله تعالى باستعدادات متساوية للخير والشر والهداية والضلال، فهو قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر، وأن هذه القدرة كامنة في كيان الإنسان تلك التي عبر عنها القرآن الكريم تارة (ونفس ماسواها فألهمها فجورها وتقواها)، ويعبر عنها تارة أخرى (فهديناه النجدين)؛ فالتمييز كاهن فى صميم النسيج البشرى فى صورة استعداد، والرسالات السماوية والتوجيهات الربانية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتوجهها، ولكنها لاتخلقها خلقًا فهى مخلوقة بالفطرة وكائنة طبعًا وكامنة إلهامًا.

وبطبيعة الحال، تتجلى حكمة الله سبحانه وتعالى فى كونها قد جعلت هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة محكومة بقوة واعية مدركة، موجهة فى ذات الإنسان، فمن استخدم هذه القوة فى تزكية نفسيته وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيه ومحاربته لنوازع الشر.. فإنه يصل إلى طريق الفلاح والصلاح، ومن أضعف هذه القوة فقد خاب وفشل. هنالك إذًا تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه... توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو فى حقل الخير، وفى حقل الشر؛ فهى حرية تقابلها تبعة وقدرة يقابلها تكليف ومنحة يقابلها واجب، وهذه الفطرة الشمولية ينبثق منها جملة حقائق ذات قيمة فى التوجيه والإرشاد النفسى، وذلك لما يأتى:

أ - ترتفع بقيمة الإنسان فتجعله أهلاً لان يتحمل نتائج أفعاله.

ب - تمنح الإنسان حرية الاختيار فى إطار المشيئة الإلهية، التى أرادت له هذه الحرية.

جـ - تنبه الإنسان إلى حاجته الدائمة إلى الاحتكام لأوامر الله، والتماشى مع شريعته؛ حتى يتجنب كل ما من شأنه أن يبعده عن الضلال والهوى.

وهكذا.. ترتبط حقيقة النفس البشرية وقضايا الصحة النفسية بحقائق هذا الوجود الواسع الأطراف بمعطياته الحسية، وترتبط أيضًا في حدود التقدير الحكيم الذى يجعل لكل شيء أجلاً، ولكل حادث موعدًا، ولكل أمر غاية ولكل قدر حكمة، والله العلى القدير هو رب النفس والكون والقدر جميعًا.

ويمكن أن نضع بعض صفات الشخصية التى تتمتع بالصحة النفسية على الوجه الآتى:

الشخصية السوية من وجهة نظر القرآن الكريم:

أ- الشخصية المؤمنة التى تعمل عملاً صالحًا وتتواصى بالحق والصبر[1]:

ومادام الإيمان هو التمسك بالمنهج، ذلك المنهج الذى يمثل حركة متصلة فى صميم الوجود، صادرة عن تدبير متجهة إلى غاية وقيادة الإيمان؛ وفقًا لهذا المنهج الربانى هى قيادة لتحقيق منهج الحركة والإنتاج والعمل، وتلك هى طبيعة الوجود الحركة الخيرة النظيفة البانية المعمرة، والتى تليق بمنهج يصدر عن الله سبحانه وتعالى والتواصى بالحق ضرورة.. فهناك الكثير من المعوقات التى تقف حجر عثرة أمام ظهور الحق، مثل: هوى النفس ومنطق المصلحة والأنانية والتطلعات المادية والظلم والطغيان، ويصبح التواصى بمثابة تذكير وتشجيع وتفاعل ودعوة إلى الأخوة والتآزر، والتواصى بالصبر ضرورة وعلامة للصحة النفسية.. فلابد من الصبر، ولابد من استخدامه على جهاد النفس وجهاد الغير والصبر على الأذى والمشقة، وعلى كل ما يقف فى سبيل الإنسان فيمنعه من الرؤية الحقيقية، ويفقده القدرة على الوصول إلى الهدف الأسمى... ذلك الهدف الذى يتحدد فى العمل الصالح والتفاعل بالحق والعدل والصبر مع الآخرين.

ب- الشخصية المؤمنة بالآخرة وحقائقها

يعيش الإنسان فى الحياة الدنيا، وعليه أن يعمل ويكدح.. إلا أنه إذا أراد

---

(١) يقول الله تعالى فى سورة العصر: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾. [صدق الله العظيم].

لنفسه السلامة والبعد عن التوتر والصراع النفسى وعوامل القلق، عليه أن يدرك أنه لم يخلق للفناء، وإنما خلق للبقاء، وأن هذه الدنيا مرحلة فى الطريق وليست هى نهاية المطاف، ومن هنا لا يعتبر الإنسان أن هذه الدنيا هى الهدف الأسمى، ولكن هناك موعداً للقاء فى حياة أخرى أفضل بكثير من هذه الحياة لمن أهتدى.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

[آل عمران: ٩]

وبطبيعة الحال.. فإن المكذبين بالآخرة يعيشون فى غفلة عن قدرة الله، تلك التى تظهر آثارها فى آفاق الكون وفى نفوس البشر، ولينظر كل إنسان إلى نفسه ففيها دليل على البعث، وفيها تكذيب لهؤلاء الذين ينكرون الحياة الآخرة.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾

[الحج: ٥ : ٧]

جـ - الشخصية التى تؤمن بالقدر وتتجنب الصراع النفسى:

الإيمان بالقدر خيره وشره هو الذى يجنب الإنسان القلق النفسي، ويعصمه من الصراع والحسرة والجزع. فلابد وأن يتقبل الإنسان الأحداث بنفس راضية، ويؤدى هذا الإيمان بالقدر والشعور بالأمن النفسى، فلا تتقلب مشاعر الإنسان ولا تلعب بها حوادث الحياة.

ويقول الله تعالى:

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

[الحديد: ٢٢:٢٣]

فإذا كان الإنسان السوى يشعر أن له إرادة وقدرة فى الاتجاه إلى طريق الطاعة، أو إلى طريق المعصية، ولايجد نفسه مرغمًا على سلوك أى منهما. . فإن الموت قدر محض لا إرادة للإنسان فيه ولاقدرة له على دفعه، كذلك أيضًا فى قضية الرزق فى ضيقه أو سعته، وذلك فيه تأكيد لحرية الإرادة الإنسانية، فلها أن تتجه كما تشاء مادام للحساب يوم، ومادام كل إنسان سيلقى ثمرة سعيه فى الحياة. ومن هنا. . فإن الشخصية التى تؤمن بالقدر لاتجادل بالباطل، بل تعمل وتتخذ لنفسها سبيلاً إلى ربها وتجنب نفسها عوامل الصراع النفسى، من خلال محاسبتها الدائمة لنفسها عن كل أعمالها؛ بحيث لا تخدع نفسها بالأكاذيب. . فإن الحقيقة لاتخفى.

﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾

[القيامة: ١٤ : ١٥]

د- الشخصية المحبة لربها والتى ترجو رحمته وتخشى عذابه

يوضح القرآن الكريم أن الصحة النفسية تتجلى من خلال عاطفة الحب المتدفق من الإنسان نحو خالقه؛ لأن الله هو واهب الحياة وصاحب الفضل فى هذه النعم، التى يعيشها الإنسان (فهو الذى خلق فسوى وهو الذى قدر فهدى). والعاطفة جزء لا يتجزأ من تركيبة الشخصية الإنسانية، ومن اتجهت عاطفته لحب الله. . فإن هذه العاطفة تكون موجهة لفعل الخير، وتكون عاطفة عاقلة أو ما يسمونه بلغة العلوم الحديثة (موضوعية العاطفة)، ويحدد الله سبحانه وتعالى المجال العاطفى لهؤلاء فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

[الأنفال: ٢]

وإذا كان فى طبيعة الإنسان الصحيح نفسيًا مقابلة الإحسان بمثله.. فكيف لاتمتلئ قلوب المؤمنين بحب الله الذى لاتحصى نعمه ولاتنفد عطاياه (فالحياة بما فيها من نعم ومافيها من عوامل راحة وعطايا متعددة من عند الله).

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾

[النحل: ٥٣]

لاينبغى أن تنقطع صلة الحب بين الإنسان وربه.. فهى تلك الصلة التى تسمو به إلى آفاق الكمال، وتجعله مطمئنًا واثقًا من نفسه مؤمنًا بسلامة تصرفاته، وحريصًا على أن يبذل ويضحى فى سبيل المبادئ السامية، وابتغاء مرضاة الله فلا يبخل ولايجبن إيثارًا للمال أو رغبة فى منصب أو جاه.

وإذا أخلص الإنسان فى حبه لربه.. فإن الله يحبه؛ لأن الله يحب عباده المتقين الصالحين.

«فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه»

والإنسان الصحيح نفسيًا يخشى ربه من الوقوع فى الخطأ، وهنا نجد أن الشخصية تحركها أخلاقها وتوجهها ذاتها المطمئنة، والله سبحانه وتعالى قد وعد من يخشاه بالأجر العظيم؛ فالإنسان الذى يخشى عذاب الله هو الإنسان صاحب اليقين الثابت.

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾

[الأعلى: ١٠:١١]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

[الملك: ١٢]

وإذا كانت الأنماط السابقة للشخصية المتمتعة بالصحة النفسية، قد أعطت المؤشر الصادق لتوازن الشخصية.. فإن القرآن الكريم قد حدد مدى هذا التكامل وضرورته واكتمال خصائصه، من خلال بعض السلوكيات، ومكارم الأخلاق التي نشير إليها؛ لنوضح كيف أن القرآن قد حدد سلوكيات الشخص الصحيح نفسيًا وطرائف معاملاته مع الناس، وهذه الإشارة نقدمها بإيجاز لنعطي بعض الدلائل عن سمات الشخصية السوية، كما وصفها القرآن الكريم في سلوكياتها الأخرى.

* الصدق في القول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

[التوبة: ١١٩]

* إخلاص النية واجتناب الرياء:

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾

[البينة: ٥]

* الموضوعية واحترام حقوق الغير:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

[النساء: ١٣٥]

* حفظ الأمانة وصيانتها:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾

[النساء: ٥٨]

* العفو عند المقدرة:

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[النور: ٢٢]

* الصبر وتحمل مشكلات الحياة وأعبائها:

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾

[البقرة: ٤٥]

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾

[البقرة: ١٥٥]

* العفة وعزة النفس وكرامتها:

﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

[الإسراء: ٢٩:٣٠]

* التمتع بالأريحية والعطاء:

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

[الحديد: ٧]

التطلع إلى المعرفة والاستزادة بالعلم:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

[الأنعام: ٩٧:٩٨]

* قوة الجسم وسلامة الجانب:

﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾

[القصص: ٢٦]

* المروءة والتعاون وحب الخير:

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

[المائدة: ٢]

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

[التوبة: ٧١]

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

[الحجرات: ١٠]

* احترام حق الجوار:

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

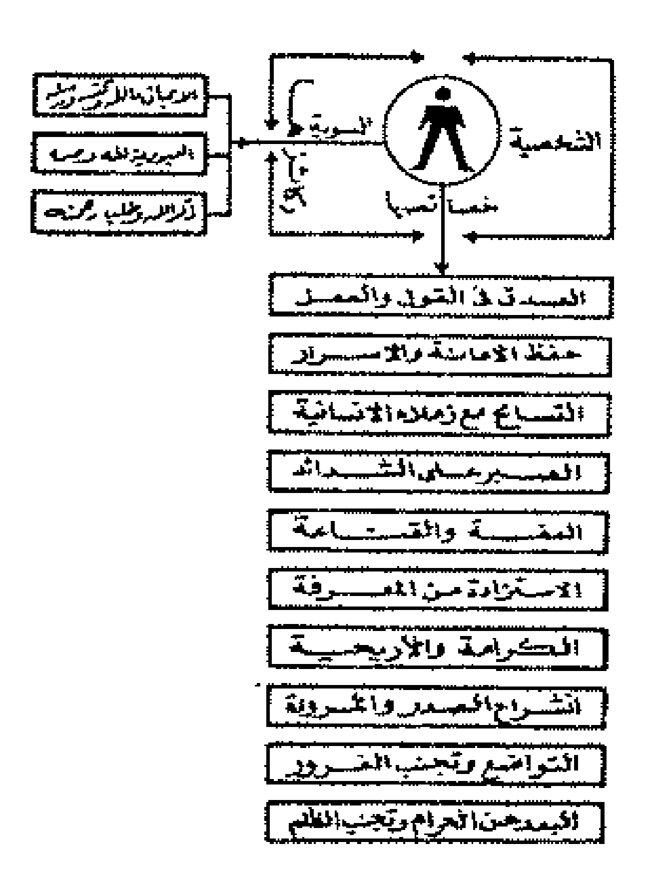
[النساء: ٣٦]

* التقوى والتحكم فى الميول والأهواء:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

[الأحزاب: ٧٠-٧١]

ويمكن أن يوضح الشكل الآتى أبعاد وسمات الشخصية، كما وصفها القرآن الكريم:



والملاحظ أن صورة الإنسان المؤمن الصحيح نفسيًا، كما صورها القرآن الكريم من خلال مجموعة السمات السابقة، تقدم لنا نموذجًا، يجب أن نعمل على تحقيقه من خلال عملية التطبيع الاجتماعي لأطفالنا، ومن خلال العمليات التعليمية؛ حتى تصبح سمات رئيسية عميقة الجذور.

◆ جهود العلماء المسلمين في الصحة النفسية

• كفى للمتعلمين أن يقتفوا بآثار المجتهدين، ويختاروا صفات المتورعين البالغين إلى منازل المتقدمين والنابغين في علوم الأولين والآخرين.

◆ ابن مسكويه والصحة النفسية

- إن النفـــس تشتـــاق إلـــى أفعالـــها الخـــيرة.
- بحسب طلب الإنسان للخير وحرصه عليه يكون فضله.
- وعلى الإنسان أن يتجنب الشرور التى تعوقه عن فعل الخير.

(*) قدمت هذه الدراسة بمؤتمر علم النفس الأول، المنعقد بالقاهرة، إبريل ـ ١٩٨٥، الجمعية النفسية المصرية.

جهود ابن مسكويه فى مضمار الصحة النفسية(*)

يستهل ابن مسكويه دراسته العميقة فى تهذيب الأخلاق بمحاولة رائدة فى تحديد تعريف النفس؛ حيث يبدأ فى شرح ما يتعلق بها من عوامل، فيرى «أن النفس وإن كانت تأخذ كثيراً من مبادئ العلوم عن الحواس.. فلها من نفسها مبادئ وأفعال لاتأخذها عن الحواس، وهى المبادئ الشريفة العالية التى تنبنى عليها القياسات الصحيحة»؛ فهو إذًا يرى أنه إذا كانت الحواس تدرك المحسوسات فقط.. فإن النفس تدرك أسباب الاتفاقات والاختلافات، التى تأتى من المحسوسات، وهى على حد تعبيره «معقولاتها»، التى لا تستعين عليها بشيء من الجسم ولا آثار الجسم.

فالنفس العاقلة فينا هى بمثابة المجهر، الذى يستدرك شيئًا كثيراً من خطأ الحواس فى مبادئ أفعالها «فالنفس ليست بجسم ولا بجزء من جسم ولاحال من أحوال الجسم، وإنما شيء آخر مفارق للجسم بجوهره وأحكامه وخواصه وأفعاله[1]. ولايكتفى ابن مسكويه بهذا التحديد الدقيق لتعريف النفس، ولكنه أضاف إضافة عميقة لم يسبقه إليها عالم من علماء النفس، منذ أن بدأ العلم فى الظهور، ومنذ أن بدأ فى تقديم نظرياته التى ذاع صيتها وانتشرت شهرتها.. فيقول:

---

(١) ارجع إلى تهذيب الأخلاق فى التربية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨١ .

(*) ابن مسكويه هو: «أبو على أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه»، كان من فلاسفة القرن الرابع للهجرة، وتوفى عام ٤٢١هـ.

إن النفس تشتاق إلى أفعالها الخاصة بها، وتلك هى فضيلة النفس ويحسب طلب الإنسان لهذه الفضيلة وحرصه عليها يكون فضله، وهذا الفضل يزداد ويتزايد بحسب عناية الإنسان بنفسه وانصرافه عن الأمور العائقة له، والتى ترتبط بجهده وطاقته ومايتطلبه البدن من إشباع حسى وغريزى؛ فالفضائل لاتحصل لنا إلا بعد أن تطهر نفوسنا من الرذائل، التى هى أضدادها وشهواتها الرديئة الجسمانية ونزواتها الفاحشة البهيمية[1].

ومن هنا.. حرص ابن مسكويه على أن يكون الإنسان متنبهًا لهذه الشهوات، من خلال تمسكه وحرصه على الخيرات، ورأى أن الواجب الذى لامرية فيه أن نحرص على الخيرات، التى هى كمالنا، والتى من أجلها خلقنا ونجتهد فى الوصول إلى الانتهاء إليها، وتتجنب الشرور التى تعوقنا عن فعل الخير.

وفى معرض حديث ابن مسكويه عن الحرص على أداء الخير، لم يفته أن ينبهنا من خلال تقسيماته للقوى التى قد تحرك النفس، وهو بذلك التقسيم له فضل السبق والريادة أيضًا حيث حدد ثلاث قوى متباينة للنفس: فالقوة الناطقة توظف الدماغ والقوة الشهوية تستعمل البدن، والقوة الغضبية وتستعمل القلب، وهو بهذا التقسيم لايريد أن يفكك النفس أو يجعلها غير متحدة، بل هو يريد أن يؤكد فكرة انسجام هذه القوى؛ فمتى كانت حركة النفس الناطقة معتدلة وغير خارجة عن ذاتها وكان شوقها إلى المعارف الصحيحة، حدثت عنها فضيلة العلم وتتبعها الحكمة، ومتى كانت حركة النفس البهيمية معتدلة منقادة للنفس العاقلة غير متأبية عليها فيما تقسطه لها ولامنهمكة فى اتباع هواها، حدثت عنها فضيلة العفة وتتبعها فضيلة السخاء.

ومتى كانت حركة النفس الغضبية معتدلة، تطيع النفس العاقلة فيما تقسطه لها فلا تهيج فى غير حينها ولا تحمى، أكثر مما ينبغى لها، حدثت منها فضيلة الحلم والاتزان وتتبعها فضيلة الشجاعة.

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه، ص ١٠ .

ويؤكد ابن مسكويه ضرورة تحقيق هذا الاتزان بين القوى الثلاث؛ لأنه عن طريق هذا الاتزان والاعتدال يتحقق تمامها وكمالها، أو على حد تعبيره تحدث فضيلة (العدالة)(*).

وأكد ابن مسكويه ضرورة التنبيه إلى أن النفس العاقلة، إذا عرفت شرف نفسها وأحست بمرتبتها من الله عز وجل، أحسنت خلافته في تربية هذه القوى وسياستها ونهضت بالقوة، التى أعطاها الله تعالى إلى محلها من كرامة الله تعالى ومنزلتها من العلو والشرف، ولم تخضع للنفس الغضبية أو البهيمية.

ويضع ابن مسكويه مجموعة من المحكات، تميز الشخص الصحيح نفسيًّا على الوجه الآتى:

● أن يكون سعيداً:

ويعتبر السعادة أولى رتب الفضائل، وهى محدودة بمدى توظيف الإنسان لإرادته ومحاولته إلى مصالحه فى العالم المحسوس والأمور المحسوسة من أمور النفس والبدن، وماكان من الأحوال متصلاً بهما ومشاركًا لهما من الأمور النفسانية، ويكون تصرفه فى الأحوال المحسوسة تصرفًا لا يخرج به عن الاعتدال الملائم لأحواله الحسية..

ثم هناك رتبة أخرى لسعادة الإنسان، تتجلى فى مدى توظيف إرادة الإنسان ومحاولاته إلى الأمر الأفضل فصلاح النفس والبدن، من غير أن يتلبس مع ذلك بشىء من الأهواء والشهوات، ولا يكترث بشىء من الأمور المحسوسة إلا بما تدعوه إليه الضرورة (وتقضى المشروعية والشريعة). والناس فى هذا الأمر قد تتغير فتقع فى الصراع النفسى؛ لأن هناك عوامل كثيرة يراها ابن مسكويه (ص ٧٣)، تظهر فى:

(*) يلاحظ مدى توقد فكر ابن مسكويه وابتكاره وأصالته؛ حيث تنبه إلى ضرورة وحدة القوى التى تحرك النفس، وأنه لابد وأن تنسجم فى حركتها بحيث تفوز فى آخر المطاف فضيلة العدالة، تلك التى أخذت تسمية «السواء النفسى» عند بعض المفكرين الأجانب».

(أ) اختلاف طبائع الناس.
(ب) اختلاف العادات.
(جـ) اختلاف درجة العلم ومنزلتهم من الفضيلة والمعرفة والفهم.
(د) اختلاف هممهم وإرادتهم.
(هـ) اختلاف معاناتهم وحرصهم على تقبل المشكلات التى تواجههم(*).

• أن يكون شريفًا مهما كانت حاجته إلى المال:

الحاجة إلى المال ضرورية فى العيش، ولكن المكاسب الشريفة قليلة.. إلا أن هذه الحاجة لاينبغى أن تغير سلوك الإنسان؛ لأن ذلك الذى يشبعها عن طريق الحرام (يقع فى الصراع النفسى مهما حصل منها ومهما صار غنيًا).

ويرى ابن مسكويه أن «العاقل الصحيح نفسيًا هو الذى لم يتدنس بالقبيح من المكاسب، ولم يتطرق إليه بخيانة ولاسرقة ولاظلم لمن هو دونه أو مثله، وتجنب فيه وجوه العار والفضائح كالخداع وترويج السلع القبيحة واستخدام المكر والخداع، والمساعدة على الفواحش، وتحسين القبائح فيما يوافق هوى الذى سيقدم المال.

• أن يكون عادلاً:

يرى ابن مسكويه أن من أهم خصائص الشخص الصحيح نفسيًا أن يكون عادلاً؛ فالعادل بالحقيقة هو الذى يعدل قواه وأفعاله وأحواله، وكأنه يريد أن يقول إن الشخص الصحيح نفسيًا هو ذلك الذى يحرص على قوته الجسمية، وما يصاحبها من عوامل، ثم إذا تكلم وأخذ على نفسه عهدًا.. فلابد وأن يلتزم بما تعهد، وأن يكون كلامه موافقًا لأفعاله وتصرفاته... فالمريض نفسيًا هو كما أجمع عليه جميع المشتغلين بأمور الصحة النفسية، هو الذى يميل إلى أن يناقض أقواله، وتفضحه دائمًا أفعاله المناقضة لما قال، وإذا تنبه إلى أغلاطه، فلايستجيب ولايرتد، بل يعود إلى الخطأ نفسه.

(*) هذا ما عبر عنه علماء النفس فى العصر الحديث، بمدى تقبل الإنسان للإحباطات التى تواجهه فى حياته.

ويؤكد ابن مسكويه أن العادل، هو ذلك المستمسك بالشريعة، يعمل بطبيعة المساواة؛ فيكتسب الخير والسعادة من وجوه العدالة؛ لأن الشريعة تطالبنا بالمساواة فيكتسب صحته النفسية من وجوه العدالة؛ لأن الشريعة الإسلامية تأمر بالأشياء المحمودة، لأنها من عند الله عز وجل، فلا تأمر إلا بالخير، وبكل ما يحقق للإنسان سعادته (وتوازنه النفسى ص ٩٧).

• أن يكون متعاونًا ومتفاعلاً مع الجماعة:

يرى ابن مسكويه أن الضرورة داعية إلى أن يستعين الإنسان بأخيه فى الإنسانية؛ لأن الناس مطبوعون على التناقضات ومضطرون إلى تماماتها، ولاسبيل إلا أن تجمع وتؤلف بين أشتات الأشخاص؛ ليصيروا بالاتفاق والائتلاف كالشخص الواحد، الذى تجتمع أعضاؤه كلها على الفعل الواحد النافع له.

• أن يحب ويحَب:

يعدد ابن مسكويه المحبة فى شكل أنواع أسبابها، تكون بعدد أنواعها على حد تعبيره(*).

فأحد أنواعها ما ينعقد سريعًا وينحل سريعًا.

والثانى ما ينعقد سريعًا وينحل بطيئًا.

والثالث ما ينعقد بطيئًا وينحل سريعًا.

والرابع ما ينعقد بطيئًا وينحل بطيئًا.

ولقد قسم ابن مسكويه هذه التقسيمات؛ لأنه يرى أن مقاصد الناس فى مطالبهم وسيرهم ثلاثة، ويتركب بينها رابع، وهى (اللذة والخير والمنافع والمتركب منها). وإذا كانت هذه غايات الناس فى مقاصدهم.. فلا محالة أنها أسباب المحبة من عاون عليها وصار سببًا للوصول إليها؛ فقد أفلح وتمتع بالصحة

(*) ارجع إلى تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص. ص ١١٢-١١٣ (فى التعاون والمحبة).

النفسية.. فأما المحبة التى يكون سببها اللذة فهى التى تنعقد سريعًا وتنحل سريعًا، وذلك أن اللذة سريعة التغير، وأما المحبة التى سببها المنافع التى تنعقد بطيئًا وتنحل بطيئًا.. وهذه الأنواع من المحبة كلها تحدث بين الناس خاصة؛ لأنها تكون بإرادة وروية وتكون فيها مجازاة ومكافأة.

وعلى هذا الأساس.. يرى ابن مسكويه أن المحبة التى تجعل الإنسان يحِب ويحَب، هى تلك التى تتجرد من المنفعة وتبتعد عن المصلحة؛ لأنها تضيع بضياع المصلحة وتذهب بذهابها؛ فلاخير فى المحبة المنعقدة على المنفعة أو عقد الصفقات(*).

• أن يكون صديقًا ودودًا

الصداقة نوع من المحبة.. إلا أنها كما يرى ابن مسكويه، أخص منها فهى المودة بعينها، ويرى أيضًا أن الإنسان إذا أراد أن يكون صديقًا مخلصًا.. فينبغى أن تكون صداقته بعيدًا عن المنفعة؛ لأن من كانت طباعهم فى تكوين الصداقة من أجل اللذة فهم يتصادقون سريعًا ويتقاطعون سريعًا، وربما اتفق ذلك بينهم فى الزمان القليل مرارًا كثيرة، وربما بقيت بقدر ثقتهم ببقاء اللذة ومعاودتها حالاً بعد حال. فإذا انقطعت هذه الثقة بمعاودتها، انقطعت الصداقة بالوقت وفى الحال.

ويؤكد ابن مسكويه ضرورة الصداقة وما يصاحبها من ود ومحبة، فالشريعة الإسلامية إنما أوجبت على الناس أن يجتمعوا فى مساجدهم كل يوم خمس مرات، وفضلت صلاة الجماعة على صلاة الآحاد ليحصل لهم الأنس الطبيعى، الذى هو فيهم بالقوة حتى يخرج إلى الفعل، ثم يتأكد بالاعتقادات الصحيحة التى تجمعهم.

فالسعيد إذًا من اكتسب الأصدقاء واجتهد فى بذل الخيرات لهم؛ ليكتسب بهم

(*) كثيرًا ما نرى فى الاتجاهات الاجنبية؛ خاصة المدرسة السلوكية فى علم النفس، وغيرها من المدارس (أن المعيار فى أن يحب الإنسان ويحب يرجع إلى مدى عقده لصفقات مربحة، حتى ولو استخدم فيها كل الوسائل، والألاعيب والمسامرات والحفلات الماجنة، وهذا فى اعتقادهم توافق مع الموقف، ومرونة سلوكية تثير الدهشة والإعجاب!!).

مالايقدر أن يكتسبه لذاته. . فيلتذ بهم أمام حياته، ويلتذون به أيضًا فالإنسان محتاج إلى الصديق عند حسن الحال وسوئه.

لذلك يرى ابن مسكويه أنه من الواجب على الإنسان السوى متى حصل على صديق أن يكثر مراعاته ولايستهين باليسير من حقه عنده، مهما يعرض له أو حادث يحدث له فى أوقات الرخاء، فينبغى أن تلقاه بالوجه الطلق والخلق الرحب، وأن تظهر له فى عينيك وحركاتك وفى هشاشتك وارتياحك عند مشاهدته إياك مايزداد به فى كل يوم وكل حال، ثقة بمودتك وسكونًا وراحة إليك، ويرى السرور فى جميع أعضائك التى يظهر السرور فيها إذا لقيك.

وانظر إلى الصديق إذا كنت صحيحًا نفسيًّا إن إصابته نكبة أو لحقته مصيبة أو عثر به الدهر. . كيف تكون مواساتك له بنفسك ومالك، وكيف تظهر له تفقدك ومراعاتك ولاتنتظر به أن يسألك تصريحًا أو تعويضًا، بل اطلع على قلبه وأسبق إلى مافى نفسه وشاركه فى مضض ما لحقه ليخفف عنه (ص ١٣٥).

وواضح من هذا النص الذى أورده ابن مسكويه مدى حرصه على السلوك السوى، ومدى اهتمامه بفعالية السلوك الإنسانى. ويظهر الإنسان من خلال أفعاله وتصرفاته، وتظهر معه أيضًا مروءته أو تخاذله (شتان بين المروءة والخسة)، ويضيف ابن مسكويه لآداب الصداقة وضرورة الالتزام بها، ويدعو إلى الحرص على الصديق كمؤشر من مؤشرات الصحة النفسية، فيقول:

«وإن بلغت مرتبة من السلطات والغنى فاغمس إخوانك فيها من غير امتنان ولاتطاول. . . وإن رأيت منهم من يحاول أن يهرب من مكرمتك خجلاً - فتابعه دون كبر وصلف - فالكبر والصلف ينتقص من الصداقة ويقطع حبل المودة. . . ص ١٣٥ (آداب الصداقة).

• أن يكون قنوعًا راضيًا:

القنوع هو الشخص الذى لا يشتغل بفضول العيش فإنها بلانهاية، ومن سعى إليها وطلبها أوقعته فى مهالك لانهاية لها. ومن هنا. فإن الشخص الذى يتبرم دائمًا ولا يقنع مثله كمثل الذى لايملأ عينه غير التراب.

• أن يبتعد عن العجب والافتخار:

فالعجب ظن كاذب بالنفس فى استحقاق مرتبة هى غير مستحقه لها، والدليل على ذلك أن الفضل مقسوم بين البشر، وليس يكمل الواحد منهم إلا بفضائل غيره، وكل من كانت فضيلته عند غيره.. فواجب عليه أن لا يعجب بنفسه، وكذلك أيضاً الافتخار فإن الفخر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عنا، ومن باهى بما هو خارج عنه فقد باهى بما لا يملكه(*).

ومن هنا كان حسن الخلق والتواضع من الأمور المهمة للصحة النفسية للفرد؛ فحسن الخلق يجنب الإنسان الوقوع فى الخطأ، ويجعله فى حالة من الضبط النفسى، والفخر والاعتزاز والاستعلاء على الآخر ضرب من ضروب المرض النفسى.. يقول الله تعالى:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

[لقمان: الآية ١٨]

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: ما نقصت صدقة من مال، ومازاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وماتواضع لله أحد إلا رفعه الله.

[رواه مسلم]

• أن يعرف عيوب نفسه:

يرى ابن مسكويه أنه ينبغى لطالب الفضيلة والراحة النفسية أن يتخذ جميع معارفه من الناس مرآة له، تريه صور كل واحد منهم، ويرى هو نفسه من خلالهم، وآفة الإنسان تكمن فى حبه لنفسه. واعتماداً على ذلك تخفى عليه معايبه ولم يرها، وإن كانت ظاهرة، والصديق الودود تظهر مودته فى كشف عيوب صديقه؛ حتى يتجنبها. ومن هنا.. فإن معرفة المرء عيوب نفسه تجنبه

(*) روى عن الرسول محمد بن عبد الله ﷺ أنه قال (لاتأتونى بأنسابكم وائتونى بأعمالكم).

الوقوع فى الخطأ أو ادعاء القدرة أو الإعلان عن مهارات ليست عنده؛ فيفضحه الموقف، وتكشفه الظروف التي قد تطالبه بإظهار ماكان يدعيه.

• أن يبتعد عن الشر وما يؤدى إليه من أفعال:

الشرير هو صاحب السلوك الذى يؤذى به الآخر، والغريب أن هذا الشرير إذا خلى بنفسه وتذكر أفعاله الرديئة.. فإنه يقع نهبًا للصراع النفسى والشرير بطبيعة الحال يلتمس لعشرته ومخالطة من هو مثله أو أسوأ حالاً منه؛ فيجد للوقت راحة به وسكونًا إليه لأجل المشاكلة، ثم يعود بعد قليل وبالاً عليه وزيادة فى خباله وفساده فيألم به ويهرب منه، فليس له محب ولاذاته ولا له نصيح ولا نفسه، وليس يتحصل إلا على الندامة ولا يرجع إلا إلى الشقوة.

• أن يحرص على الخير والفضيلة:

الرجل الخير الفاضل هو الشخص الصحيح نفسيًّا.. فإن سيرته جيدة محبوبة فهو يجد ذاته وأفعاله الخيرة، قد جعلت كل إنسان يحاول مصادقته، فهو صديق نفسه والناس أصدقاؤه وليس يضاده إلا الشرير فقط.

والحرص على الخير والفضيلة يجعل صاحبهما يتمتع بالنية الطيبة.. تلك التى تجعله يؤكد ذاته، دون أن يجور أو يظلم، أو يتكبر(*).

• أن يحفظ حق الجار ويحترم حقوقه وحرمته:

تعد هذه الصفة من صفات الشخص الصحيح نفسيًّا، ولم ترد فى الدراسات الأجنبية على العموم، ولانجد عالمًا من علماء الصحة النفسية قد اهتم بها، ولكن ابن مسكويه يظهرها بأمانة وريادة، ويجعلها أساسًا من الأسس، التى تجعل الإنسان قريبًا من الله؛ فقد قال الله تعالى:

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

---

(١) كانت الغاية المنشودة ومازالت لعلماء النفس فى العصر الحديث هى مدى محاولات الإنسان لتأكيد ذاته.

وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

[النساء: ٣٦]

وعن عبد الله بن عمر، وعائشة رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ.

مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه (متفق عليه).

- **أن يتمتع بسلوك الأريحية وإكرام الضيف(*)**:

الشخص الصحيح نفسيًا هو ذلك الذى يتمتع بصفة العطاء والكرم، وأن يقدم مكرمته للضيف سواء على المستوى اللفظى أو المستوى الحسى، أو ما تجود به نفسه. وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بهذا السلوك كملمح من ملامح السلوك السوى، يقول عز من قائل:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾

[الذاريات: ٢٤:٢٦]

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾

[هود: ٧٨]

- **أن يبتعد عن الغدر، وأن يكون وفيًا بالعهد**:

يرى ابن مسكويه أن الغدر وجوهه كثيرة.. فقد يستعمل فى المال وفى الجاه

(*) يلاحظ هنا أهمية الحرص على الجار واحترامه والحرص على حقوقه، وهذا المفهوم لم يرد إطلاقًا كصفة من صفات الشخص الصحيح نفسيًا فى الدراسات الأجنبية، التى اهتمت بذلك.

وفى الحرم وفى المودة، وهو على كثرة وجوهه، مذموم بكل لسان ومعيب عند كل أحد ينفر لسماع من ذكره؛ ولذلك يعد الغادر شخصًا مريضًا من الناحية النفسية.. وأن سلوك الغدر يعتبر من السلوك المرضى الذى يجعل صاحبه فى حالة من القلق وتوقع الأذى... والغدر تصاحبه الخيانة.

يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[الأنفال: ٢٧]

وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾

[النساء: ٥٨]

ويرتبط سلوك الأمانة والوفاء بالعهد بذلك السلوك الفعال المنتج، الذى جعل الإنسان وفيًا مخلصًا، يقول ثم يفعل بما يقول، يقول الله تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾

[الإسراء: ٣٤]

وقال جل جلاله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾

[الصف: ٢:٣]

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ إن رسول الله ﷺ قال:

«آية المنافق ثلاث «إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

[متفق عليه]

• أن يبتعد عن المواقف التي تجعله مذعوراً خائفاً:

وهنا يتنبه ابن مسكويه لما سماه علماء النفس (بالفوبيا Phopia)، وهي الخوف الشديد في غير موضعه، وهو من أمراض النفس، إلى جانب أنه اعتبر أن الخوف الموضوعي من الأمور المقبولة؛ حيث يعرف السبب، فيقول:

«إن الخوف يعرض من توقع مكروه وانتظار محذور والتوقع والانتظار، إنما يكونان للحوادث في الزمان المستقبل... وهذه الحوادث ربما كانت عظيمة وربما كانت يسيرة وربما كانت ضرورية وربما كانت ممكنة، والأمور الممكنة ربما كنا نحن أسبابها، وربما كان غيرنا سببها، وجميع هذه الأقسام لاينبغي للعاقل أن يخاف منها».

والإنسان الصحيح نفسيّـاً هو ذلك الذي لا يجعل مع الله شريكًا، ويتميز بالتقوى متماشيًا مع قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران: ١٠٢]

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

[الطلاق: ٢:٣]

وقال العلي القدير:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

[الحجرات: ١٣]

وقال:

﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

[فصلت: ٣٠]

فالخوف ليس من صفات المؤمن، إذا كان يرتهن بموقف، أو يستند إلى توقع الأذى من ذوي الجاه أو السلطة أو من قلة الرزق.

ويضيف ابن مسكويه إضافة لها قيمتها، فيقول إن الخوف من الموت صفة من صفات المريض نفسيًا؛ لأنها تجعله متشبثًا بالحياة، ولوعًا بها، خائفًا من مواجهة الحقيقة وساوسًا، ولايقنع بشيء ولا يقتنع بشيء (ص ١٨٠).

• أن يكون صادقًا:

والصدق هنا كأحد أبعاد الشخصية الصحيحة نفسيًا، لا يقتصر على القول فقط؛ بل لابد وأن يكون الإنسان صادقًا في قوله وفعله، وقد أمرنا الله أن نتجنب الكذب ومايؤدي إليه من صراعات نفسية؛ فالكذب كما يقولون «لارجل له بل هو كسيح قلما يستطيع أن يمشي». من هنا يؤكد ابن مسكويه قول الصدق وفعل ما أمرنا الله به من الأفعال الخيرة.

قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

[التوبة: ١١٩]

وقال:

﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾

[محمد: ٢١]

وقال العلي القدير:

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

[ق: ١٨]

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ﴾

[الإسراء: ٣٦]

• أن يتمتع بالحياء وخجل الأدب:

من مميزات الصحة النفسية أنها تجعل صاحبها يتوافق مع ذاته، ثم ينعكس هذا

التوافق فى تعامل الشخص من الآخرين، والحياء والخجل والمشبع بالأدب، ويجعل صاحبه فى صورة مهذبة - تماشيًا مع قول الله وأحاديث الرسول محمد ﷺ.

يقول الله تعالى:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾

[القصص: ٢٥]

وعن عمران بن الحصين - رضى الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ:

(الحياء لا يأتى إلا بالخير).

• **أن يكون شكورا متوكلا على الله:**

الشكر والاعتراف بالنعم صفة من صفات الشخص الصحيح نفسيًا؛ ذلك أن الإنسان الشاكر المتوكل على الله يشعر بأنه فى راحة نفسية؛ لاعتقاده الراسخ فى أن الله سبحانه وتعالى هو مولاه وهو ناصره، ويصبح الشكر لله على نعمه فى كل الأحوال أمر من الأمور الضرورية التى تجعل الإنسان قريبًا من الله.

يقول الله تعالى:

﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾.

وقال عز من قائل﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

[إبراهيم: ٧]

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:

«لايشكر الله من لا يشكر الناس»

(رواه أبو داوود الترمذى)

وعن أنس ابن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

(رواه مسلم).

وفي معرض التوكل على الله والاتجاه إليه فقط راعيًا ومسئولاً وقائدًا وعظيمًا، يعلمنا الله من خلال آياته الكريمة، فيقول عز من قائل:

﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

[الأنفال: ٢]

وقال تعالى:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾

[الطلاق: ٣]

وعن أبي بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قال:

نظرت أقدام المشركين ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا فقلت: يارسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لابصرنا، فقال: **«ماظنك باثنين الله ثالثهما»،**

(متفق عليه)

وهكذا تكون الصحة النفسية أن تعانى النفس البشرية حلو الحياة ومرها وخيرها وشرها، وأن يكون لها في تلك المعاناة تمحيص وتطهير وتصفية وتنقية؛ لكى تقبل على ربها سبحانه، وقد تهيأت للقائه بالتوبة والعمل الصالح، وأقلعت عن كل معصية تبعدها عن زمرة أهل الجنة.

وهكذا.. تتضح آراء ابن مسكويه في تفسير الأبعاد النفسية، التى يمكن أن

نسميها بلغة علم النفس الحديث (البيان النفسى psychological profile تلك الأبعاد التى أراد بها أن يحقق الصحة النفسية للفرد، ويبعده عن متاهات الغرائز، أو ما يسمونه بعض علماء النفس (الليبيدو)؛ خاصة أولئك الذين أخذوا على عاتقهم مسئولية هدم الإنسان بأفكارهم، التى جعلت الجنس محوراً أو الشهرة أساساً، بل ووصل بهم الأمر إلى أنهم طالبوا بعدم قمع الغريزة، واستباحوا التحرر الغريزى لأنه يرتبط بالتحرر الاجتماعى.

ومثل هذه الآراء تؤدى إلى التخريب؛ لأنها تتنافى مع طبيعة الانسان؛ لأن الإنسان الشهوانى إنسان مبتور، يعيش فى صراع داخلى وتمزق مستمر.

وآفة مايقدم الآن من بعض فروع علم النفس، والتى تهتم بالغريزة والمحسوسات، أنها أرجعت الإنسان إلى الحياة البدائية الغفل، وهذا فيه امتهان للإنسان؛ لأن الإنسان يسعى دائمًا نحو تفاضل أوفر، بالعلاء على نفسه باستمرار، ولن يتم له ذلك إلا بالعودة إلى الله خاشعًا متضرعًا؛ فالإنسانية فى وقتنا الحاضر تعانى من وحشية الإنسان، ومن نزعاته الدفينة إلى دفن الإنسان.

◆ ابن حزم ومداواة النفوس (*)

- «إنى أعلم من عيوب نفسى أكثر مما أعلم من عيوب الناس ونقصهم»

- «أكثر ما يكون مالم نظن، فالحزم هو التأهب لما يظن».

- لاتنصح على شرط القبول، ولاتشفع على شرط الإجابة، ولاتهب على شرط الإثابة، لكن على سبيل استكمال الفضل وتأدية ماعليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف.

(ابن حزم فى مداواة النفوس)

(*) ابن حزم (رسالة التلخيص لوجوه التخليص) تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ دار العروبة، ١٩٦٠، ص ١٧٩ .

«الإمام الجليل أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الفارسى الظاهرى» ولد سنة ٣٨٤ وتوفى سنة ٤٥٦ هجرية؛ وهو أحد العلماء الذين وقفوا أنفسهم على نشر العلم وتحصيله، مع الجهر بالحق وإفادة الناس، وواجه بشجاعة كل المصاعب التى اعترضته، ولقد وصفه أحد تلاميذه المخلصين؛ فقال:

«مارأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه»[١].

ولقد تميز ابن حزم بانصرافه عن مطامع الدنيا ومطامح المجد فى سبيل حب العلم والسعى وراء الحق، على الرغم من أنه عاش فى عصر، تهافت أهله على جمع الأموال وبناء القصور واقتناص الملذات. ولقد استطاع ابن حزم الوقوف وإمعان النظر في نفوس البشر، وراح يتغلغل ببصيرته فى خفاياها، وكان يعيش حياة تعتبر نموذجًا لحياة والعالم النزيه، الذى يطلب العلم للعلم والعمل لا للمال والجاه أو للشهوة والمجد. . . أليس ابن حزم هو الذى يقول فى دراسته الموسومة باسم: (مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق).

* إن لذة العاقل بعقله.
* إن لذة العالم بعلمه.
* ولذة الحكيم بحكمته[٢].

---

(١) أبو عبد الله الحميدى: (جذوة المقتبس) تحقيق ابن تاويت الطبخى، القاهرة، السعادة، ١٩٥٣م، ١٣٧٢هـ، ص ١٩١ .

(٢) ابن حزم: مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق ـ دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ. ١٩٧٩م.

وفى تناولنا لآراء ابن حزم فى (مداواة النفس).. يكمن الهدف الذى نسعى إليه، وهو محاولة تقديم آراء ابن حزم وإسهاماته فى مضمار الصحة النفسية، وكيف أنه كان صاحب فضل وريادة، وله آراء فى كتابه (مداولة النفوس) تفوق فى قيمتها آراءً كثيرة. كما حدد المستشرق الإسبانى (بلاسيوس) ماكتبه (سيكا) وغيره ومن علماء السلوك والأخلاق، وما قدمه (بيكون) من آراء، نالت حظـًا واسعًا فى مضمار الأخلاق فى الوقت الذى كان قد سبقه ابن حزم فى إعلانها وإظهارها[1].

ويعد الكتاب الذى نحن بصدده أشبه بسجل ذاتى أو يوميات، كتب فيها ابن حزم بعض ملاحظاته عن قضايا النفس، وما يتبعها من سلوكيات وأخلاقيات، نجد فيها التجارب الواسعة التى صاغها فى شكل مبادئ عامة وحكم أخلاقية، تنطق بذاتها عن مكنونات النفس البشرية، وتعلن عن قضاياها وتحدد وسائل علاجها.

وسوف نتناول هذه القضايا من خلال نصوص ابن حزم، ثم نحاول أن نجعل النصوص تقدم أفكاره، ويكون التعليق من خلال ماورد فى هذه النصوص من ملاحظات نفسية دقيقة تداوى النفوس وتعالجها.

أولا: فى مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق الذميمة:

يرى ابن حزم أن الأخلاق الذميمة هى تلك التى تشغل نفسها بالقضايا الحسية، التى تجعل صاحبها غارقًا فى أدران الشهوة، وأن هناك من الحاجات العضوية التى يسعى الإنسان إلى إشباعها.. إلا أنها تتضاءل أمام الحاجات النفسية التى ذكرها ابن حزم فى هذا النص:

«لذة العاقل بتمييزه، ولذة العالم بعلمه، ولذة الحكيم بحكمته، ولذة المجتهد لله

---

(1) ارجع إلى تاريخ الفكر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الأولى، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٤م ص ٢١٧ .

عز وجل باجتهاده، أعظم من لذة الأكل بأكله والشارب بشربه والواطئ بوطئه، والكاسب بكسبه، واللاعب بلعبه، والآمر بأمره»[1].

ويقدم ابن حزم الدليل على صدق رأيه، عندما يقول:

«إن الحكيم والعاقل والعالم والعامل واجدون لسائر اللذات التي سمينا، كما يجدها المنهمك فيها، ويحسونها كما يحسها المقبل عليها، وقد تركوها وأعرضوا عنها، وآثروا طلب الفضائل عليها، وإنما يحكم في الشيئين من عرفهما لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر»[2].

الأنانية وحب النفس من الأخلاق الذميمة:

يرى ابن حزم أن من أسباب القلق والصراع النفسي أن يفكر الإنسان في نفسه ومصلحته فقط، دون أن يراعي الآخر، ويقبل عليه ويخفف عنه ويتجاوب معه ـ فليس من السلوك السوي أن تعيش لنفسك فقط ـ بل لابد وأن يتفاعل مع الجماعة. . . تواسي المهموم وتعمل على إزاحة أسباب الهم والقلق عنه.

ويرى ابن حزم أن الناس إذا كانوا قد اتفقوا في الطريقة والأسلوب، الذي بفضله يزيحون هذا الهم ويخففون من حدته. . فهو يرى:

«إن من الناس من لادين له فلا يعمل للآخرة، وفي الناس من أهل الشر من لايريد الخير ولا الأمن ولا الحق لغيره. وفي الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته وفي الناس من يحب ومنهم من لايريد المال...» ويستمر ابن حزم في عرض نماذج السلوك المختلفة، التي تصطنع مواقف في الحياة تظهر فيها المصالح الفردية وتتعارض، فيكثر الهم والقلق، وتزداد الضغائن، لأن كل فرد يسعى فقط إلى تحقيق مصلحته، ومن هنا كان العلاج النفسي لهذه الأخلاق الذميمة من وجهة نظر ابن حزم، على الوجه الآتي:

«لاتبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل

(١، ٢) ارجع إلى ابن حزم: مداواة النفوس، ص. ص ١٣، ١٤.

فى دعاء إلى حق وفى دفع هوان وفى نصر مظلوم»[1]، وكل من يبذل نفسه فى غرض من أغراض الدنيا فهو كبائع الياقوت بالحصى.

وهنا تتجلى لنا تحليلات ابن حزم النفسية وقدرته على أن يضع أمامنا (الموقف) الذى يصنع القلق ويؤدى بالنفس إلى التوتر، ثم يقدم الإرشاد والتوجيه النفسى، من خلال ما يترتب على الموقف من أحداث ونتائج، ويركز على الأداء والسلوك والتصرف كمحك من المحكات التى تكشف نفسية الإنسان.

راحة العقل تتجلى فى طرح المبالاة بكلام الناس:

يرى ابن حزم أن من أسباب الهم والقلق والتوتر النفسى أن تبالى بكلام الناس؛ لأن من يستطيع أن يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون.

ويعطى ابن حزم الدليل على ذلك، فيقول:

من حق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق، وإن آلمتها فى أول صدمة، كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه لأن مدحهم رياه إن كان بحق وبلغ مدحهم له أسرى ذلك فيه العجب فأفسد بذلك فضائله وإن كان بباطل فبلغه فسره فقد صار مسروراً بالكذب، وهذا نقص شديد، وأما ذم الناس إياه فإن كان بحق فبلغه فربما كان ذلك سبباً إلى تجنبه ما يعاب عليه وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلا ناقص».

وهنا يوضح لنا ابن حزم كيف أن الإنسان عليه أن يقدر نفسه حق قدرها ويتعرف قدراته ويكتشف عيوبه ويواجهها؛ حتى يحاول أن يصلح منها... فالعاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها الحيوان، وإنما يفرح ويسعد بتقدمه فى الفضيلة وحميد السلوك.

ويضرب لنا ابن حزم مجموعة من الأمثلة جريًا كعادته فى سرد المواقف؛ فيقول: **«فمن سر بشجاعته التى يضعها فى غير موضعها فليعلم أن النمر أجرأ**

---

(١) مداواة النفوس: ص ١٦ .

منه، وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه، ومن سر بقوة جسمه فليعلم أن البغل والثور والفيل أقوى منه جسمًا. ومن سر بحمله الأثقال فليعلم أن الحمار أحمل منه. ومن سر بحسن صوته فليعلم أن كثيراً من الطير أحسن صوتًا منه... فأى فخر وأى سرور فيما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه؟!!»

وهنا يحدد ابن حزم بدقة عالم النفس الماهر الموقف؛ ليفحم الشخص الذى يدعى صفة أو قدرة أو قوة بأن ما تدعيه؛ حتى إذا وصل إلى درجة الحقيقة فإن هناك من يتميز فيها عليك... لكن الشخص الذى يتميز، كما يرى ابن حزم بقوة التمييز واتساع العلم وحسن العمل له أن يفرح.. فإنه لايتقدمه فى هذه الوجوه إلا الملائكة وخيار الناس.

يقول الله تعالى:

﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى﴾

هذا القول الحق جامع لكل فضيلة؛ لأن نهى النفس عن الهوى يتمثل فى ردعها عن الطبع الغضبى والشهوانى؛ لأن كليهما واقع تحت موجب الهوى، فلم يبق إلا استعمال النفس للنطق الموضوع فيها، والذى تميزت به عن سائر الحيوانات والحشرات.

كلام الناس إذًا كان يعبر عن الخير ويدعو إلى الفضيلة، ويعلن عن المودة والألفة كان مؤثرًا إيجابيًا، أما إذا كان خارجًا عن قلوب معتمة وضمائر خربة فالاتجاه إلى الله مع تعرف القدرة الحقيقية للإنسان موضع الكلام.. فإذا عرف الإنسان قدراته بطريقة موضوعية تجنب الوقوع فى الخطأ، وإذا كان الإنسان يتعلم كما يقول ابن حزم من تجربة النوم أنها تجربة عميقة، يسلم نفسه من خلالها إلى خالقها.

«فإذا نام المرء خرج عن الدنيا ونسى كل سرور وكل حزن فلو راقب نفسه فى يقظته على ذلك أيضًا لسعد السعادة التامة»[1].

الدهاء والجفاء والغدر خصال النفس المريضة:

يرى ابن حزم أن الإنسان عليه أن يحرص على نفسه من شر الخبث والدهاء. ولابد من أن يوصف الإنسان بسلامة الجانب، وأن يحتفظ من أن يوصف بالمكر والدهاء.

«وطن نفسك على ماتكره، يقل همك إذا أتاك، ويعظم سرورك ويتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قدرته. إذا تكثرت الهموم سقطت كلها».

ويرفض ابن حزم أن يتصف الإنسان بالغدر والجفاء، ويرى:

«إن الغادر يفى للمجدود[2] والوفى يغدر بالمحدود والسعيد كل السعادة فى دنياه من لايضطره الزمان إلى اختيار الإخوان».

فلا تفكر فيمن يؤذيك فإنك إن كنت مقبلاً فهو هالك وسعدك يكفيك. وإن كنت مدبراً فكل أحد يؤذيك (فطوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها).

ويرى ابن حزم أن الجفاء خصلة من خصال النفس المريضة، وأن الإنسان الذى يعامل الآخر بجفاء يحتاج إلى الصبر على هذا الجفاء، ويقدم ابن حزم مراحل للصبر على الجفاء على الوجه الآتى:

١- صبراً عمن يقدر عليك ولاتقدر عليه.
٢- وصبراً عمن تقدر عليه ولايقدر عليك.
٣- وصبراً عمن لاتقدر عليه ولايقدر عليك.

---

(١) مداواة النفوس: ص ٢٠ .

(٢) المجدود: ذو الحظ، أى قد يقع الوفاء فى القليل ممن طبيعته الغدر، وقد يقع الخلف فى القليل ممن طبيعته الوفاء على الرغم منه.

- ارجع إلى مداواة النفوس: تحقيق عبد الرحمن عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م، ص.ص ٣١-٣٢ .

فالأول ذل ومهانة وليس من الفضائل، والثانى فضل وبر وهو الحلم، وهو الذى يوصف به الفضلاء، أما الثالث فينقسم إلى قسمين يراهما ابن حزم على الوجه الآتى:

* إما أن يكون الجفاء ممن لم يقع منه إلا على سبيل الغلط، ويعلم قبح ما أتى به ويندم عليه، وهنا يكون الصبر عليه أفضل، وهو ضرب من ضروب الحلم.

* وأما من كان لايدرى مقدار نفسه، ويظن أنه لها حقًا يستطيل به فلا يندم على ماسلف منه، فالصبر عليه ذل للصابر وإفساد للمصبور عليه.

ثانيا: فى الإخوان والصداقة والنصيحة

يقدم ابن حزم فى مضمار الأخوة والصداقة والنصيحة مجموعة من الآراء بمثابة منهج للتوجيه والإرشاد النفسى، أو ما يمكن أن يسمى بلغة علم النفس المعاصرة (التوجيه المباشر)؛ حيث يقول:

* **استبقاك من عاتبك وزهد فيك من استهان بسيئاتك، فالعتاب للصديق كالسبك للسبيكة فإما أن تصفو وإما تطير.**

* **لاترغب فيمن يزهد فيك فتحصل على الخيبة والخزى، ولاتزهد فيمن يرغب فيك فإنه باب من أبواب الظلم.**

* **ابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك، وكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه.**

* **لاحظ أن ذوى التراكيب الخبيثة يبغضون ـ لشدة الحسد ـ كل من أحسن إليهم إذا رأوه فى أعلى من أحوالهم.**

* **لاتنصح على شرط القبول ولاتشفع على شرط الإجابة ولاتهب على شرط الإثابة، لكن على سبيل استعمال الفضل وتأدية ماعليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف.**

* ويحدد ابن حزم أخلاقيات الناس فى شكل تفاعلات وعلاقات، يحدد من خلالهما ما يسمى بحركة الجماعة (ديناميات الجماعة) من خلال اختياره لقضية المدح والذم فيقسم الناس إلى طوائف:

١- **طائفة تمدح فى الوجه وتذم فى المغيب وهذه صفة أهل النفاق والعيابين.**
ويرى ابن حزم أن هذا خلق قد فاش فى الناس وغالب عليهم.

٢- **طائفة تذم فى المشهد والمغيب، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيابين.**

٣- **طائفة تمدح فى الوجه والمغيب، وهذه صفة أهل الملق والطمع.**

٤- **طائفة تقدم فى المشهد وتمدح فى المغيب، وهذه صفة أهل السخف والفواكه.**

وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم فى المشاهدة ويثنون بالخير فى المغيب أو يمسكون عن الذم، وأما العيابون الذين لايميلون إلى النفاق فيمسكون عن المدح وعن الذم فى المشهد المغيب.

ويقدم ابن حزم بعض المعايير فيما يتعامل به الناس من أخلاقيات:

(أ) الابتعاد عن التلون المذموم ذلك الذى يجعل الإنسان يتنقل من زى متكلف لامعنى له إلى زى آخر مثله فى التكلف لامعنى له، ومن حال لامعنى لها إلى حال لامعنى لها بلاسبب يوجب ذلك.

فأما من استعمل من الزى ما أمكنه مما به إليه حاجة، وترك التزيد مما لايحتاج إليه، فهذا عين من عيون العقل والحكمة[1].

وهنا يؤكد ابن حزم ضرورة الابتعاد عن السلوك السيكوباتى، الذى يجعل الإنسان يتكلف فى تصرفاته، ولايتنبه إلى الأخطاء التى يرتكبها، بل وقد يرجع إلى ارتكاب هذه الأخطاء حتى بعد أن يتعرفها وعلاج هذه الآفة عند ابن حزم،

---

(١) مداواة النفوس: ص ٦٤ (طبعة المكتبة السلفية) ١٩٧٠م/ ١٣٧٠ هـ.

الرضا والاستغناء - فهو يرى أن الإنسان لابد له أن «يستغنى بما وجد عما لايجد»[1].

(ب) الالتزام بالوفاء والثبات على المبدأ والعهد، ووضع الكلام فى موضعه والتوسط فى تدبير المعيشة ومسايرة الناس بالمسالمة... كل هذه سلوكيات يراها ابن حزم يتصف بها الشخص (الرزين)، الذى يتجنب مواقف السخف ومواقف المهاترات.

(جـ) **إذا نصحت ففى الخلاء وبكلام لين، ولاتسند سب من تحدثه إلى غيرك فتكون نامًا. فإن خشنت كلامك فى النصيحة فذلك إغراء وتنفير. وإن نصحت بشرط القبول منك، فأنت ظالم ولعلك تخطئ فى وجه نصحك فتكون مطالبًا بقبول خطئك وبترك الصواب.**

ولقد استطاع ابن حزم - من خلال رسالته عن أهم عاطفة يمر بها الإنسان، وهى عاطفة الحب والمودة - أن يعبر عن العوامل النفسية التى تعترى الإنسان من خلال هذه التجربة العاطفية. وتتميز دراسة ابن حزم بالتسلسل المنطقى والترتيب المنهجى فى تناول الموضوع، فيبدأ بالكلام فى ماهية الحب، ثم ينتقل إلى نشأته ليستقصى علاماته ومظاهره ويستعرض أنواعه ونماذجه، ثم يتتبع أحوال المحبين وعوارض حبهم فيحدثنا عن الوصل والهجر والوفاء والغدر واللين والضنى والسلو والموت وفضل التعفف.

ويسجل ابن حزم فى كتابه جلال الحب وقداسته من وجهة نظره، فيقول:

الحب دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة وليس بمنكر فى الديانة ولا بمحظور فى الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل[2].

(١) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٢) ابن حزم: طوق الحمامة (فى الألفة والألاف) تحقيق فاروق سعد - دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٧٥ ص ٦٥ .

والمتأمل العميق لهذا النص يرى أن ابن حزم كان يخشى أن يقع فى ظن البعض أن الحديث عن الحب هو حديث عن الجنس والشهوة والفاحشة، ولكن ابن حزم كان أحرص ما يكون على إبراز قدسية تلك العاطفة.

وتعتبر دراسة ابن حزم فى «طوق الحمامة» محاولة مبكرة فى علم النفس؛ لأنه يرى أن نفس المحب قاصدة إلى نفس المحبوب مشتهية علاقاته، جاذبة لو أمكنها كالمغناطيس والحديد، وأن خيال المحب يضفى على كل ما يهواه من ضروب الكمال، وكيف أن أوهام المحب تخلع على شخصية المحبوب كثيراً من المزايا بما يجعل منها جوهرة ثمينة نادرة.

يقول ابن حزم:

«إن الذى أفرغ ذهنه فى هوس من لم ير، لابد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها، وعيناً يقيمها نصب ضميره، لا يتمثل فى هاجسه غيرها، لأنه قد مال بوهمه نحوها».

وابن حزم يؤكد أيضاً أن (المعاينة) التى قد تأتى بعد ذلك تثبت هذا الحب أو قد تلغيه تماماً[1].

وقد تنبه ابن حزم فى دراسة (طوق الحمامة) إلى مرحلة التثبيت Fixation، الذى فسرته مدرسة التحليل النفسى على أساس أنه بمثابة ارتباط الإنسان فى مرحلة مبكرة من مراحل نشأته بتجربة معينة أو موضوع معين ارتباطاً وثيقاً؛ بحيث يدور هذا الارتباط حتى انتقاله إلى مرحلة النضج النفسى، أو ما يسمى بالبلوغ العاطفى، حيث كتب:

«وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر فما أحب طويلة بعد هذا...»

---

(١) ارجع إلى الأستاذ الدكتور زكريا إبراهيم: ابن حزم الأندلسى - أعلام العرب، ٥٦، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦، ص. ص ٢٣٧-٢٣٨.

وقوله:

«دعني أخبرك أنني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو على صورة الحسن نفسه».

كما نبه ابن حزم إلى ماردّدته مدرسة التحليل النفسي، في القرن العشرين، من أن كل حب يخفي وراءه كراهية في اللاشعور فهو يرى:

إنه إذا تأكدت المحبة بين المحبين تأكداً شديداً، كثر تضادهما في القول تعمداً وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور، وتتبع كل منهما لغلطة تقع مع صاحبه وتأويلها على غير معناها.

ولقد كانت اللفتات والآراء النفسية لابن حزم بمثابة المشعل، الذى أضاء الطريق أمام المشتغلين بالصحة النفسية؛ حيث أوضح أهمية الاستقرار النفسى فى تأجيل عاطفة الحب ودوامها، وكيف أنه تنبه إلى أن العشق السريع هو أقرب إلى الشهوة منه إلى الحب، فى حين أن العاطفة الهادئة الواعية الصابرة التى تتكون على مر الأيام والليالى لابد وأن تدوم وتثبت، وذلك عكس الشهوة العابرة أو المغامرة الخاطفة، التى قد تلعب فيها العاطفة دوراً محدوداً لتحقيق نزوة عابرة.

ويقول ابن حزم فى ذلك:

«وإني لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واجدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة، وإما أن يكون فى ظنى متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً فى حجاب القلب فما أقدر ذلك ومالصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لى دهراً وأخذى معه فى كل جد وهزل وكذلك أنا فى السلو والتوقى، فما نسيت وداً لى قط»[1].

وإذا كان ابن حزم قد ربط الحب بالاستقرار النفسى، وأوضح مدى ضرورة هذا الاستقرار فى استمرار الحب.. فإننا نجده رفض فكرة التعلق بشخصين فى

---

(١) ابن حزم: طوق الحمامة (فى الالفة والآلاف) تحقيق فاروق سعد ص ٩٣ .

وقت واحد مؤكداً (وحدانية الحب... حيث إن التعدد حليف الشهوة، في حين أن الوحدانية قرينة المحبة Affection)؛ لهذا يقرر ابن حزم صراحة:

«إن كل من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين فقد اختلطت عليه المحبة بالشهوة والشهوة لاتسمى حبّاً على الإطلاق بل على المجاز».

ابن حزم يستنكر التقلب في الحب ويستهجن الملل في العاطفة، ويهاجم كل من يرى أنه من الممكن أن تتجه العاطفة إلى حب اثنين في وقت واحد.

ويحدثنا ابن حزم في باب الضنى عن الأمراض النفسية والجسمية، التي قد تترتب على قمع الحب أو كتمانه فيقول:

«ولابد لكل محب صادق المودة ممنوع الوصل إما ببين وإما بهجر، وإما بكتمان واقع لمعنى من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والتحول وربما أضجعه ذلك»[1].

لما كان الحب في نظر ابن حزم ظاهرة بشرية، تتجلى فيها العاطفة الإنسانية في أعظم معانيها.. فإننا نراه يؤكد أن المودة إذا استحالت إلى عداوة، صارت أفظع من الموت وأنفذ من السهم وأمر من السقم وأوحش من زوال النعم وأقبح من حلول النقم.

ويختم ابن حزم حديثه عن الحب بالإشارة إلى التعفف، فيرى أن أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف وترك ركوب المعصية والفاحشة ومحاربة النفس الأمارة بالسوء.

«وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» عند هذا القول الكريم العظيم لله سبحانه وتعالى، يقول العاصي:

«ياويلتي مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها».

---

(1) طوق الحمامة (باب الضنى) ص ٢٣٧ .

التعفف سلوك الأبرار وسمة من سمات الفضلاء، أشاد بها الرسول الأمين محمد ﷺ، عندما ذكر «أن رجلاً دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله» فما أقبح من الزنا معصية، وما أسوأ الشهوة من سلوك.

ومن هنا نجد ابن حزم يؤكد وجهة نظره عن ضرورة التعفف، فيقول:

«تأنس النفس بالنفس فأما الجسد فمستثقل مهزوم به، ودليل ذلك استعجال المرء بدفن جسد حبيبه إذا فارقته نفسه وأسفه لذهاب النفس، وإن كانت الجثة حاضرة بين يديه»(1).

---

(1) مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق لابن حزم.

◆ ابن قيم الجوزية ورعاية الطفولة

- من أهمل تعليم ولده وإرشاده إلى ما ينفعه.. فقد أساء إليه غاية الإساءة وأكثر الأولاد، إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسنته فأضاعوها صغارا، فلم ينتفعوا بأنفسهم ولم ينفعوا آباءهم كبارا.

- عاتب أحد الآباء ولده على العقوق، فقال له ولده: يا أبت إنك عققتني صغيراً فعققتك كبيراً وأضعتني وليداً فأضعتك شيخاً[1].

---

(1) من كتاب: تحفة المودود وأحكام المولود لابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص ١٨٠ .

الإمام الجليل الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبى بكر، الشهير بابن قيم الجوزية، (ولد سنة ٦٩١ - ٧٥١هـ، وتوفى سنة ١٢٩١ - ١٣٥٠م)، وهو أحد العلماء الذين قدموا إسهامًا فكريًا، يعد من المراجع الأساسية فى علم نفس النمو Developmental Psychology، حيث استقى ابن قيم الجوزية أفكاره عن تربية الطفل ورعايته من الشريعة الإسلامية، تلك التى لم تترك جانبًا من جوانب الحياة ولا أمرًا من أمور الدنيا والآخرة، إلا وهدت إلى خير مايتبع فيه. ولقد فصلت الشريعة السمحاء كل أمور الدين والدنيا تفصيلاً دقيقًا، يجعل الإنسان على بصيرة من أمره عزيزًا مطمئنًا سعيدًا برضوان الله فى الدنيا والآخرة.

ويرى ابن قيم الجوزية فى دراسته (تحفة المودود بأحكام المولود) أن للمولود أحكامًا منذ أن يستقر نطفة فى الرحم، حتى يولد وينمو ويترعرع ناشئًا فشابًا ثم راشدًا، تثبت له جميع أحكام التكليف؛ اعتمادًا على مرحلة النضج العضوى والنفسى والعقلى، التى قد وصل إليها.

وسوف نتناول الأفكار الرئيسية التى تضمنتها دراسته عن الطفل، تاركين للباحثين ومن يهمهم أمر الطفل أن يعيدوا النظر فى أمر قراءة هذا المنهل الفياض فى تربية الطفل، إيمانًا منا بالحقيقة التى تقول: إن البحث العلمى شأنه شأن سباق التتابع يجرى فيه الباحث شوطًا معينًا ومحددًا، ثم يسلم العلم إلى زميل ليستأنف بقية السباق... بحيث يصبح البحث العلمى دائمًا استفهامًا وتساؤلاً ودهشة مستمرة ومحاولة للفهم والقراءة والتنقيب... فهيهات أن يصل البحث العلمى إلى كلمة نهائية على الإطلاق.

يستهل ابن قيم الجوزية دراسته[1] فى استحباب طلب الأولاد؛ فيذكر ضرورة التزوج من المرأة الولود، وأن النبى عليه الصلاة والسلام يكاثر بأمته الأمم يوم القيامة.

ولقد ذكر الله فى كتابه العزيز أهمية الزواج والإنجاب، وطالبنا به كآية من آياته الكريمة الجليلة؛ حيث يقول عز من قائل:

«والله جعل لكم من أنفسكم أزواجًا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة... ورزقكم من الطيبات».

وقد تكون الحكمة التى جعلت الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان من الذكر والأنثى خفية على بعض الناس، ولو أمعنوا النظر فيها لسجدوا لله شكراً على هذه النعمة؛ لأن الله سبحانه وتعالى أراد للإنسان أن يكون متميزاً منفرداً عن سائر الكائنات، ومن هنا أوكل سبحانه وتعالى التناسل إلى الذكر والأنثى؛ بحيث ينفرد كل إنسان عن غيره حتى ولو كانا توأمين...

وعلى الرغم من أن ابن قيم الجوزية قد نوه على ضرورة استحباب بشارة من (ولد له ولد وتهنئته).. إلا أنه رفض أن تكون هناك مفاضلة بين الذكر والأنثى، على أساس استحباب الذكور وكراهية الإناث، ونبه الأذهان إلى أن كراهية خلقة البنات كثيراً ما تسبب لهن أمراضًا نفسية وجسمية وعقلية. ثم يضيف ابن قيم الجوزية **(أنه إذا كانت الأبناء والبنات نعمة من الله فلابد وأن نختار الأسماء وأن نهتم بالتسمية وقدم فصلاً طريفًا فيما يستحب من الأسماء ومايكره منها).**

عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:

«أنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم فأحسنوا أسمائكم»[2].

وهناك من الأسماء المحرمة والمكروهة والمعيبة، التى تمثل لصاحبها مشكلات

---

(1) ابن قيم الجوزية: (تحفة المودود بأحكام المولود) دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٩، ص ١١.

(2) رواه أبو داوود بإسناد حسن.

كبيرة بعد أن يكبر؛ ومن هنا كان ضروريًا أن تختار الأسماء وتنتقى. وفى فصل عن تغيير الاسم باسم آخر لمصلحة تقتضيه... قال أبو داوود:

«وغير رسول الله ﷺ حربًا إلى (سما) وسمى المضطجع (المنبعث) وأرضًا يقال لها عفرة (خضرة) وشعب الضلالة إلى شعب (الهدى) وبنى الزنية سماهم بنى (الرشيدة).

وكما أن تغيير الاسم يكون لقبحه وكراهيته (كأن يسمى الأب ابنه بالحيوان ـ الكلب ـ الزبال ـ العفش ـ المحروم ـ إلخ)؛ فقد يكون التغيير لمصلحة أخرى مع حسنه... كما غير اسم (برة بزينب) حرصًا على سلامة المخاطبة بعد ذلك؛ فكيف يستقيم المعنى عندما أقول خرجت من عند برة أو يقال: كنت عند برة!!.

ويذكر ابن قيم الجوزية فى الفصل نفسه أن النبى ﷺ قد غير اسم المدينة المنورة، وكان (يثرب) فسماها (طيبة) كما فى الصحيحين عن أبى حميد، قال: «أقبلنا مع النبى ﷺ من تبوك حتى أشرفنا على المدينة فقال هذه (طيبة)»، وينبه ابن قيم الجوزية على ضرورة التفاهم بين الأب والأم[1] على اختيار الاسم ـ ولو أنه قرر أن الأبوين إذا تنازعا فى تسمية الولد فهى للأب... فيقال دائمًا ابن فلان وبنت فلان.

قال تعالى: ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾.

ولما كانت عملية التطبيع الاجتماعى، تعد من أهم العمليات التى يمر بها الإنسان منذ ولادته، فقد اهتم ابن قيم الجوزية بهذه المرحلة اهتمامًا كبيرًا محددًا مطالب النمو الاجتماعى، وماتتطلبه من تفاعل.. فقدم فى دراسته مجموعة من الملاحظات المهمة، التى تعد بمثابة برنامجًا للتوجيه والإرشاد النفسى فى رعاية الطفولة، فيذكر هذه الإرشادات على الوجه الآتى:

* ضرورة تقبيل الأولاد والحنو عليهم والرقة فى معاملتهم.

---

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود. «فصل تسمية الأولاد» ص ١٠٤ .

* وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم فى العطاء والمنع. وإذا كانت هذه الإرشادات قد قدمها على وجه العموم.. فإننا نراه قد استفاض فى شرح بعض المهام، التى ينبغى مراعاتها فى تربية الأطفال، وهى:

فى أمر تغذية الطفل

١- ينبغى أن يكون رضاع المولود من غير أمه بعد وضعه يومين أو ثلاثة، لما فى لبنها فى ذلك الوقت من الغلظ والإخلاط.

٢- ينبغى أن يمنع من حمل الأطفال والتطواف بهم؛ حتى يأتى عليهم ثلاثة أشهر فصاعداً لقرب عهدهم ببطون الأمهات.

٣- ينبغى أن يقتصر بهم على اللبن وحده إلى نبات أسنانهم لضعف معدتهم وقوتهم الهاضمة عن الطعام، فإذا نبتت أسنانه قويت معدته وتغذى بالطعام.. فإن الله سبحانه وتعالى قد أخر إنباتها إلى وقت حاجته إلى الطعام لحكمته ولطفه، ورحمة منه بالأم وحلمة ثديها فلا يعضها الولد بأسنانه.

٤- ينبغى تدريج الطفل فى الغذاء، فأول ما يطعم اللبن والخبز المنقوع فى الماء الحار واللبن الحليب، ثم بعد ذلك الطبيخ والأمراق الخالية من اللحم، ثم بعد ذلك مالطف جداً من اللحم بعد إحكام مضغه أو رضه رضا ناعماً.

ويرى ابن قيم الجوزية أن هناك من الأمور التى تطرأ على الطفل فى نموه، وهى ما يخص حركاته، نذكرها فيما يلى:

فى متابعة نمو الطفل وحركاته:

١- إذا قرب الطفل من وقت التكلم وأريد تسهيل الكلام عليه، فليدلك لسانه بالعسل والملح والأندرانى، لما فيهما من الجلاء للرطوبات الثقيلة المانعة من الكلام.

٢- إذا جاء وقت نطقهم فليكن أول ما يقرع مسامعهم معرفة الله سبحانه وتعالى

وتوحيده، وأنه سبحانه فوق عرشه، ينظر إليهم ويسمع كلامهم وهو معهم أينما كانوا.

٣- إذا حضر وقت نبات الأسنان.. فينبغي أن تدلك لثاهم كل يوم بالزبد والسمن، ويمرخ حدر العنق تمريخًا كثيراً، ويحذر عليهم كل الحذر وقت نباتها إلى حين تكاملها وقتها من الأشياء الصلبة، ويمتنعون منها كل المنع لما في التمكن منها من تعريض الأسنان لفسادها وتعويجها وخللها.

٤- ولاينبغي أن يشق على الأبوين بكاؤه وصراخه، ولاسيما لشربه اللبن إذا جاع فإنه ينتفع بذلك البكاء انتفاعًا عظيمًا.. فإنه يروض أعضاءه ويوسع أمعاءه، ويفسح صدره ويسخن دماغه ويحمى مزاجه، ويثير حرارته الغريزية، ويحرك الطبيعة لدفع مافيها من الفضول، ويدفع فضلات الدماغ من المخاط وغيره.

٥- وينبغي أن يوقى الطفل من كل أمر يفزعه من الأصوات الشديدة الشنيعة والمناظر الفظيعة والحركات المزعجة.. فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العاقلة لضعفها، فلا ينتفع بها بعد كبره.

مرحلة الفطام وأهميتها

يعطى ابن قيم الجورية أهمية كبيرة لمرحلة الفطام، واسترشد أن الله تعالى قد ذكر في أمر الفطام والرضاعة (**والوالدات يرضعن أولادهن حولين**.. الآية إلى قوله تعالى: **إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف**).

قد حددت الآية الكريمة أن تمام الرضاع حولان، وذلك للولد إذا احتاج إليه... وأن الأبوين إذا أرادا فطامه قبل ذلك بتراضيهما وتشاورهما، مع عدم مضرة الطفل فلهما ذلك.

وينبغي للأمّ أن تتدرج في فطام الطفل، ولاتفاجئه بالفطام وهلة واحدة، بل تعوده إياه وتمرنه عليه لمضرة الانتقال عن الألف والعادة مرة واحدة.

تحذيرات وتنبيهات فى رعاية الطفل:

١- ينبغى أن تجنب الطفل كثرة الأكل والشرب، ويحدد ابن قيم الجوزية ذلك عندما يقول:

إن من أنفع التدبير لهم أن يعطوا دون شبعهم ليجود هضمهم وتعتدل أخلاطهم وتقل الفضول فى أبدانهم وتصح أجسادهم وتقل أمراضهم لقلة الفضلات.

٢- ومن يطعم الأطفال دون شبعهم، ترتفع قاماتهم وتعتدل أجسامهم، ويقل فيهم ما يعرض لغيرهم من الكزاز ووجع القلب.

٣- ومما ينبغى أن يحذر منه أن يحمل الطفل على المشى قبل وقت؛ لما يعرض فى أرجلهم بسبب ذلك من الانتقال والاعوجاج بسبب ضعفها وقبولها لذلك.

٤- ينبغى مراعاة وقت طعام الطفل ووقت نومه وبوله وإخراجه.

فى تربية أخلاقه وتهذيبه:

ويرى ابن قيم الجوزية أن ما يحتاج إليه الطفل ـ غاية الاحتياج ـ الاعتناء بأمر خلقه؛ فإنه ينشأ عما عوده المربى فى صغره من غضب ولجاج وعجلة وخفة مع هواه وطيش وحدة وجشع؛ فيصعب عليه فى كبره تلافى ذلك.

وتعتبر هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرز منها غاية التحرز فضحته، ويرى أن التربية والتنشئة الاجتماعية تلعب دوراً مهماً فى انحراف أو اعتدال الأخلاق.

ويرى ابن قيم الجوزية أنه ينبغى مراعاة:

أ) أن يتجنب الصبى إذا عقل مجالس اللهو والباطل والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء.

(ب) أن يعود الآباء والأمهات الأبناء العطاء، ويجنبوهم الكذب والخيانة (فإنه متى سهل عليهم سبيل الكذب والخيانة أفسد عليهم سعادة الدنيا والآخرة وحرمهم من كل خير).

(جـ) يجب أن نجنب الأطفال الكسل والبطالة والدعة والراحة؛ لأن أروح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أروح الناس، فالسعادة فى الدنيا والسعادة فى العقبى، لا يوصل إليها إلا على جسر من التعب.

(د) الحذر كل الحذر من تمكين الطفل من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره، وعشرة من يخشى فساده أو كلامه، أو الأخذ من يده بما يجعله منساقًا له تبعًا لأوامره الفاسدة.

(هـ) ينبغى أن نجنب الطفل كل العوامل، التى قد تؤدى به إلى الميوعة، وأن تعوده السلوكيات، التى تجعله مؤديًا لدوره الاجتماعى والأخلاقى؛ تبعًا لأوامر الشرع وتعاليم الدين.

(و) تشجيع الطفل من الأمور الضرورية والاهتمام بقدراته، وتعليمه بعض المناشط وتشجيعه على ممارستها.

(ز) مراعاة استعدادات الطفل من الأمور المهمة، التى يرشدنا إليها ابن قيم الجوزية فيقول:

«ومما ينبغى أن يعتمد حال الصبى وماهو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها فيعلم أنه مخلوق له فلا يحمله على غيره ماكان مأذونًا فيه شرعًا فإنه إن حمل على غير ماهو مستعد له لم يفلح فيه وفاته ماهو مهيأ له. فإذا رأى الوالد أن الطفل حسن الفهم صحيح الإدراك جيد الحفظ واع فهذه من علامات قبوله وتهيؤه للعمل وإن رأى خلاف ذلك فعليه أن يحول طاقاته إلى أمور حرفية أخرى يجد فيها الطفل متنفسًا لتوظيف هذه القدرات»[1].

وهكذا. استطاع ابن قيم الجوزية - من خلال دراسته - أن يتناول مرحلة الطفولة، وما تتطلبه من رعاية وإرشاد وتوجيه، يجعلانه فى موضع الريادة لما نسميه اليوم بعلم النفس الارتقائى، أو علم نفس النمو.

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود، ص ١٨٨.

◆ ابن جماعة والمعلم المرشد

(نموذج إرشادى إسلامى فى ضرورة الإعداد النفسى للمعلم والمتعلم)

- على المعلم أن يصون العلم، ويقوم له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف، فلابد بذله بذهابه ومشيه إلى غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة، أو حاجة إلى من يتعلمه منه وإن عظم شأنه وكبر قدره.

- أن ينزه علمه عن جعله سلماً يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة أو خدمة أو تقدم على أقرانه.

- أن يحرص على تعليم طالبه وتفهيمه ببذل جهده وتقريب المعنى له من غير إكثار لايحتمله ذهنه، أو بسط لا يضبطه حفظه، ويوضح لمتوقف الذهن العبارة ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره[1].

---

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم، نسخة وحيدة مطبوعة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٦٩٨٨ ب.

(*) ظهرت طبعة عن دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٠، وقد رجعنا إلى هذه الطبعة.

الإمام الجليل أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن على بن جماعة بن حازم بن صخر قاضى القضاة، بدر الدين الكنانى الحموى الشافعى (ولد عام ٦٩٣ وتوفى ٧٣٣هـ).

وهو أحد العلماء المسلمين، الذين قدموا لنا إسهاماتهم فى ضرورة تجويد العملية التعليمية، من خلال توطيد أواصر العلاقة الحميمة الحانية بين المعلم وطالبه، وقدم من خلال دراسته الموسومة باسم (تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم)(*) أهم ما يمكن أن يقال فى الإرشاد النفسى، ودور المعلم المرشد الموجه لطلابه لتتم العملية التعليمية على الوجه الأكمل.

فإذا كان هناك من يتصور الآن الإرشاد النفسى؛ على أساس أنه يمثل عبئًا جديدًا يضاف إلى مهام المدرسين والمربين، وأن الإرشاد النفسى ماهو إلا أسلوب تقوم به جماعة أو أخصائى يعاون المعلم على تحقيق رسالته.. فإن ابن جماعة يرى أن الإرشاد النفسى من أهم المهام التى ينبغى أن تلقى على عاتق المعلم، وأن المعلم الذى لايقوم بالعملية الإرشادية لايقوى على أن يقوم المعلومات بالصورة المرضية.. فمهنة المعلم لاتنحصر فى إمداد الطلاب والتلاميذ بالمعلومات الواردة فى المناهج الدراسية، ولكنها تتجدد من خلال ما يقدمه من توجيهات وإرشادات، من شأنها أن ترتقى بقدرات المتعلمين فى كافة الجوانب

وتنبه ابن جماعة أيضًا إلى ضرورة أن توجه العملية التعليمية نفسها لمصلحة

(*) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم نسخة وحيدة مطبوعة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٦٩٨ (ب). ظهرت طبعة عن دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٠، وقد رجعنا إلى هذه الطبعة.

التلميذ، وكأنه ينبهنا إلى ضرورة الاهتمام بالتوجيه التعليمي، ذلك الذي يمثل الآن مشكلة المشكلات. . . فكثيراً مانجد المشكلات التي تظهر من عدم صلاحية وضع الطلاب في الموضع المناسب من الكليات المعاهد، وأن هناك من المحكات التي قد لا ترتقي إلى مستوى الموضوعية، يعتمد عليها في تنسيق وتصنيف الطلاب. . . وقد تنبه أستاذ الجيل الدكتور عبد العزيز القوصي إلى هذه المشكلات، ومن خلال بحوثه الرائدة في هذا المضمار، يقول: «يظن بعض الناس أن التوجيه ربما ينصب على التلميذ وحده، وأن هناك أنواعًا من التعليم يوجه لها التلميذ؛ بمعنى أننا نقوم بتوجيهه لهذا النوع أو ذاك من أنواع التعليم، التي لا يمكن أن يلحقها تبديل أو تغيير، ولكن هؤلاء ينسون أن عملية التوجيه تقوم على افتراض أنه يمكن تغيير كل من الطرفين: التلميذ من جهة والتعليم من جهة أخرى».

ويحدد الدكتور القوصي - في دراسته - الهدف من التوجيه التعليمي، فيقول:

«أما الهدف الذي يسعى إليه المربون من وراء التوجيه التعليمي، فهو تهيئة الظروف التعليمية التي تكشف عن أحسن ما ينطوي عليه التلاميذ، والعمل على توجيههم، بحيث يصبح من الممكن أن يطرد نموهم بعد هذا»[1].

وهكذا. . يتضح لنا أن كل مدرس مسئول عن رسالة الإرشاد النفسي لطلابه، والتي هي بدورها رسالة التربية ورسالة المدرسة ذاتها، وانطلاقاً من التصور الواسع لمهمة المعلم قد يكون من الممكن أن نقول إن الموقف الذي يتخذه المدرس من طلابه والاستعداد الذي يبديه نحو مساعدتهم على تصحيح أخطائهم، وعلى التغلب على ما يعترضهم من مشكلات وصعاب، يجعل من هذا المدرس مدرسا مرشداً موجهاً بدرجة من الدرجات.

وبقدر ما يزود المعلم نفسه بالمفاهيم التربوية وخصائص النمو وفنيات التدريس، بقدر ما يستطيع أن يؤدي دوره كمرشد وموجه. وحتى إذا كان هذا المدرس لم يؤهل التأهيل الكافي لمهمة الإرشاد، ولا يتمكن تماماً من فنياتها

(١) القوصي: في مدلول التوجيه التعليمي وميدانه - صحيفة التربية، السنة السابعة، القاهرة، مايو ١٩٥٥

وأساليبها التقنية . . فإنه يستطيع أن يفعل كثيراً فى توجيه الطلاب وإرشادهم، لو أنه اعتمد على الملاحظة الدقيقة لطلابه، وتتبع إجاباتهم عن أسئلته الشفوية والتحريرية ومناقشاتهم داخل الفصل وواجباتهم المنزلية ومواقفهم المختلفة، من شخصه ومن المدرسة ومن النشاط المدرسى، ومن زملائهم فى الفصل.

آداب المعلم فى نفسه:

يستهل ابن جماعة دراسته فى أدب العالم فى نفسه ومع طلبته ودرسه بذكر فضل العلم والعلماء، مسترشداً بقول الله تعالى:

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾.

وقال تعالى:

﴿بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم﴾.

وقال تعالى:

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

وقال تعالى:

﴿أولئك هم خير البرية﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشى ربه﴾.

فاقتضت الآيتان الكريمتان أن العلماء هم الذين يخشون الله تعالى، وأن الذين يخشون الله تعالى هم خير البرية . . فينتج أن العلماء خير البرية.

ويؤكد ابن جماعة أن العلماء أصحاب الفضيلة هم العاملون الأبرار المتقون، الذين يقصدون بالعلم وجه الله الكريم.

واعتماداً على هذه المنزلة الرفيعة للعلم . . يحدد ابن جماعة آداب رجل العلم فى نفسه على الوجه الآتى[1]:

* دوام مراقبة الله تعالى فى السر والعلن والمحافظة على خوفه فى جميع حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله . . فإن المعلم أمين على ما أودع من العلوم، وما

(1) رجل العلم فى تصور ابن جماعة هو المعلم الذى يقوم بالتدريس للطلاب، وهو أعلى منزلة وأعظم شأنا من أى إنسان آخر، ارجع إلى «تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم» لابن جماعة ص ٣٨ طبعة بيروت ـ ١٩٨٠ ـ دار الكتب العلمية.

منح من الحواس والمفاهيم والآراء؛ فحق للمعلم أن يتواضع لله فى سره وعلانيته ويحترس من نفسه، ويقف على ما أشكل عليه.

* أن يصون العلم ويقوم له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف، فلا يذله بذهابه ومشيه إلى غير أهله من أبناء الدنيا، من غير ضرورة أو حاجة أو إلى من يتعلمه منه منهم، وإن عظم شأنه وكبر قدره.

* أن يتخلق بالزهد فى الدنيا والتقلل منها بقدر الإمكان، الذى لا يضر بنفسه أو بعياله.

* وأقل درجات للعالم أن يستقذر التعلق بالدنيا، لأنه أعلم الناس بخستها وفتنتها وسرعة زوالها وكثرة تعبها نصبها، فهو أحق بعدل الالتفات إليها والاشتغال بغفهومها.

* أن ينزه علمه عن جعله سلماً يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية، من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة أو خدمة أو تقدم على أقرانه.

* أن يتنزه عن دنىء المكاسب ورذيلها طبعًا وعن مكروهها عادة وشرعاً، وكذلك يتجنب مواضع التهم، وإن بعدت ولا يفعل شيئاً يتضمن نقص مروءة أو ما يستنكر ظاهراً وإن كان جائزاً باطنًا.. فإنه يعرض نفسه للتهمة وعرضة للوقيعة.

* أن يحافظ على القيام بشعائر الدين وظواهر الأحكام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على الأذى باذلاً نفسه لله، لايخاف فيه لومة لائم، ويرى ابن جماعة أن العالم لابد وأن ينتفع بعلمه فينعكس على تصرفاته وسلوكه، وإذا لم ينتفع العالم بعلمه فغيره أبعد عن الانتفاع به[1].

* على المعلم أن يعامل الناس بمكارم الأخلاق من طلاقة الوجه وإلقاء السلام وإطعام الطعام وكظم الغيظ وكف الأذى عن الناس، واحتماله منهم والإيثار وترك الانتشار والإنصاف وترك الاستنصاف، وشكر التفضل والتلطف بالفقراء والرفق بالطلبة وإعانتهم وبرهم.

---

(١) قال الشافعى رضى الله عنه: ليس العلم ما حفظ، العلم ما نفع، ولهذا عظمت زلة العالم، لما يترتب عليها من المفاسد لاقتداء الناس به.

* أن يطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة، ويعمره بالأخلاق المرضية، فمن الأخلاق الرديئة (الغل والحسد والبغي والغضب لغير الله تعالى والغش والكبر والعجب والسمعة والبخل والخبث والبطر والطمع والفخر والخيلاء والتنافس في الدنيا والمباهاة بها والمداهنة والتزين للناس وحب المدح بما لم يفعل والعمى عن عيوب النفس والاشتغال عنها بعيوب الخلق والغيبة والنميمة والبهتان والكذب والفحش في القول واحتقار الناس ولو كانوا دونه فالحذر كل الحذر من هذه الصفات الخبيثة والأخلاق الرديئة فإنها باب كل شر، بل هي الشر كله).

ويشير ابن جماعة إلى جوانب إرشادية مهمة، ترتقى إلى مستوى البرامج الإرشادية، لما تحتويه من فنيات وجوانب، من شأنها أن تعالج هذه السلوكيات الرديئة السابقة، وكأنه يقدم ما اصطلح عليه الآن بلغة علم النفس المعاصر تعديل السلوك Behaviour modification .. فمن أراد أن يطهر النفس من هذه الصفات، فعله أن يداوي الحسد بالفكر العميق، الذي يراه بأنه اعتراض على الله سبحانه وتعالى في حكمته المقتضية تخصيص المحسود بالنعمة، ومن هنا فالحاسد معترض على مشيئة الله.

أما بالنسبة للعجب والزهو بنعم الله إلى مستوى الاستهزاء بالآخر.. فإن الدواء أن يتذكر الإنسان أن علمه وفهمه وجودة ذهنه وفصاحته، وغير ذلك من النعم فضل من الله عليه وأمانة عنده ليرعاها حق رعايتها، وأن معطيه قادر على سلبها منه في طرفة عين، وما ذلك على الله بعزيز.

ومن أدوية الرثاء للفكر بأن الخلق كلهم لا يقدرون على نفع الإنسان، إلا إذا أراد الله ذلك ولا على ضيره، بما لم يقدره الله تعالى عليه[1].

ومن أدوية احتقار الناس، يناشدنا ابن جماعة أن نتدبر قول الحق تعالى:

﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾.

(١) قال رسول الله ﷺ: «من سمع الله به ومن يراء يراء الله به» متفق عليه.

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾.

ومن الأخلاق السوية دوام التوبة والإخلاص واليقين والتقوى والصبر والرضا والقناعة والزهد والتوكل والتفويض وسلامة الباطن وحسن الظن والتجاوز وحسن الخلق ورواية الإحسان، وشكراً لنعمه والشفقة والحياء من الله تعالى ومن الناس ومحبة الله هي الخصلة الجامعة لمحاسن الصفات كلها، ولنا في رسول الله أسوة حسنة.

* على المعلم أن يداوم الحرص على الازدياد بالمعرفة، بملازمة الجد والاجتهاد، وأن يعد نفسه الإعداد العلمي والثقافي، وأن يستغل وقته بما يؤيده في تخصصه. ومع ذلك ينبه ابن جماعة إلى ضرورة ألا يحمل المعلم نفسه فوق طاقتها كي لا تسأم وتمل فربما نفرت نفرة لا يمكنه تداركها، بل يكون أمره في ذلك قصداً وكل إنسان أبصر بنفسه.

* ألا يستنكف أن يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه منصباً أو نسباً أو سنّاً، بل يكون حريصاً على الفائدة حيث كانت. . . فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها.

* على المعلم أن يهتم بالتصنيف والجمع والتأليف، وأن يحاول أن يجمع حقائق الفنون ودقائق العلوم للاحتياج إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة، ويضع ابن جماعة مجموعة من المحكات؛ لكي يتم للمعلم ما يريد من التأليف على الوجه الآتي:

١- أن يعتني بما يعم نفعه وتكثر الحاجة إليه.

٢- ليكن اعتناؤه بما لا يسبق إلى تصنيفه.

٣- أن يتحرى إيضاح العبادة في تأليفه.

٤- أن يبتعد عن التطويل الممل والإيجاز المخل، مع إعطاء كل مصنف ما يليق به.

٥- أن يراجع تصنيفه بحيث لا يخرج من يده، قبل تهذيبه وتكرير النظر فيه وترتيبه.

آداب المعلم في درسه:

يرى ابن جماعة أن المعلم بعد أن يتصف بهذه الصفات في نفسه والحرص على أن يتزود بها.. فإن هناك مجموعة من الآداب، التي ينبغي مراعاتها في درسه، وكأنه يؤكد الحقيقة التي تتردد كثيراً في مضمار الصحة النفسية، وهي (فاقد الشيء لا يعطيه)؛ بمعنى أن الإنسان إذا كان متوافقاً مع نفسه.. انعكس هذا التوافق في تعامله مع الآخرين، ومن هنا نجد ابن جماعة يضع بعض الآداب للمعلم؛ لكي يقدم درسه لطلابه على الوجه الأكمل؛ إذ لابد من مراعاة الجوانب الآتية:

١- أن يجهز نفسه إذا عزم على مجلس التدريس، بأن ينظف نفسه ويتطهر ويلبس أحسن ثيابه اللائقة به، بحيث يعظم العلم من خلال مظهره المشرف.

٢- أن يدعو الله بالتوفيق ويحاول أن يتجنب الحركات العشوائية، التي قد تشغل بال الطلاب، وأن يبتعد عن كل الأفعال التي تقلل الهيبة.

ولا يدرس في وقت جوعه أو عطشه أو همه أو غضبه أو نعاسه أو قلقه فربما أجاب أو أفتى بغير الصواب.

٣- أن يجلس بارزاً لجميع الحاضرين ويلتفت إليهم التفاتًا قصداً بحسب الحاجة ويخص من يكلمه أو يسأله، أو يبحث عن الذي يحتاج إلى مزيد من الالتفات إليه والإقبال عليه.

٤- يرى ابن جماعة إذا تعددت الدروس.. فعلى المعلم أن يقدم الأشرف فالأشرف والأهم فالأهم (مثلاً يقدم تفسير القرآن ثم الحديث ثم أصول الدين ثم أصول الفقه).

٥- يقدم ابن جماعة بعض النصائح للمعلم أثناء التدريس، بأن يطالب المعلم أن

يقف فى مواضع الوقف، وأن يصل الخبرات بعضها ببعض ولا يتقيد بمصنف أو مؤلف بغية عدم تطويل الفكرة الواحدة، مع مراعاة التشويق وإثارة المستمع، ولا يرفع صوته زائداً عن قدر الحاجة، ولا يخفضه خفضاً لا يحصل معه كمال الفائدة.

٦- أن يصون مجلسه عن اللغط فإن الغلط تحت اللغط، وأيضاً ينبغى أن يصان المجلس عن رفع الأصوات واختلاف جهات البحث.

٧- أن يزجر من تعدى فى بحثه أو ظهر منه سوء أدب أو أكثر الصياح بغير فائدة وساء أدبه على غيره من الحاضرين والغائبين، أو ترفع فى المجلس على من هو أولى منه أو نام أو تحدث مع غيره أو ضحك أو استهزأ بأحد الحاضرين.

٨- أن يلازم المعلم الإنصاف فى بحثه ويسمع السؤال من مورده على وجهه، إن كان صغيراً ولا يترفع عن سماعه فيحرم الفائدة، وإذا سأل أحد الطلاب المعلم عن مالم يعلمه قال: لا أعلمه أو لا أدرى، فمن العلم أن يقول لاأعلم... وعليه أن يرجع إلى المصنفات والكتب لكى يتثبت من صدقه وصحة إجاباته.

٩- أن يختم الدرس وأن يقف عند فكرة تمكنه من استئناف درسه فى المرة القادمة، بطريقة مشوقة تمكن المستمع من الاستزادة أكثر، والاستمتاع بما يسمعه لأنه يشعر بحاجته إليه.

آداب المعلم مع طلبته:

١- أن يقصد المعلم بتعليم طلابه وتهذيبهم وجه الله تعالى وإحياء العلم ونشره، ودوام ظهور الحق وخمول الباطل، وأن يرغبهم فى العلم وطلبه.

٢- أن يحب المعلم لطالبه ما يحبه لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه، وينبغى أن يعتنى بمصالح الطالب، ويعامله بما يعامل به أعز أولاده من العفو والشفقة عليه والإحسان إليه، والصبر على جفاء ربما وقع منه أو نقص

لايكاد يخلو الإنسان منه وسوء أدب فى بعض الأحيان، ويبسط عذره بحسب الإمكان.

٣- يوجهه ويرشده نفسيًا على ما قد يصدر منه من سلوكيات غير سليمة بلطف بعيداً عن القسوة، قاصداً بذلك حسن تربيته وتحسين خلقه وإصلاح شأنه... ويقول ابن جماعة: «فإذا عرف الطالب توجيهات المعلم لذكائه بالإشارة فلا حاجة إلى صريح العبارة وإن لم يفهم ذلك إلا بصريحها أتى بها وراعى التدريج فى التلطف»[1].

٤- أن يسمح له بسهولة الإلقاء فى تعليمه وحسن التلطف فى تفهيمه، لاسيما إذا كان أهلاً لذلك لحسن أدبه وجودة طلبه.

٥- وينبه ابن جماعة إلى ضرورة مراعاة الاستعدادات والقدرات لدى الطلاب، بحيث لا تقدم لهم معلومات أكبر من قدراتهم أو تفوق تهيؤهم واستعداداتهم، فيقول: ينبغى على المعلم أن «لا يلقى رلى الطالب مالم يتأهل له لأن ذلك يبدد ذهنه ويفرق فهمه»[2].

٦- أن يحرص على تعليمه وتفهيمه ببذل جهده وتقريب المعنى له من غير إكثار، لا يحتمله ذهنه أو بسط لا يضبطه حفظه، ويوضح لمتوقف الذهن العبارة، ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره.

وهنا يتضح أن ابن جماعة ينبه إلى ضرورة مراعاة الفروق الفردية، بل يضع لها البرامج الإرشادية التى تجعل المعلم يتابع هذه الفروق، ويعمل على تزويدها بحيث يرتفع بالأقل قدرة وينمى أصحاب القدرات العالية[3].

٧- أن يطالب الطلبة بإعادة ما قد حفظوه، ويمتحن ضبطهم لما قدم لهم من القواعد المهمة والمسائل الغريبة.

(١، ٢) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم ص.ص ٥٢-٥٣ (فى آدب العالم مع طلبته).

(٣) ارجع إلى رأى ابن جماعة فى أمر إرشاد الطلاب أصحاب القدرات الأقل ص ٥٣. (تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم).

ومن هذا المنطلق يؤكد ابن جماعة ضرورة الثواب والعقاب حيث ينبه المعلم إلى ذلك، ويؤكد مافي الثواب والعقاب من تجويد، فمن يراه المعلم مصيباً في الجواب فلابد وأن يشكره لكى يبعثه على الاجتهاد فى طلب الازدياد، ومن رآه مقصراً فلابد من تشجيعه وتأنيبه فى الوقت نفسه على علو الهمة ونيل المنزلة فى طلب العلم؛ لاسيما إن كان ممن يزيده التعنيف نشاطًا والشكر انبساطًا[١].

٨- الا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض، وكذلك لا يقدم أحداً فى نوبة غيره أو يؤخره عن نوبته إلا إذا رأى فى ذلك مصلحة تزيد على مصلحة مراعاة النوبة.

٩- وينبه ابن جماعة إلى ضرورة الاقتصاد فى الجهد وتوزيع الوقت والطاقة بما يتفق وقدرة الطالب على التحمل؛ فيؤكد ابن جماعة ذلك قائلا: إذا سألك الطالب فى التحصيل فوق ما يقتضيه حاله أو تحمله طاقته، فينبغى أن ترفق به وتعلمه أن يوزع مجهوده وطاقاته بما يحمله على الأناة والاقتصاد فى الاجتهاد، وكذلك إذا ظهر له منه نوع سآمة أو ضجراً».

١٠- على المعلم أن يراقب أحوال الطلبة فى آدابهم وهديهم وأخلاقهم باطناً وظاهراً، وكذلك يدعم أواصر المحبة والمودة بين طلابه، من خلال ما يعامل به بعضهم بعضاً من إفشاء السلام وحسن التخاطب فى الكلام والتحاسب والتعاون على البر والتقوى. وعلى المعلم أن يسعى لتحقيق مصالح الطلبة وجمع قلوبهم ومساعدتهم بما تيسر عليه من جاه ومال.. فإن الله تعالى فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه؛ ولاسيما إذا كان ذلك إعانة على طلب العلم الذى هو أفضل القربات.

ويقدم ابن جماعة بعض السلوكيات، التى تتضمن أخلاقيات، لاينبغى أن يغفلها المعلم كمرشد وموجه، على الوجه الآتى:

---

(١) المرجع السابق ص ٥٥.

* إذا غاب بعض الطلبة غياباً زائداً عن العادة، سأل عنه وعن أحواله عن كل ما يتعلق به.. فإذا لم يعلم عنه شيء أرسل إليه أو قصد منزله بنفسه وهو أفضل.

* إذا كان الطالب مريضا عادة إن كان في غم خفض عليه، وإن كان مسافراً تفقد أهله ومن يتعلق به وسأل عنهم وتعرض لحوائجهم ووصلهم بما أمكن، وإن كان فيما يحتاج إليه فيه أعانه، وإن لم يكن شيء من ذلك تردد عليه ودعا له.

(أعلم أن الطالب الصالح أعود على المعلم بخير الدنيا والآخرة من أعز الناس عليه وأقرب أهله إليه).

* أن يتواضع من الطالب وكل مسترشد سائل، إذا قام بما يجب عليه من حقوق الله تعالى وحقوقه، ويخفض له جناحه يلين له جانبه.

وإذا كان ابن جماعة قد عرض لنا هذا التكامل بين جوانب شخصية المعلم وعلاقته كموجه ومرشد لطلابه.. فإن ابن جماعة قد حدد أيضاً ضرورة أن يتزود الطالب نفسه ببعض العوامل، التي تجعله أهلاً لتلقي العلم ومنبتًا صالحاً لغرس بالمعلم وتوجيهاته.

لقد نهج ابن جماعة المنهج نفسه الذي اتبعه في تفصيل جوانب المعلم من حيث أدبه مع نفسه، ومع درسه، ومع طلابه، فإننا نجده أيضاً قد حدد في دراسته في آداب المتعلم الجوانب نفسها، من حيث فروعها الثلاثة على الوجه الآتي:

أولاً: آداب الطالب مع نفسه

* أن يطهر قلبه من كل غش ودنس وغل وحسد وسوء عقيدة وخلق؛ ليصلح لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه.

* أن يكون حسن النية في طلب العلم بأن يقصد به وجه الله تعالى، والعمل به وإحياء الشريعة وتنوير قلبه، وتحلية باطنه والقرب من الله تعالى.

* أن يبادر شبابه وأوقات عمره إلى التحصيل لا يغتر بخدع التسويف.. فإن كل ساعة تمضى من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها.

* على الطالب أن يقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجد فى التحصيل؛ «فالعلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك».

* أن يقنع الطالب بمعيشته ومن القوت بما تيسر، وإن كان يسيراً ومن اللباس بما يستر؛ فالصبر على ضيق العيش يؤدى إلى سعة العلم.

* أن يقسم وقته تقسيماً عادلاً؛ بحيث لا يحرم نفسه من الترويح وأجود الأوقات للحفظ الأسحار وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار وللمطالعة والمذاكرة الليل.

* أن يتجنب كثرة الأكل.. فإن كثرة الأكل تؤدى إلى البلادة وقصور الذهن وفتور الحواس وكسل الجسم، إلى جانب التعرض لخطر الأسقام البدنية.

* أن يأخذ بالورع ويتحرى الحلال فى طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه.

* أن يحرص على رياضة البدن أو المشى وأن يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره، إذا كل، وأن يتنزه ويروح عن نفسه بحيث يستعيد نشاطه وحيويته، وأن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر فى بدنه وذهنه، ولا يزيد فى نومه فى اليوم والليلة عن ثمانى ساعات.

ثانيا: آداب الطالب مع معلمه (شيخه)

يحدد ابن جماعة مجموعة الآداب التى ينبغى أن يراعيها طالب العلم مع معلمه، على الوجه الآتى:

(أ) أن يطيع معلمه ولا يخرج عن رأيه وتدبيره.. بل سيكون معه على حد تعبير ابن جماعة (كالمريض مع الطبيب الماهر فيشاوره فيما يقصده ويتحرى رضاه

فيما يعتمده ويبالغ فى حرمته وليعلم الطالب أن ذله لشيخه عز وخضوعه له فخر وتواضعه له رفعة[1]).

(ب) أن ينظر إلى المعلم بعين الإجلال ويعتقد فيه درجة الكمال.. فإن ذلك أقرب إلى نفعه به، ولا ينبغى أن يناديه باسمه إلا مقروناً بما يشعر بتنظيمه.

(جـ) أن يعرف له حقه ولا ينسى له فضله وأن يصبر على جفوته، وأن يشكر الشيخ (المعلم) على توفيقه على ما فيه فضيلة، وعلى توبيخه على ما فيه نقيصة أو على كسل يعتريه أو قصور يعانيه.

(د) أن يستأذن قبل أن يدخل على المعلم، وأن يحرص على أن يكون كامل الهيئة معطر البدن والثياب، وإذا دخل على المعلم وكان معه من يتحدث معه فسكتوا عن الحديث.. فعلى الطالب أن يسلم ويخرج سريعاً إلا أن يحثه المعلم على البقاء... وحتى إذا بقى فى الغرفة فعليه ألا يطيل إلا إذا أمره المعلم بذلك.

(هـ) أن يجلس بين يدى المعلم جلسة الأدب بتواضع وخضوع وسكون وخشوع، ويصغى إلى المعلم ناظراً إليه بعمق انتباه متعقلاً لقوله بحيث لا يحوجه إلى إعادة الكلام مرة ثانية، ولا يتلفت من غير ضرورة ولا يعبث بما فى أنفه ولا يفتح فاه ولا يشبك يديه أو يعبث بأزراره وإذا تثاءب ستر فاه.

(و) أن يحسن مخاطبة أستاذه، وأن يتحفظ من مخاطبة الشيخ بما يعتاده بعض الناس فى كلامه.

(ز) إذا سمع أستاذه (معلمه) يذكر حكماً فى موضوع أو يدلى برأى فى مشكلة.. فعليه أن يصغى إليه إصغاء مستفيد له متعطش إليه، فرح به كأنه لم يسمعه قط، وإذا لم يسمع كلام المعلم لبعده، أو لم يفهم بعض الآراء التى طرحها.. فله أن يسأله المعلم أن يعيد تفهيمه بعد بيان عذره بسؤال لطيف.

---

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم ص ٨٧ (فى آداب الطالب مع شيخه).

(ح) على الطالب ألا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سواء منه أو من غيره ولا يسابقه فيه ولا يظهر معرفته به أو إدراكه له قبل الشيخ، إلا إذا عرض عليه المعلم ذلك، ولا ينبغى أن يقطع على المعلم كلامه أى كلام كان، بل عليه بالصبر حتى يفرغ الشيخ ثم يتحدث معه أو مع جماعة المجلس.

(ط) إذا مشى الطالب.. فإن هناك آدابًا للمشى مع المعلم، يحددها ابن جماعة فى قوله «إذا مشى مع الشيخ فليكن أمامه بالليل وخلفه بالنهار إلا أن يقتضى الحال... وإذا مشى أمامه التفت إليه بعد كل قليل ولا يمشى لجانب الشيخ إلا لحاجة أو إشارة منه ويحترز من مزاحمته بكتفه أو بركابه، إن كانا راكبين وملاصقة ثيابه، ويؤثره بجهة الظل فى الصيف وبجهة الشمس فى الشتاء وبجهة الجدار فى الرصفانات ونحوها»[1].

ثالثا: آداب الطالب فى دروسه

يرى ابن جماعة أن هناك بعض الأمور، التى ينبغى مراعاتها بالنسبة لطالب العلم تتعلق بدروسه، وهى بمثابة آداب ينبغى أن يتحراها طالب العلم بدقة، إذا أراد لنفسه أن تبلغ شأناً فى مضمار العلم؛ فينبغى على الطالب من وجهة نظر ابن جماعة:

* أن يبتدئ بكتاب الله العزيز فيتقنه حفظاً، ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه فإن أصل العلوم وأمها وأهمها، ثم عليه بحفظ مختصر من كل فن على أن يلازم القرآن الكريم.
* أن يحذر فى ابتداء أمره من الاشتغال فى الاختلافات بين العلماء، أو بين الناس، بل عليه أن يتقن العلم أولاً، ثم يدخل بعد ذلك فى المناقشات ويتعامل مع الاختلافات.
* على الطالب أن يصحح ما يقرؤه قبل حفظه تصحيحاً متقناً، إما بالاسترشاد بأستاذه أو بسؤال الزملاء، وعليه أن يجهز نفسه بالأدوات الدراسية، التى تساعده على أن يسجل أفكاره وما يسمعه من معلومات.

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص ١١٠.

* أن يبتعد عن الغرور والنظر إلى نفسه بعين الكمال، الذى يجعله في حالة استغناء عن المعلم فإن ذلك عين الجهل وقلة المعرفة[1].

* أن يتأدب مع الزملاء ويعاملهم بالحسنى وأن لا يستحى من سؤال ما أشكل عليه، وتفهم مالم يتعقله بتلطف وحسن خطاب وأدب وسؤال، وكذلك لاينبغى للطالب أن يستحى من قوله: لم أفهم إذا سأله أستاذه؛ لأن ذلك يفوت عليه كما يرى «ابن جماعة» مصلحته العاجلة والآجلة، أما العاجلة فحفظ المسألة ومعرفتها واعتقاد أستاذه فيه الصدق والورع والرغبة والآجلة سلامته من الكذب والنفاق واعتياده التحقيق»[2].

* أن يساعد الزملاء ويرغبهم فى التحصيل ويدلهم على الكتب والمراجع، التى تساعدهم ويصرف عنهم الهموم التى تشغلهم ويهون عليهم، ومن يبخل على الزملاء لا يثبت علمه وحتى إن ثبت فلا ثمرة له.

وإذا كان ابن جماعة قد أعطى الموضوع حقه؛ من حيث تناوله للعملية التعليمية والعلاقة الإشادية، التى ينبغى أن تتوافر بين المعلم وطالبه.. فإن ابن جماعة قد أعطى اهتمامه إلى الآداب مع الكتب التى هى آلة العلم، وحذر من العبث بالكتب واحترام التعامل، واعتبارها أمانة فى عنقك، تسلمها لأهلك إذا كانت ملكك أو تسلمها للآخر إذا كانت معارة لك، ومثل هذه الآراء التى أفاض ابن جماعة فى شرحها فى دراسته - التى نحن بصددها - قد جعلتنا نتبين كيف كان هذا العالم الجليل موجهاً ومرشداً، حيث تناول العملية التعليمية من جميع جوانبها.

ويستطيع المتأمل المنصف والدقيق لدراسة ابن جماعة عن آداب سكنى المدارس أن يتبين كيف تنبه العالم الجليل إلى المشكلات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والصحية لنظام (الداخلية)، أعنى به نظام السكن داخل المنشأة التعليمية؛ بحيث

(١) يسترشد ابن جماعة بقول ابن جبير: «لايزال الرجل عالماً ما تعلم ماذا ترك التعلم، وظن أنه استغنى فهو أجهل ما يكون».

(٢) فى آداب الطالب مع درسه ص ١٦٠.

نجد ابن جماعة قد قدم أعظم البرامج الإرشادية لتخطيط المدارس وطرق معاملة الطلاب داخل المدارس. والظريف أنه تنبه منذ التاريخ القديم إلى المشكلات، التى نعانى منها الآن ونقف أمامها فى حيرة وقلق، مثل:

* الكتابة على جدران دورات المياه وجدران المدرسة بصورة بذيئة أو معيبة.
* العبث بأدوات المدرسة وتحطيمها وكيف يحرص الطلاب عليها.
* ضرورة إحساس الطلاب بالانتماء إلى مدرستهم أو إلى مؤسساتهم التعليمية.
* آداب الدخول والخروج من المدارس وآداب النزول والصعود.
* النهى عن الجلوس فى مداخل المؤسسات التعليمية
* الأدب فى المشى داخل المؤسسة التعليمية، والحذر من معاكسة الجيران المحيطين بالمنشأة التعليمية.
* منع الطلاب من التجرد عن الثياب فى المواضع المكشوفة فى المدرسة، وتجنب العادات القبيحة كالضحك الفاحش، أو الصعود إلى سطح المدارس من غير حاجة أو ضرورة.
* الاهتمام بملابس الطلبة وحثهم على الاعتدال فى الملبس والحشمة والتحفظ والحرص على سمعة المنشأة.

وهكذا،

استطاع العالم الجليل ابن جماعة أن يضع أمامنا مشروعًا للإعداد الفنى التربوى للمعلم والطالب، نجد فيه الروح العصرية والاتجاهات التربوية النابعة من تعليم الدين الإسلامى الحنيف، والمؤكدة حقيقة مهمة مؤداها: «إن التربية الإسلامية تربية شمولية تهتم بجوانب الإنسان المتعددة، وأن التعاليم الإسلامية تعاليم كل عصر وكل زمان؛ لما تحتويه من أصالة وقيم ورؤية نفسية وعضوية وثقافية وحضارية».

وما أحوجنا هذه الأيام إلى الالتزام بقواعد هذا النموذج الإرشادى، الذى يجعل المعلم فى صورته السوية، ويحدد المسار السليم للعملية التعليمية.

◆ أبى الفرج الجوزى والقدرات العقلية

- أجل القدرات موهبة العقل فإنه الآلة فى تحصيل المعرفة وبه تضبط المصالح وتلحظ العواقب وتدرك الغوامض وتجمع الفضائل.

- العقلاء يتفاوتون فى موهبة العقل، ويتباينون فى تحصيل ما يتقنه من التجارب والعلم.

- حد الذكاء سرعة الفهم وحدته والبلادة جموده[1].

- إذا بلغك أن غنياً افتقر فصدق، وإذا بلغك أن فقيراً استغنى فصدق، وإذا بلغك أن حياً مات فصدق، وأما إذا بلغك أن أحمق استفاد عقلاً فلا تصدق[2].

---

(١) أبى الفرج الجوزى: الأذكياء: المكتب التجارى ـ بيروت ـ ١٩٦٦.

(٢) أبى الفرج الجوزى: أخبار الحمقى والمغفلين: المكتب التجارى ـ بيروت، ١٩٥٠.
ظهرت طبعة جديدة لهذه الكتب عن مكتبة الغزالى ـ بيروت، ١٩٨٠.

العالم الجليل أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على محمد بن على ابن عبيد الله الجوزى، ولد فى بغداد سنة ٥٠٧هـ وتوفى سنة ٥٩٧هـ، وقد ذكر ابن الأثير[١] أن أبو الفرج الجوزى كان علامة عصره فى التاريخ والحديث والوعظ، وما يتصل بحال الإنسان من عوامل نفسية وقدرات عقلية والجدل والكلام.

ولقد تميز بالفكر المنهجى والاسترشاد بالمواقف؛ ليخرج منها بالدرس المستفاد.. وكان يهتم بأحوال الإنسان وقدراته فى توظيف العقل، يعطى أصحاب القدرات العقلية العالية شأنًا عظيمًا فى كتاباته، وينادى بضرورة الاهتمام بهذه القدرات. وكان رحمة الله عليه، له جلد عجيب على التدوين والكتابة، فهو أحد العلماء المكثرين من التصنيف فى الموعظة والتاريخ والحديث والفقه والطب والدراسات المهتمة بالقدرات العقلية... ولعل أشهر مؤلفاته:

١- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم.

٢- المدهش فى المواعظ وغرائب الأخبار.

٣- صفوة الصفوة فى التراجم.

٤- الأذكياء وأخبارهم.

٥- روح الأرواح.

٦- الحسن البصرى سيرته وآدابه.

٧- أخبار الحمقى والمغفلين.

يذكر أبى الفرج الجوزى فى ماهية العقل ومحله[٢] أن العقل ينطلق بالاشتراك

---

(١) ابن الأثير: (الكامل فى التاريخ) مجلد ١٠ ص ٦٤٠.

(٢) أبى الفرج الجوزى: الأذكياء فى ذكر ماهية العقل ومحله ص ١٠.

على أربعة معان، أحدها (الوصف) الذى يفارق به الإنسان البهائم، وهو الذى استعد لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذى أراده من قال غريزة. ويضيف أبى الفرج الجوزى إلى كل ذلك أن العقل فى هذه المرحلة الاولى يمثل النور، الذى يقذف به فى القلب ليستعد بواسطته لإدراك الأشياء.

أما المعنى الثانى للعقل:

فيتجلى من خلال ما وضع فى الطباع من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات.

والمعنى الثالث للعقل:

ما يحصله من مجموعة العلوم التى يستفيد منها الإنسان، وتعتبر محصلة تجاربه وخبراته.

المعنى الرابع للعقل:

يتجلى فى وقته الغريزية، التى تقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة؛ بحيث يتحكم العقل فى جموع هذه الشهوة، ويهذب من حدتها ومطالبها الضاغطة على الإنسان.

ويرى أبو الفرج الجوزى أن الناس يتفاوتون فى هذه الأحوال المصاحبة للمعانى السابقة إلا فى القسم الثانى، الذى هو بمثابة الحد الأدنى الضرورى للعلم والإدراك، الذى ينبغى أن يتوافر لدى كل شخص.

ويرى أبو الفرج فى بيان «معنى الذهن والفهم والذكاء»:

«أن حد الذهن قوة النفس المهيأة المستعدة لاكتساب الآراء وحد الفهم جودة التهيؤ لهذه القوة وحد الذكاء جودة حدس من هذه القوة تقع فى زمان قصير غير ممهل (فيعلم الذكى معنى القول عند سماعه).

ويتميز الشخص العاقل صاحب القدرات العقلية العالية ببعض التصرفات، التى تجعلنا نستدل من خلالها على عقله، يحددها أبو الفرج الجوزى على الوجه الآتى:

١ - السكوت والسكون وخفض البصر.

٢- لايتحرك حركات عشوائية، ولكن حركاته فى أماكنها اللائقة بها.

٣- يراقب العواقب فلاتستقره شهوة عاجلة عقباها ضرر.

٤ - ينظر دائمًا بعين فاحصة فيتخير الأعلى والأحمد عاقبة من مطعم ومشرب وملبس وقول وفعل.

٥ - يترك ما يخاف ضرره ويستعد لما يجوز وقوعه.

ويسترشد أبو الفرج بآراء العلماء عن خصال العاقل، صاحب هذه القدرات؛ فنجده يقدم رأى أبى الدرداء فى علاقة العاقل فيقول:

«إن العاقل يتواضع لمن فوقه ولايزدرى من دونه يمسك الفضل من منطقه يخالق الناس بأخلاقهم ويحرص على الإيمان فيما بينه وبين ربه ويمشى فى الدنيا بالتقية والكتمان[1].

وأورد أبو الفرج الجوزى فى مضمار علامات الشخص العاقل على لسان لقمان، وهو يخاطب ابنه قائلاً:

يابنى مايتم عقل أمرئ حتى يكون فيه عشر خصال:

* الكبر منه مأمون والرشد فيه مأمول.
* يصيب من الدنيا القوت وفضل ماله مبذول.
* التواضع أحب إليه من الشرف والذل.
* الكرامة مع الشرف أحب إليه من العز مع الهوان.
* لايسأم من طلب المعرفة طول دهره.
* لايتبرم من إجابة ملهوف أو تقديم معروف.

(١) الأذكياء: «فى الاستدلال على عقل العاقل بالأفعال والأقوال». ص ١٥ .

* يستكثر قليل المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف من نفسه.

* أن يرى جميع أهل الدنيا خيراً منه وأنه شرهم ليجود من عمله ويصلح دائمًا من شأنه.

* غايته الشرف والسؤدد وحسن العقل.

* ومن حسن عقله غطى ذلك جميع ذنوبه.

ويسترشد أبو الفرج الجوزى بكلمات تدل على قوة الفطنة عن نبينا الأمين محمد، ﷺ، على الوجه الآتى:

«أخبرنا حارثة بن مضرب عن على عليه السلام قال لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وجدنا عندها رجلين: رجلاً من قريش ومولى لعقبة ابن أبى معيط فأما القرشى فأفلت وأما مولى عقبة فأخذناه فجعلنا نقول له كم القوم فيقول: هو والله كثير عددهم شديد بأسهم فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى النبى ﷺ فقال له كم القوم؟ فقال: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم فجهد النبى ﷺ أن يخبره كم هم فأبى... ثم سأله النبى كم ينحرون من الجزر فقال عشراً لكل يوم فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: القوم ألف لأن كل جزور لمائة.

هنا تتضح الفطنة الفطرية التى جعلت الرسول الأمين يحصى العدد، ويدرك العلاقة بين ما يأكله الأعداء وبين عددهم[1].

وأوضح أبو الفرج المواقف المتعددة لاستخدام الذكاء كقدرة عقلية فى المواقف المختلفة، وبين كيف أن هذه القدرة تمكن صاحبها من التخلص من المآزق، وأنها تجعله فى مكانة عالية إذا أحسن استخدامها. ومن خلال أمثلته ومواقفه، نستطيع أن نؤكد أن دراسة أبى الفرج الجوزى عن الأذكياء تعد إضافة رائدة للدراسات، التى تناولت أصحاب القدرات العقلية العالية، ولا يكتفى أبو الفرج الجوزى بأن يقدم لنا الذكاء كقدرة عقلية، ولكنه يقدم لنا دراسة عميقة عن ذوى القدرات

(١) ارجع إلى: المواقف والأحاديث المتعددة، التى ذكرها أبو الفرج الجوزى فى هذا المضمار، عن رسول الله محمد ﷺ ص ١٨ .

الأقل أولئك الذين أطلق عليهم (الحمقى والمغفلين)، وفي ذكر الحماقة ومعناها يقول أبو الفرج الجوزي:

«معنى الحمق والتغفيل هو الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة المقصود بخلاف الجنون فإنه عادة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعًا.

فالأحمق مقصوده صحيح، ولكن سلوكه الطريق فاسد ورؤيته في الطريق الوصال إلى الغرض غير صحيحة.

والمجنون أصل إشارته فاسد فهو يختار مالايختار.

وهنا يوضح لنا أبو الفرج الجوزي أن الحق والتغفيل مرحلة تختلف عن الجنون؛ على اعتبار أن المغفل هو ذلك الذي يتصرف بطريقة محدودة نحو ما يهدف إليه بحيث يتعثر ويضيق أفقه، إذا اعترضته مشكلة أو وضع خطة.. فإنه لايقوى على الحل البديل، ويتصرف بطريقة ضيقة، ويضرب أبو الفرج مثالاً عن بعض المغفلين فيقول:

أن طائراً طار من أمير فأمر أن يغلق باب المدينة، وكان مقصوده حفظ الطائر[1].

وفي ذكر اختلاف الناس في الحمق، يرى أبو الفرج أن الناس يتفاوتون في العقل وجوهره ومقدار ما أعطوا منه فلهذا أيضًا يتفاوت الحمق. ولقد قيل لإبراهيم النظام[2] ماحد الحمق؟ فقال: سألتني عما ليس له حد، وتلا هذه الآية الكريمة:

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾

[الانفطار: ٦]

ومن هنا.. فإن الإنسان خلق أحمق لكي ينتفع بالعيش، وقد استرشد أبو الفرج ببيت الشعر القائل:

---

(١) أبي الفرج الجوزي: أخبار الحمقى والمغفلين ص ٢٢ .

(٢) إبراهيم النظام: من الذين اتخذوا مذهب الاعتزال، هو بحر في علوم الفلسفة والفقه والنفس والآداب، ولد ١٦٠هـ، وتوفي ٢٣١هـ.

لعمرك ماشيء يفوتك نيله بغبن ولكن في العقول التغابن

وذكر أبو الفرج الجوزى فى القسم الثانى من أخبار الحمقى والمغفلين، وهو المتعلق بالخصال والأفعال؛ فيحدد أن من أخلاق الحمق العجلة والخفة والجفاء والغرور والفجور والسفه والجهل والتوانى والخيانة والظلم والضياع والتفريط والغفلة والخيلاء والمكر.

ويوضح هذه السمات ـ من خلال تصرفاته ـ لما يتعرض من أحوال ومواقف على الوجه الآتى:

* إن استغنى بطر وأن افتقر قنط.

* إن فرح أشر وإن قال فحش.

* إن سئل بخل وإن سأل ألح.

* إن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه.

* إن ضحك نهق وإن بكى خار.

ويحدد مجموعة من الدلائل على غباء الأحمق، من خلال ست خصال انفعالية، فيقول:

إنه يتميز بالغضب من غير شيء والإعطاء فى غير حق والكلام من غير منفعة والثقة بكل أحد وإفشاء السر ولايستطيع أن يفرق بين عدوه وصديقه ويتكلم ما يخطر على قلبه ويتوهم أنه أعقل الناس ويتميز بسرعة الجواب والوقيعة فى الأخبار والاختلاط بالأسرار وإن أحسنت إليه أساء إليك وإن أسأت إليه أحسن إليك وإذا ظلمته أنصفت منه ويظلمك إذا أنصفته.

ويحذر أبو الفرج الجوزى من صحبة الأحمق، ويسترشد بأحاديث وأقوال فيقول[1]:

---

(1) ارجع إلى أخبار الحمقى والمغفلين (فى التحذير من صحبة الأحمق) ص ٣٨ .

لاتؤاخي الأحمق فإنه يشير عليك ويجهد نفسه فيخطئ وربما يريد أن ينفعك فيضرك وسكوته خير من نطقه وبعده خير من قربه.

وقال بعض الحكماء مؤنة العاقل على نفسة ومؤنة الأحمق على الناس ومن لاعقل له فلادنيا له ولا آخرة.

ويوضح لنا أبو الفرج الجوزى ضرورة أن يتميز المعلم بحدة الذكاء وبقدرته على إدراك العلاقات، وحرصه الشديد على تنمية قدرات تلاميذه العقلية، والتنبه إلى خطورة عوامل الغفلة بالنسبة للمعلم؛ بوصفه قدوة.

ويرى أبو الفرج الجوزى أن بعض المؤدبين للمأمون أساء أدبه على المأمون، وكان صغيراً، فقال المأمون «ماظنك بمن يجلو عقولنا بأدبه ويصدأ عقله بجهلنا ويوقرنا بزكانته ونستخفه بطيشنا ويشحذ أذهاننا بفوائده ويكل ذهنه بغبنا فلايزال يعارض بعلمه جهلنا وبيقظته غفلتنا حتى نستغرق محمود خصاله ويستغرق مذموم خصالنا[1]».

(١) ارجع إلى أخبار الحمقى والمغفلين (الباب الثانى والعشرين) ص ١٤٠ .

◆ المرض العقلى والمرض النفسى

- أولا : المـــرض العقـــلى.
- ثانيا : المـــرض النفســى.

أولاً: ما المرض العقلى Psychosis ؟

لقد تناول العلماء المهتمون مفهوم المرض العقلى على أنه كل ما يندرج تحت زملة الاضطرابات الانفعالية، وما يتعلق بذلك من الحكم على الأشياء والسلوك والشخصية على وجه العموم؛ بحيث يبدو للعالم الخارجى Extrinsic فى صورة من الشذوذ، وعدم التوافق، والخروج على السائد المألوف.

وواضح من هذا التعريف أن المرض العقلى يجعل صاحبه يعانى اختلالاً شاملاً، واضطرابًا يمثل خطورة على شخصيته، وينعكس على مستوى تفكيره وقواه العقلية؛ بحيث يبدو:

(أ) عاجزاً عن ضبط نفسه والقيام برعايتها.

(ب) لايستطيع أن يحقق توافقه الاجتماعى النفسى.

(جـ) لايقوى على معرفة الأسباب الكافية وراء هذا الاضطراب السلوكى الذى يثير الدهشة ويدفع إلى الخوف والاضطراب.

(د) يفتقر إلى البصيرة التى تمكنه من التعرف على مشكلته.

ويمكن أن نقسم الأمراض العقلية إلى:

(١) أمراض تستند أعراضها إلى جانب عضوى.

(٢) أمراض تستند أعراضها إلى جانب غير عضوى.

وسوف نتناول كل مرض من هذه الأمراض، على الوجه التالى:

أولاً: المرض العقلى الذى يستند إلى جوانب عضوية:

تعد بعض العلل العضوية التى قد تؤدى إلى الإصابة بالمرض العقلى من الأمور التى تصيب (المخ)، أو ما يطلق عليه الجهاز العصبى المركزى، بالتلف أو التدمير إثر حادث معين أو تلف معين، أو ما يحدث فى مرحلة الشيخوخة؛ حيث تصاب بعض الخلايا بالضمور وانهيار بعض الوظائف الجسمية.

وهناك بعض الأسباب التى تؤدى إلى الدخول فى جوانب عصبية (نيورولوچية)، تؤدى إلى المرض العقلى، وهى:

الإدمان بكل أنواعه - اختلال إفرازات الغدد - التهاب الخلايا العصبية بسبب الإصابة ببعض الأمراض السرية مثل الزهرى... تلك التى تؤدى إلى اضمحلال الخلايا العصبية، وتدهور القوى العقلية لدى الإنسان.

بعض الأمراض العقلية:

بعد أن حددنا من خلال التقسيم السابق للأمراض العقلية والعوامل، التى تؤدى إلى ظهورها.. نتناول بعض الأمراض العقلية، التى قد تصادف من يعمل فى مجال العلاج النفسى أو الإرشاد النفسى، وما تتطلبه من خدمة اجتماعية، وهذه الأمراض هى:

ذهان الشيخوخة:

عندما يضطر الإنسان لاستخدام العصا، والاستماع بسماعة، والرؤية بمنظارين أحدهما للقراءة والثانى للمسافات، والمنظار الثالث للبحث عن المنظارين الآخرين وطاقم الأسنان وما يستر الصلع.. فإن هذا الإنسان يعانى من الشيخوخة، وما يصاحبها من أعراض (الضعف العام فى الصحة - نقص القوة العضلية - ضعف الطاقة الجسمية والجنسية بوجه عام). أما بالنسبة للتغيرات النفسية التى تصاحب الشيخوخة.. فإنها تتمثل فى ضعف الانتباه والذاكرة، وضيق الاهتمام، والنحافة وشدة التأثر الانفعالى والحساسية النفسية... هذه الأعراض التى قد تهدد كيانه

العاطفى والانفعالى، تترسب جميعها بحيث ينتج عنها ما اصطلح عليه فى علم النفس، الذى يهتم بالأمراض النفسية والعقلية بذهان الشيخوخة.

وجدير بالذكر أن الذى يصل إلى هذه المرحلة من السن قد بلغ به الكبر عتيًا، ويحتاج إلى عناية لإصابته بهذا المرض، والذى يتميز بالأعراض التالية:

١) اضطراب فى النوم يصاحبه قلق شديد؛ فهو دائمًا مستيقظًا ولا يعرف النوم طريقه إليه بسهولة ويسر.

٢) من الممكن أن يفقد توجيهه إلى العنوان الذى يسكن فيه، أو لا يتعرف بسهولة الأماكن التى يتردد عليها.

٣) الذاكرة عنده مشوشة، فهو لا يستطيع أن يستدعى الأحداث الماضية بسهولة، أو يتعرف أشخاصًا، سبق له التعامل معهم؛

٤) يتميز سلوكه بالعزلة والميل إلى الابتعاد عن التفاعل مع الآخرين.

٥) قد نراه يتحرك داخل غرفته ليلاً دون هدف واضح ودون إبداء السبب؛ فهو يلوذ بنفسه، يجتر تفكيره، ولايقوى على المناقشة مع أحد.

٦) تضعف عنده الحساسية الانفعالية فلا نجده متعرفًا الصغار، ولايداعب الأطفال أو يقدم لهم المكارم؛ بل يضيق بهم ولا يستطيع أن يقيم صداقات معهم.

علاج مثل هذه الحالات:

يتم علاج ذهان الشيخوخة من خلال الرعاية الاجتماعية، التى من شأنها أن تقيم لهم مؤسسات حيث هذا النوع من «الذهان»، إذا اشتد بصاحبه فقد يفقده تركيزه تمامًا ويمنع عنه بصارته، التى قد لاتجعله على درجة من الكياسة فى التعامل.

إلى جانب أن الإشراف الطبى العام من الأمور المهمة(*)؛ فيجب العمل على

(*) هناك عقاقير وأدوية مسكنة تعطى للمسنين لتخفف عنهم الامهم، إلى جانب إمدادهم بالفيتامينات الملائمة، مع الإشراف الطبى العام عليهم.

تحقيق راحته وأمنه وشعوره بالأمان والتقدير والاحترام؛ لأن الشخص فى هذه الحالة لايستطيع أن يحمى نفسه ولايعرف معنى البرودة أو السخونة.. فعلينا أن نعمل على حمايتهم فى الحر والبرد، وأن نقدم لهم الأطعمة سهلة الهضم، وأن نهيئ لهم أماكن صالحة للنوم، وكافية للضوء وجيدة التهوية.

وقد عملت الدولة المتقدمة لهم أماكن خاصة محمية، تحقق لهم هذا الإشباع النفسى والعضوى، والحماية اللازمة لكى يتمكنوا من السير، ودفع الأذى عن طريقهم وتيسير الأماكن لاستقبالهم.

بعض الأمراض السرية وعلاقتها بالمرض العقلى(**):

يقصد بالأمراض السرية الأمراض التى يصاب بها الأفراد من الممارسات الجنسية الشاذة، أو عن طريق ميكروبات وبائية للممارسة الجنسية غير المشروعة. وأخطر هذه الأمراض هو مرض «الزهرى»، وبطبيعة الحال يعد الإيدز أخطر هذه الأمراض، ولكن سوف نبدأ (بمرض الزهرى)، وذلك الذى اشتهر على المستوى الإكلينيكى بأنه مسبب للمرض العقلى.

وقد اصطلح العلماء فى هذا المجال على أن هذا المرض (الزهرى) قد اصطلح على تسميته Dementia Paralytica؛ لأنه ذو طبيعة يغلب عليها الالتهابات In-flammatory، ويتسبب من خلال أعراضه فى تقهقر المريض وإصابة المخ؛ مما يؤدى به إلى الشعور بالهزال والاضمحلال Degeneration، الذى ينعكس أثره على العقل فيضطرب الجسم تبعًا لذلك.

وهذا المرض ينعكس على الشخصية فيحدث فيها تغيرات جوهرية، تنعكس على الطباع وأسلوب الحياة، وقد يصل الأمر بالمريض إلى أنه لايقوى على التفكير أو الاستيعاب، بل وأن المرحلة المتقدمة لهذا المريض عندما يستفحل المرض.. فإننا نراه:

(*) أخطر هذه الأمراض هو «الإيدز» الآن، والدراسات تحاول أن تبحث علاقته بالمرض العقلى.

* يقع صريعًا لمشاعر الاكتئاب، بل وبعضهم يفكر فى الانتحار لا لزوم لها؛ مما ينعكس عليهم بالهلوسات والتصرفات الشاذة.

* الاضطرابات الحركية التى تبدو آثارها فى عجز المصاب فى التحكم فى استعمال أصابعه، أو الرعاش، وما يؤدى إليه من صعوبة فى النطق وعدم وضوح الكلام.

* التناقض الوجدانى فى أسلوب حياته، بحيث لايستقر على حال فتراه تارة حزينًا مهمومًا يائسًا، وتارة أخرى نراه يهذى بطريقة شاذة غير مألوفة، يحاول من خلالها أن يعبر بزهو وفخر عن نفسه.

* يفقد احترامه من خلال تصرفاته التى تبدو شاذة وغريبة، تدفع إلى التساؤل والدهشة.

وإذا كان (الزهرى) كمرض من الأمراض السرية قد تم اكتشاف درجة علاقته بالمرض العقلى، وأطلق عليه «الشلل الجنونى العام»، إلا أن الأمر يختلف عندما نتحدث عن الإيدز(*)؛ حيث يتسبب مرض الإيدز عن الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرى HIV، وكلمة إيدز AIDS اختصار التسمية الإنجليزية Acquired Immuno- Deficiency Syndrom، وتسمى باللغة العربية «متلازمة نقص المناعة المكتسبة» ويقصد بكلمة متلازمة (زملة الأعراض التى تصاحب مرض ما).

والإصابة بهذا الفيروس تؤدى إلى فقدان جسم المريض القدرة على مقاومة مسببات الأمراض المعدية، وبعض الأورام، وتكون الأمراض المتسببة فى هذه الكائنات والأورام هى السبب المباشر فى القضاء على المريض.

(*) يلاحظ أن اختيارنا «للإيدز» كمرض بسبب الخلل العقلى فيه تنبيه وإرشاد للشباب؛ لكى يحصنوا أنفسهم ضد هذا المرض «اللعين».

وتتبلور الصورة الكلينيكية لهذا المرض فى المراحل التالية:

(١) المرض الحاد:

وقد يحدث عقب العدوى بحوالى أسبوعين إلى بضعة أسابيع؛ وهو يسبق التحول حيث تظهر بعض الأعراض مثل حمى أو إجهاد أو آلام عضلية أو تضخم بالغدد الليمفاوية أو طفح جلدى والصداع والسعال.

(٢) دور الكمون:

فى خلال هذه الفترة يتكاثر الفيروس ويصيب مزيداً من الخلايا، ولكن دون ظهور أعراض، وتستمر هذه المرحلة لمدة شهور قد تمتد إلى سنوات.

(٣) تضخم الغدد الليمفاوية المنتشرة الدائمة:

حيث تظهر أعراض على شكل تضخم بالغدد الليمفاوية، وتستمر أكثر من ثلاثة أشهر دون أى سبب ظاهر.

(٤) الأعراض المرتبطة بالإيدز:

تظهر خلال هذه المرحلة بعض الأعراض مثل نقص فى الوزن أكثر من ١٠٪ ـ حمى دون سبب ظاهر ـ إسهال دون سبب ظاهر، ويستمر لفترة طويلة تظهر بعدها مجموعة أعراض أخرى.

(٥) الإيدز:

وهنا يصاب الفرد بأمراض خطيرة، مثل: الالتهابات الرئية ـ الجهاز العصبى ـ وهنا تظهر علاقة هذا المرض الخطير بالجنون العقلى، إلى جانب ما يصاحب هذا المرض الخطير من ردود الفعل الاجتماعية والاقتصادية الشديدة للإيدز، والعدوى بالفيروس إلى تأثيرات قاسية على المستوى الشخصى والأسرى والاجتماعى للمريض، فغالبًا ما ينبذ مرضى الإيدز والمصابين بالعدوى من الأسرة والمجتمع، فى الوقت الذى يكونون فيه فى أمس الحاجة إلى المساندة والرعاية(*).

(*) تجرى الدراسات الآن تحت إشراف منظمة الصحة العالمية حول ارتباط مرض الإيدز بالأمراض العقلية، حيث أشارت النتائج المبدئية إلى أنه يؤدى إلى خلل فى الدماغ، ويدمر الجهاز الليمفاوى.

الأمراض العضوية العقلية غير العضوية:

وهناك بعض الأمراض العقلية المرتبطة بعوامل غير عضوية؛ أى لا ترجع العلة أو السبب إلى عوامل عضوية، كما أشرنا بالنسبة للأمراض العقلية السابقة، وأول هذه الأمراض:

انفصام الشخصية:

وهو المرض الذى اشتهر مع المصطلح الذى يحدده «سكيزوفرينيا»، وهو يعطى مؤشرات عن تدهور بطئ للشخصية، يستمر مع مراحل العمر قد يبدأ فى مرحلة المراهقة ويطلق عليه «جنون المراهقة»؛ حيث إذا تعرضت هذه الفترة إلى مجموعة من العوامل غير المواتية؛ فقد يؤدى إلى إغراق المراهق فى أحلام اليقظة.. تلك التى قد تدفعهم إلى شطط فى التفكير، إذا لم يحسن تربيتهم وتوجيههم.

والسؤال الآن ما الأسباب التى قد تتدخل فتحدث هذا المرض؟

نظرًا لأن هذا المرض قد يظهر بشكل أكثر خلال المرحلة العمرية ١٤-٣٠ سنة، فإن هناك عوامل تتدخل وفق طبيعة هذه المرحلة، نذكر منها:

(أ) الضغوط الاقتصادية والضائقة المالية حيث يشعر من يقع تحت طائلة هذه الظروف أنه لايستطيع أن يفى بمتطلباته؛ فتستبد به تلك الظروف، وتمنعه من التعامل السوى مع مشكلاته.

(ب) الاضطراب والتفكك الأسرى الذى يؤدى إلى الشعور بأن الأسرة قد أصبحت بيئة طاردة وليست جاذبة؛ الأمر الذى يدفع من يقع تحت طائلة هذا التفكك الأسرى إلى أن يلوذ بنفسه ويغترب عن واقعه.

(جـ) الفشل فى العلاقات الغرامية أو الصدمة العاطفية؛ مما يؤدى إلى الشعور بالاكتئاب.

(د) القلق الشديد من ممارسة العادة السرية والإفراط فيها؛ مما قد يؤدى بصاحبها إلى الشعور بالخطيئة والإحساس بالذنب Sense of guilt؛ مما يؤدى إلى ظهور أعراض «الهوس والهذاء» والهلوسة.

ويلاحظ أن «الفصام» كمرض عقلى غير عضوى، يؤدى إلى ظهور أعراض وخصائص تميزه.

ومن هذه الخصائص والأعراض:

(١) البلادة الانفعالية:

التى تؤدى بصاحبها إلى عدم التأثر وعدم الميل إلى المشاركة مع الآخرين - فنجد «الفصامى» يفقد الاهتمام فلا يتفاعل مع أحد، ويفقد الأصدقاء بسهولة - ولا يصنع شبكة من العلاقات الاجتماعية مع الآخرين، يميل إلى الخوف والحزن ويستثار بسهولة - فيغضب من أقل شىء ولايهتم بأى معايير أو أعراف - فهو يتعامل بعدم اكتراث وعدم انتماء.

(٢) الغرق فى أحلام اليقظة:

فيصنع من خلالها عوالم متعددة فلا يقترب من دنيا الواقع، ولايبدى أى اهتمام بما يدور حوله من أحداث؛ فهو يحب أن يجنب نفسه الدخول فى إطار التفاعل الاجتماعى، فهو لا يقوى على أن يكون مساهمًا وفعالاً.

(٣) يتميز مريض الفصام بظهور بعض الأعراض الغريبة عليه:

فهو من الممكن أن يتكلم مع نفسه أثناء السير فى الطرقات العامة؛ بحيث نراه وكأنه يجسد أوهامًا معينة، أو أنه يتصور أن كل من ينظر يتابعه أو كل من يشير بأصبعه يقصده، وهنا يتجسد الوهم سلوكًا لديه

وجدير بالذكر:

إن هناك تجسيدًا للوهم يصاب به الأفراد، وهم فى حالة من تجسيد الوهم. نذكر هذه الحالات وقاية من الوقوع فى هذه الهواجس، التى قد تؤدى إلى الانفصام، وهذه الحالات:

* توهم المرض من خلال التوظيف الخاطئ للمعلومات.

* توهم «الفردحة» من خلال الخروج على السائد المألوف.

* توهم السعادة من خلال سلوك الإدمان على المخدرات.

والسؤال الآن: ماالذى يؤدى إلى هذا الوهم، الذى قد يدفع إلى الانفصام؟

ولعل الإجابة تكون على الوجه التالى:

هناك جوانب كثيرة فى السلوك الإنسانى تحتاج إلى مراجعة، وكأننا نحاول دائمًا من خلال تفسير السلوك الإنسانى أن نتقصى دوافعه، ونحاول بقدر المستطاع أن نتعرف الظروف والملابسات، التى قد تتدخل فتحدث هذا السلوك، وتشكل تلك التصرفات.

ولعل الإضافة البسيطة التى نقدمها فى غضون هذا الفصل تمكننا من تعرف بعض المواقف، التى يمر بها الإنسان فيتصرف حيالها تصرفات متوهمة يوظف فيها معلوماته تارة، أو تضغط عليه بعض الظروف الاجتماعية تارة أخرى، وهو بين هذه وتلك يتصرف فتحسب عليه التصرفات، ويخضع لما نسميه تقويم المجتمع لهذه التصرفات.

وقصدنا من عرض بعض الأوهام التى قد تسيطر على الإنسان؛ بحيث تضغط عليه، فتتحول من خلال هذا الضغط إلى بعض السلوكيات المتوهمة أن نوضح للقارئ مدى خطورة تجسيد هذه الأوهام، ومدى ضرورة الحرص والتحفظ فى كل عمل يتقدم إليه الإنسان بحيث تصدر كل تصرفات الإنسان أو غالبيتها، وفق رغبة عميقة فى «الحرية» و«المعقولية» ونزوع قوى نحو تجويد السلوك والفعل والاتساق الواعى مع القيم الأخلاقية، وما يحيط بالإنسان الفرد من أعراف وأصول وتقاليد اجتماعية سليمة، تعبر بصدق عن أصالة الشخصية واستمرارها السليم.

وإذا كانت الأفكار التى تضغط على الإنسان؛ فتفرض عليه هذا السلوك المتوهم.. فإن هذه الأفكار ينبغى أن تنقى وتصفى، بحيث تتضح الرؤية أمام هذا

الإنسان ويحاول أن يتخلص من أفكاره المتوهمة؛ بحيث يخطو خطوات سليمة من شأنها أن تجعله فى صورة مرموقة من حيث التصرف والسلوك والفعل، ولن يتسنى للإنسان أن يصل إلى هذا المستوى السلوكى، اللهم إلا إذا نظر نظرة عميقة إلى المستقبل، واضعًا فى اعتباره أن القيم الأخلاقية النابعة من الدين هى المرشد والموجه لهذه التصرفات دائمًا.

فإذا كان الماضى يمثل حجر الزاوية فى كمية الأفكار والآراء، التى تتدخل بشكل ما من الأشكال فى تشكيل هذه السلوكيات المتوهمة.. فإن الإنسان لاينحصر فقط فى ماضيه ولكنه يمضى دائمًا إلى المستقبل، فإذا كان الماضى ضروريًا للاختيار بالنسبة للإنسان الفرد.. فإن هذه الضرورة تتجه دائمًا للاختيار بالنسبة إلى المستقبل؛ لأن هذا الماضى نفسه هو ما ينبغى تغييره، ومن هنا يكون اختيارنا لبعض التصرفات السلوكية التى يتدخل فيها الوهم؛ فيعمل على تجسيدها وتشويه صورة الواقع.. فلا يملك الإنسان الذى يخضع لهذه الأوهام إلا أن ينصاع ويخضع لتلك الأوهام... وبطبيعة الحال فهو يشعر بالتعب النفسى؛ لأنه بنفسه ـ ومن خلال أوهامه ـ قد حكم على نفسه أن يعيش وسط شرنقة غريبة، أفرزت خيوطها أوهامه وعملت هواجسه على تجسيدها... فكان غريبًا فى تصرفاته وسلوكياته.

عندما يتوهم الإنسان المرض من خلال التوظيف الخاطئ للمعلومات؟

يعيش الإنسان كمخلوق تستهويه الحياة، فيحاول أن يبحث فيها عن اللذة المنشودة، ويحاول هذا الإنسان فى سعيه اللاهث أن يتجنب كل عوامل الألم، فالسعادة والشقاء طرفان متضامنان متحدان، وإن كانا فى ظاهرهما ضدين متقابلين، والإنسان بحكم تطلعاته هذه مخلوق تستهويه العلا والقمم الشامخة...

ويحكم هذه المعلومة الغريبة للإنسان.. فإنه كثيرًا ما يجد لذة فى استطلاع كل ما هو بعيد وخفى وغامض، ويشعر اعتمادًا على هذا الشعور بقوى غريبة

تتصارع بطريقة خفية غاشمة، يعجز عن إدراك كنهها وتقدير شدتها، وهذه القوى قلما تستمر فى غموضها أو توافق مستسلمة بأن تكون حبيسة داخل الإنسان. . . ولما كان الإنسان يحاول دائمًا أن يؤكد ذاته من خلال خبراته، التى يحاول أن يعلن عنها ويزهو بتعددها وتنوعها. . فهو يحاول أن يلتقط كل خبراته من المجتمع الذى يعيش بين جوانبه ويتعامل معه، ويميل الإنسان إلى أن يلتقط كل ما من شأنه أن يجعله قويّــا صحيحًا من الناحية النفسية والصحية، ويحاول - استمرارًا لتأكيده لذاته - أن يبتعد عن كل الظروف والمواقف، التى قد تجعله مريضًا أو مستهدفًا للمرض.

واعتمادًا على هذا الاتجاه الذى يتطلع إليه الإنسان، يحاول أن يجمع من المعلومات كل ما من شأنه أن يجعله مزودًا بالمعلومات والمعارف؛ لعله يجد فيها حصانته ويتجنب من خلالها شرور الأمراض. . . ولكن الإنسان فى سعيه الحثيث هذا نحو كل ما يحقق حصانته قد تنتابه بعض الهواجس؛ لأنه من فرط حساسيته وحرصه على نفسه يخضع للتأويل - عندما يوظف ما ينتشر من أعراض لبعض الأمراض التى ذاع صيتها لخطورتها - فلا يملك إزاء هذه المعلومات إلا أن يستشعر نفسه مريضًا، وقد يجسد الوهم فيتصرف تصرفات المرضى، دون أن يكون مريضًا، ونسوق لذلك بعض الأمثلة:

السرطان وتوهم أعراضه:

إذا سألنا رواد جراحة السرطان وأساتذته: هل هناك علامات معينة يمكن أن تكون علامات إنذار، تعبر بشكل من الأشكال عن وجود هذا المرض الخبيث؟ فإن الإجابة من واقع دراساتهم ومشاهداتهم وتجاربهم تكون بالإيجاب، ويبدو أن فى عرض هذه الملامح أو تلك الأعراض تنبيهًا للإنسان الفرد ووقاية وحرصًا، فإذا كانت هذه الأعراض هى:

* الاضطراب فى التبول والتبرز.

* وجود جرح لا يلتئم.

* حدوث نزف أو إفرازات غير طبيعية.

* وجود ورم أو كتلة في الثدى أو في أى مكان آخر من الجسم.

* صعوبة في البلع.

* حدوث تغيرات غير طبيعية في الصوت أو الكحة، التي لاتشفى بالأدوية العادية.

* حدوث تغيرات في الحسنات الجلدية أو الزوائد الجلدية.

ويؤكدون أن أى علامة من هذه العلامات إذا ظهرت، فعلى الفرد ألا ينتظر ثانية واحدة، وعليه أن يذهب فوراً للطبيب على الأقل للاطمئنان على حقيقة الحالة، وللتأكد من عدم وجود السرطان، وليبدأ العلاج مبكراً إذا كان المرض موجوداً بالفعل.

ويمثل الطعام أهمية كبرى للإنسان، وتؤكد الدراسات المتعلقة بأبحاث السرطان الصادرة من الجمعية العلمية للسرطان في الولايات المتحدة الأمريكية (*) توصيات بشأن الطعام، ومدى ارتباطه بمرض السرطان. وتدور محاور هذه التوصيات العلمية حول ضرورة تجنب زيادة الوزن ومايصاحبها من سمنة، ثم الحرص على زيادة كمية الطعام الذى يحتوى على الألياف، ولقد قدمت الجمعية العلمية للسرطان بعض النصائح بالنسبة للأطعمة، التي قد تسبب حدوث هذا المرض، وبعض الأغذية التي يمكن أن تحقق للإنسان وقاية منه. وقد كانت هذه النصائح:

* تجنب زيادة الوزن بالابتعاد عن أكل الدهنيات والعمل على النشاط والحركة.

* تناول الأطعمة التي تحتوى على الألياف، ففيها فائدة كبيرة إلى جانب الاعتماد على الفيتامينات الطبيعية، دون أن نعتمد على الحصول على هذه الفيتامينات من خلال الأودية.

(*) ارجع إلى الأستاذ الدكتور شريف عمر - «السرطان وأورام الثدى»، كتاب اليوم الطبى، ١٩٨٤، ص. ص ٢٠-٢٣.

* تجنب شرب الخمور لأنها مع الإسراف فى التدخين تؤدى إلى ارتفاع احتمال الإصابة بالسرطان (الفم والحنجرة والمرئ).

* الابتعاد عن الطعام المدخن (أسماك - لحوم) تجنبًا من تلوثها بالقطران، أثناء عملية التدخين.

والملاحظ على هذه المعلومات المهمة والدقيقة أنها تعطى الإنسان الفرد الفرصة؛ لكى يلتقى ويختار ويدرك بوعى وفهم، إلا أننا نجد بعض الأفراد من يتوهمون هذه الأعراض فيهم، فلا يقطعون الشك باليقين ويذهبون للتأكد من الطبيب المتخصص تجنبًا لزيادة استفحال المرض إن وجد، أو وقاية منه، ولكننا نراهم يخافون من مواجهة الحقائق، وتعتبر مواجهة الحقائق هى من أهم الملامح السلوكية المميزة للإنسان فى حالته السوية؛ لأنها تجعل منه إنسانًا واقعيـًا، يتصرف وفق ما يراه العقل والمنطق، بعيدًا عن الهواجس والتهويل والأوهام!!

الذبحة الصدرية وظروفها النفسية:

وفى دراسة قام بها كل من (الصاوى حبيب وسيد صبحى ١٩٧٩)(*) عن الظروف، التى أحاطت ببعض الحالات التى أصيبت بمرض الذبحة الصدرية.. فقد كانت ظروف الإصابة تجمع بين موقف قبلى وموقف بعدى؛ أى إن هناك مجموعة من الملابسات التى أدت إلى تجهيز الفرد للإصابة بهذا المرض، وقد توصلت الدراسة إلى أن ظروف الحالات موضع الدراسة قبل الإصابة بالمرض عبارة عن:

* شعور الفرد بحالة من القلق والتوتر بالنسبة لتصوره للمستقبل، ومدى حرص كل منهم على أن يكون شخصًا مهمـًا ومرموقًا يحظى بمكانة اجتماعية.

* تطلع كل منهم إلى الإنجازات العالية، فى الوقت نفسه الذى يفتقر فيه إلى الإمكانات، التى تساعده على تحقيق ذلك.

(*) ارجع إلى الصاوى حبيب، سيد صبحى: «دراسة نفسية فى الذبحة الصدرية»، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩.

* الإحساس بضغط العمل وعدم تحقيق التوافق والتآلف مع الزملاء، داخل إطار العمل وكذلك مع الرؤساء.
* ضغط الإطار الأسرى بما فيه من مسئوليات، تتطلب أدواراً اجتماعية لها مسئولياتها، ومحاولة أداء هذه الأدوار بما يصاحبها من ضغوط اجتماعية واقتصادية وصحية، إلى جانب مهام العمل ومسئولياته.
* إحساس الفرد بضرب من ضروب الصراع النفسى؛ حيث أعلنوا عن عدم إمكانهم مواجهة الظروف مواجهة صريحة، تمكنهم من مناقشة المشكلات، التى قد تصادفهم؛ لكى يتوصلوا إلى حلول تجنبهم هذه المشكلات وتخفف عنهم حدوثها.

هذه الظروف التى كانت تصاحب هذه الحالات قبل الإصابة بالمرض، قد جعلت بعضهم فى موقف نفسى ضاغط؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يواجهوا أمورهم بطريقة موضوعية، فيها حرص على الأداء واستعداد لتقبل الواقع بروح، ملؤها العمل، وإرادة تستطيع مواجهة الصعاب، ومسئولية لها ترجمتها السلوكية الفعلية والواقعية.

وأثبتت الدراسة أيضاً ضرورة الاهتمام بالظروف النفسية المزاملة للإصابة بالذبحة الصدرية، والتى يمكن أن نلخص بعضها فى العوامل الآتية:

* وفاة الزوج أو الزوجة المفاجئ.
* حدوث طلاق أو انفصال فى الحياة الزوجية.
* الفصل التعسفى من العمل.
* الإفلاس المفاجئ والإحساس بالضائقة المالية.
* عدم الإحساس بالقيمة داخل العمل، من خلال حالة الأدوار، التى يؤديها الفرد.
* وفاة صديق عزيز.

* تغيير مفاجئ غير متوقع فى ظروف الحياة الأسرية اقتصاديًا واجتماعيًا.
* عدم الإحساس بالأمن والاطمئنان بالنسبة للمستقبل الوظيفى.
* توقع الأذى من الآخرين فى أى لحظة من اللحظات.
* تغيير العادات التى تعودها الشخص فى تطبيعه الاجتماعى.
* التعرض للنقد الزائد دون القدرة على الدفاع أو التصدى له ومواجهته.
* الإحساس بفقدان الثقة فى المحيط الاجتماعى.
* فشل الأبناء فى الاستمرار فى دراستهم، وأثر ذلك على سمعة الأسرة أو العائلة.
* التعرض لمأزق مادى ولانجد من يقف بجوارنا.
* توقع الإخلاص من بعض الأشخاص، ثم الإحساس بعكس ما نتوقع (خيبة أمل).

ويلاحظ أن هذه الأسباب النفسية قد يتدخل فيها الوهم - بدرجة ما من الدرجات - لأن الدراسات فى هذا المضمار قد أثبتت أن الأشخاص الذين يتحملون المسئولية ويعانون من توتر عصبى مستمر... هؤلاء نجدهم أكثر عرضة للإصابة بمرض الشريان التاجى، فهم دائمو التفكير والتوتر، وغير قادرين على الاسترخاء والهدوء؛ لأنهم يحملون همومهم بين جوانحهم ويجسدون أفكارهم، ويتوهمون الفشل دائمًا يحيط بهم؛ مما يجعلهم فى حالة من اليقظة الدائمة والأرق والتوتر.

عندما نتوهم سلوك الدردحة بديلاً للقيم الأخلاقية:

انتشر سلوك «الدردحة» فى عصرنا المتغير المادى، وأعنى به ذلك السلوك الذى يغلب على صاحبه طابع الإدعاء، وتصبح الشخصية «المدردحة» هى تلك التى تستطيع أن تتصرف «بفهلوة» وذكاء وحسن تقدير للموقف موضع «الدردحة»، والتقدير هنا لا يعنى الموضوعية بقدر ما يعنى معرفة «المدردح» للكتف من أين يؤكل»!!

والدليل على ذلك أن صاحب هذا السلوك يتوهم أنه فى مقدوره أن يخالط الجميع ويتماشى معهم، ولديه الاستعداد أن يتغير ويتلون.. فهو راض فى كل الظروف، ومع كل الأشخاص لما لديه من قدرة (عجيبة) على التلون والتغير.

ومثل هذا السلوك المزيف بقدرته على التكيف السريع، ومثل هذا الشخص اعتمادًا على مزاولته وفطنته وقابليته لهضم كل شيء وكل موضوع وكل إنسان دون أن يجد فى ذلك غضاضة أو دون أن ينزعج لهذا الأمر نراه عليمًا بكل شيء هكذا يدعى، ومسايرًا للأمور بسطحية لكى يغطى مواقفه... ولايرتبط ارتباطًا حقيقيًا بما يقوله أو بما يلتزم به من تصرفات، كان قد أخذ على نفسه عهدًا بتنفيذها.

وهذه الشخصية التى قد يميل إليها الآن معظم الشباب لاتتحمل المسئولية. ومن هنا واعتمادًا على الثقة الزائدة لدى هذه الشخصية، دون أن تعتمد هذه الثقة على أصالة أو قدرات حقيقية.. فإننا نجدها تعامل الأمور باستهتار وتهكم على الغير أحيانًا، وفى ادعاء القدرة البارعة على حل الأمور فورًا، وكذلك فى القدرة على التخلص من المآزق كما تخرج الشعرة من العجين!!

الغريب فى أمر هذه الشخصية «المدردحة» أن هناك من يتوهم أنها شخصية عظيمة، بل ويزداد هذا الوهم تجسيدًا عندما نرى هؤلاء يضربون بها الأمثال؛ خاصة عندما تظهر المشكلات، التى تحتاج إلى حل رصين وفكر واع؛ بحيث لايقوى عليها هذا «المدردح» لأنه غير كفء، ولا يتمتع بالقدرات التى تمكنه أن يواجهها... ولكنهم لإفراطهم فى الإعجاب بهذه السلوكيات المزيفة، من قبل هذا المدردح يتوهمون أنه هو المنقذ الوحيد، وهو فقط الذى فى مقدوره أن يحقق الإنجاز السريع، وهم يميلون دائمًا إلى الاستماع إلى إرشاداته ونصائحه، ويكونون فى لهفة التشوق إلى سماع رأيه السديد، عندما يأتى ومعه الحلول الواهية، المعتمدة على المسكنات الموضوعية فى شكل التزيف والوصولية.

والغريب فى الامر أن هؤلاء المتوهمين يرون فى الأشخاص أصحاب القيم

والأصول والمبادئ غير ما يرونه فى هذا السلوك (المدردح المزيف)؛ فهم يرون على حد وهمهم - أن الشخص صاحب القيم والمبادئ والأصول والالتزام الصحيح - أن هذا الشخص لا يتميز كما يتميز «المدردح» بخفة الظل، وأنه يميل إلى تصعيب الأمور من خلال التمحيص والتدقيق، وأنه يرى القيم الدينية هى الأساس.. فلا يوافق على أى أمر من الأمور، دون أن يكون متماشيًا معها ووفق أصولها ومبادئها، عكس ما يتوهمون ويتطلعون إلى الشخصية «المدردحة» التى تميل دائمًا إلى تشهيل الأمور؛ حتى ولو كان ذلك التشهيل على حساب القيم والأصول المعرفية السليمة.

وبطبيعة الحال وتحت وطأة هذا التميز العجيب بين سلوك (الدردحة»، وما يصاحبه من معان مزيفة قد يجعل بعض ذوى الأخلاق العالية، يشعرون بالغربة أو الإحباط، فهم لا يعرفون هذه السلوكيات «المدردحة»، ويرفضون هذه الأمور ولايريدون معرفتها.

وهذا التميز لاينبغى إلا أن يكون فى صالح الفئة الأصلية، التى تعتمد على القيم والأخلاق والأصول، وتلتزم بالمبادئ الدينية فى كل أفعالها وتصرفاتها وعليهم أيضًا التمسك بالولاء للقيم والإيمان بها، وأن يتجهوا فى سعيهم نحو القيم الدينية مهما جذبتهم عوامل «الدردحة»، فالولاء للقيم هو أعلى درجة تجنب كل إنسان من تجسيد الشرور، التى قد تأتيه من الأوهام أو من المعانى غير الراقية، التى يظنها المتأمل العابر لها معان أو قيمة(*).

عندما يتوهم البعض السعادة، من خلال سلوك الإدمان على المخدرات(**).

يمثل سلوك الإدمان على المخدرات بأنواعها خطورة بالغة؛ خاصة إذا كان هذا السلوك من النوع الذى ذاع صيته وانتشرت رائحته التى تزكم الأنوف، ولعل

(*) استخدام الكلاب البوليسية فى الأندية لاكتشاف أصحاب السلوكيات الشاذة من المدمنين خير دليل على الذين يتوهمون «الدردحة»، من خلال «إدمان للمخدرات»؛ فموقفهم يدعو إلى العار والخجل.

(**) لابد من أن نضع فى اعتبارنا أن الإنتاج وزيادته لايقوى عليه إلا الأصحاء عضويًا ونفسيًا، والشخصية التى تعودت إدمان المخدرات تفتقر إلى هذه الصحة العضوية والنفسية، ومن هنا فهى تمثل عوائق للإنتاج السليم.

الخطورة تتجسد فى كمية المعلومات، التى قد تنتشر وتشيع عن هذا السلوك المنحرف الخطر، فهناك من يرى وهمًا أن الإدمان على تعاطى هذه المواد المخدرة فى أشكالها وأصنافها المتعددة يؤدى بصاحبه إلى السعادة والإحساس بالراحة والهدوء!!

ومثل هذا الوهم يبتعد تمامًا عن الصحة والدقة.. فقد أثبتت جميع الدراسات أن هذه السعادة المزيفة مردها إلى تعطيل مراكز التيقظ فى الجهاز العصبى، وأن الإنسان بهذا السلوك المنحرف يدفع بنفسه إلى الهلاك!!

وينبغى أن نهتم بظاهرة الإدمان على المخدرات، ويكون الاهتمام من خلال تطبيق المنهج العلمى؛ أو أن حريتهم وإرادتهم فى أمر رفض الاستمرار فى هذا السلوك ليست سوى وهم من الأوهام! وكأنهم قد كتب عليهم هذا المصير المشئوم.. مصير تعاطى، أو أن حريتهم وإرادتهم فى أمر رفض الاستمرار فى هذا السلوك ليست سوى وهم من الأوهام! وكأنهم قد كتب عليهم هذا المصير المشئوم.. مصير تعاطى المخدرات!!

والواقع أن هذا الشعور الغريب سواء كان على مستوى الإحساس بالسعادة كما يتوهم البعض من هؤلاء أم على مستوى الانصياع والوقوف أمام المخدرات موقف العاجز الذى لايملك إلا أن يتعاطاها.. هذا الشعور الغريب يجعلنا نركز الاهتمام على أمر هذه الظاهرة الخطيرة، التى يدفع المجتمع بسببها ثمنًا باهظًا من الطاقات البشرية والمادية والاجتماعية، وعلينا أن نواجه هذا السلوك المنحرف الجديد على طبيعتنا المصرية وقيمنا الدينية وأصالتنا المصرية العريقة، وأن المواطن الصالح هو الذى يتجه إلى الإنتاج والعمل الجاد.

وبهذا التجسيد للوهم نستطيع أن نؤكد أن مريض الفصام يحاول:

* الهلوسات السمعية، حيث يتصور هذا المريض أن هناك أصوات تناديه لاوجود لها، أو أن هناك أعراضًا يعانى منها هى أعراض لمرض خطير - أو أن هناك ضرورة زائفة، لابد من التعامل معها (كالمخدرات أو الكحوليات)،

أو أداء أعمال غريبة كأن يمشى ليعد بلاط الأرصفة ـ أو أعمدة الكهرباء فى الشوارع العامة.

* بطبيعة الحال يعانى هذا المريض من الهلوسات البصرية إلى جانب الهلوسات السمعية؛ فهو لايستطيع أن يتحقق من الواقع المعاش، ودائمًا زائغ البصر ولايعرف التركيز.

* يسيطر عليه اعتماداً على عزلته وعدم مشاركته للجماعة للشعور باليأس، وأن المجتمع يظلمه ويستقصده وأنه Scape Goat كبش الفداء لكل الناس، الذين يحيطون به، وإزاحة كل مشكلاته على المجتمع الظالم الذى يستبد به دائمًا.

خطورة هذا المرض:

إن بعض المرضى من هذا القبيل فى التدهور، الذى يعبر عنه بالذهول التام يكونون قابلين للإيحاء للأوامر؛ بحيث قد نجدهم ينفذون كل أمر ويرددون مايسمعون ويستجيبون لضعف شخصياتهم إلى ما يقال لهم، وهنا قد يرتكبون حماقات سلوكية أو جرائم أو يتخبطون الأعراف والقيم الاجتماعية، فيخرجون عليها اعتماداً على هذه العوامل المصطنعة والأخيلة الكاذبة.

البارانويا (جنون العظمة):

يتميز هذا المرض غير العضوى باضطراب فى التفكير. وقد أجمعت بعض الدراسات الكلينيكية على أن هذا المرض يظهر عادة فى سن الأربعين، ولكن هذا التحديد قد لايكون جامعًا مانعًا محدداً فى هذه الفكرة؛ فهناك من يصاب بهذا المرض فى مرحلة أقل أو أكبر من ذلك. والدليل على ذلك أن مرض جنون العظمة يرجع إلى الشعور بالكبت Depression ذلك الذى يصاحبه الشعور الشديد بالإحباط Frustration ـ وصاحب هذا المرض يعانى من الصراع Conflict وتأنيب الضمير Sense of guilt ولوم النفس ـ وهذا النوع البارانوى يشعر بالاضطهاد ويطلق عليه «جنون العظمة»، ويمكن أن نلخص الأعراض المميزة لهذا المرض على الوجه التالى:

١) الاضطراب الفكرى والتشويش بحيث لايمكن أن يصل إلى فكرة صائبة أو محددة Divergent تفكير مشتت.

٢) الشعور بأنه مكروه ومضطهد من الآخرين - وأنه غير مرغوب فيه وقد يحدد عدم المرغوبية فى شخص محدد - ويوضح كيف أن هذا الشخص بالذات يكرهه «ويستقصده».

٣) هذيان وهواجس العظمة - وتلك التى تجعله يحس أنه شخص عظيم Super-man ولايوجد أحد مثله - وأن هذا الشعور يجعله ينفر من الجميع ويتعالى عليهم، وكأنه ذلك الذى لم يخلق مثله فى البلاد، وأنه وحيد زمانه وفريد عصره!!(*)

الهوس والاكتئاب Mania & Melancholia:

الهوس أو (المانيا Mania) يظهر فى شكل درجات متعددة، تتدرج من الصعوبة إلى البساطة حيث حدة الأعراض؛ فيتميز السلوك المصاب بهذا المرض بالنشاط المستمر بحيث لايكل أو يتعب، فإذا تكلم فهو الذى لابد وأن يسيطر على الكلام والحديث - يرفض أى معارضة، ولايتحمل أى انتقادات، هذا فى شكله البسيط يكون الهوس متميزاً بتلك الأعراض، ولكن عندما يزداد الهوس حدة Acute mania - فهو يأخذ بصاحبه إلى طريق الهذيان، ويظهر المريض وهو يعانى من الدخول فى نوبات عصبية، تجعله لايقوى على العمل الجاد أو المخطط الذى يعبر عن هدف، فهو شارد بحيث لايمكن أن يعرف مكاناً ولايستشعر الزمان أو حتى يدرك الأشخاص.

وهناك نوع أكثر حدة من الهوس، وهو الهوس فوق العادة أو خارق العادة Hyper mania وهو أقصى حالات الهوس، حيث يتميز هذا المريض فى مرحلته الحادة بالعنف والقسوة - وقد تبلغ به القسوة وذلك العنف إلى أن يكون عنيفاً مع نفسه وعلى من يتعامل معهم - فيراه يسب الآخرين بالألفاظ النابية، ويصرخ فيهم ويحاول التحرش بهم - وذلك من خلال الهياج والانفعال الحاد. ولديه

(*) إلى جانب هذه الخصائص، فنحن نجد فى البارانوى أنه شخص أنانى معاند متكبر لايعترف بالأخطاء ولايجب أن ينتقده أحد. وحتى إذا فشل فإنه يزيح أسباب الفشل على الآخرين، وهو شخص لاصديق له، ولايصلح لقيادة الأشخاص لأنه لايعرف قدرات الآخرين!!.

رغبة عارمة فى التخريب، والاستهزاء والضحك بصوت هستيرى ـ والغريب فى الأمر أنه سرعان ما يلوذ بنفسه فيبكى ويدخل فى نفسه منطويًا، وكأنه القنفذ الذى يدخل الأشواك داخله متقوقعًا وعبوسًا!!

الاكتئاب النفسي:

يميل بعض الأفراد إلى أن يحيلوا الواقع المحسوس إلى كيان خاص، يخلعون عليه لغة خاصة مبنية على مشاعرهم الذاتية، تلك التى يترجمون من خلالها أحاسيسهم ورؤيتهم للأمور موظفين ما مروا به من تجارب؛ لأن نظرتهم لهذا الواقع تأخذ طابعًا معينًا تحدده تجاربهم، وما قد مروا به من ضغوط نفسية وقضايا تمثل لهم خبرات مؤلمة. وشعور الإنسان بهذا الشعور الضاغط يؤدى إلى «جنون الاكتئاب» Melancholia ـ وهذا المريض يكون فريسة لما يعتريه من يأس وقنوط، وقد يستبد به هذا الشعور فلا يتصور أن هناك أملاً فى أى أمر يتعامل معه؛ مما قد يعرضه إلى إيذاء نفسه Self harm(*).

وجنون الاكتئاب قد تظهر أعراضه على الوجه التالي:

* الشعور بالنشاط الجسمى العقلى بطريقة تدفع إلى التوتر والاضطراب.
* الشكوى الدائمة من سوء المقادير، وأنه لا أمل فى تحسين حالته، وأن المتعوس متعوس هكذا يكون دائمًا.
* العزوف عن الاشتراك فى أى نشاط، حيث يشعر أنه غير جدير بالحياة ولا أمل فى حياته، فلماذا يشارك ويتعاون ويتفاعل.
* العزلة التامة عن الجماعة ـ بحيث يفتقر إلى أدوات الاتصال بالجماعة ـ فلا يتحدث مع أحد يتجاوب مع أحد يتحدث معه.
* قد يرفض الطعام فى الحالات الحادة، ويتشكك فى كل من يقدم له هذا الطعام، ويتصور أنه يضع له فيه السم أو يحاول أن يقتله عن طريق هذا الطعام!!

(*) من الأمراض النفسية غير العضوية إيذاء الذات المتعمد Self harm، وسوف نتناوله مع الأمراض النفسية.

ثانيا: المرض النفسي

قبل أن نتناول بعض الأمراض النفسية، يجدر بنا أن نضع معايير الحكم على الصحة النفسية للفرد؛ بحيث تكون هذه المعايير بمثابة (مسطرة)، ونقيس من خلالها تقدم المجتمعات، التى نحكم من خلالها على صحة الفرد النفسية، وقد يكون من الممكن أن نتناول هذه المعايير على الوجه التالى:

أولا، أن يعترف الفرد بقدراته وإمكانياته بطريقة موضوعية، فلا يدعى ماليس عنده:

وأن تقاس هذه القدرات بحيث لايتجاوزها الفرد؛ تجنبًا للوقوع فى الأخطار. وهنا وجب الاهتمام بالفروق الفردية التى نحكم من خلالها على قدرات الأفراد، ويصبح هذا المعيار منبهًا لكل فرد كيف لايدعى قدرة لايتمتع بها، ولايجوز أن يحلق فى فراغات ادعاء القدرة؛ لأن هذا الأمر يجعل أصحابه عرضة للوقوع فى الأخطاء.

ثانيًا، استمتاع الفرد بعلاقاته الاجتماعية:

هذا المعيار يدفع كل فرد يتطلع إلى السواء النفسى إلى أن يحقق شبكة من العلاقات الاجتماعية، تمكنه من الاستمرار السليم؛ فلا يجوز للفرد أن يعيش بمعزل عن الآخرين؛ بل لابد وأن ينتمى الفرد للجماعة، لأن الفطرة الطبيعية للإنسان تجعله مدنيًا بالطبع، ويميل إلى مشاركة الجماعة والعمل معها.

ثالثا، تحقيق النجاح فى العمل والشعور بالرضا:

يعد إحراز النجاح فى العمل وما يصاحبه من شعور بالرضا من أهم الأمور لتحقيق السواء النفسى؛ حيث يمثل الشعور بالرضا أهمية كبيرة خاصة فى ميدان العمل. ولعل أهمية هذا الشعور قد جعلت علماء النفس يفردون له تخصصًا متميزًا ومنفردًا، يسمى التوجيه المهنى Vocational Guidance.. ذلك العلم الذى يتعامل مع الفروق الفردية ويحدد الكفاءات، ويضع القدرة فى مكانها،

ويحدد المهام والأدوار التى يتطلبها العمل، ويضع بقدر المستطاع (الرجل المناسب فى المكان المناسب).

رابعاً: انشراح الصدر والإقبال على الحياة:

إن انشراح الصدر وما يصحبه من شعور بالسعادة والحماس والتفاؤل يدفع صاحبه إلى الإقبال على الحياة - بوجه عام - حيث يشعر بضرورة وأهمية دوره، وأن التفاعل من الأمور الضرورية التى تجعله يتعامل مع الأزمات، ويضع الحلول البديلة الملائمة التى تساعده على التعامل مع المشكلات، أو المواقف الصعبة التى تواجهه. وبطبيعة الحال... فإن هذا الشعور الراقى يجعل صاحبه صحيحًا نفسيًا؛ حيث يشعر - من خلال هذا الانشراح وذلك الإقبال على الآخرين - بمودة وتفاعل وحب وتفاهم وعطاء.

خامساً: القدرة على تقبل الإحباط:

إن الصحة النفسية للفرد تظهر عندما يتعامل الفرد مع مواقف محيطة، تمثل عقبة فى مسيرة تحقيق أهدافه. وتتجلى الصحة النفسية والخلو من المرض النفسى، عندما يحاول كل فرد أن يخرج من شرنقة الإحباط إلى عوالم متعددة، ولابد وأنه يوظف إرادته للفعل الجاد الذى يبحث عن الحل البديل الملائم.. ذلك الذى يخلصه من الشعور بالاكتئاب الذى يصاحب الشعور بالإحباط، والذى قد يطمس فى أصحاب النفوس الضعيفة القدرة على الوصول إلى أسباب الإحباط.

سادساً: الإشباع المتزن للدوافع والحاجات:

ويعد الإشباع المتزن للحاجات والدوافع من الأمور المهمة لتحقيق الصحة النفسية، وهى توليفة سوية، تعتمد على تحقيق الاتزان بين النواحى (الفسيولوچية والنفسية). وبطبيعة الحال.. فإن الإنسان يحتاج إلى الإشباع المعنوى والإشباع النفسى، إلا أن الإشباع النفسى المتمثل فى الحب المتبادل والانتماء والقبول الاجتماعى، والتقدير والمكانة الاجتماعية للإنجاز، والحاجة إلى المغامرة وكسب الخبرات الجديدة - وإلى الحرية والنمو المستقل، وكذلك أيضًا الحاجة إلى الفهم

والوضوح الفكرى وتبادل الرأى بطريقة موضوعية بينى وبين الآخر، ثم حاجة الإنسان الضرورية إلى الأمن Security هذه الحاجات النفسية، لابد من إشباعها والعمل على تنميتها وتغذيتها.

سابعاً: ثبات اتجاهات الفرد:

إن الشخص السوى تميزه المبادئ والقيم، ويعد ثبات الاتجاهات من أهم أبعاد الشخصية السوية؛ فالشخصية التى تغير المبادئ وتتلون وتلبس الأقنعة، وفق ما تحققه المصلحة الشخصية هى الشخصية المريضة المتناقضة(*).

ثامناً: تصدى الفرد لمسئولية ما يتخذه من قرارات وأفعال:

يتضح هذا المعيار فى كل ما يلتزم به الفرد السوى من قرارات وأفعال؛ حيث يمثل قيمة كبيرة، أمرنا الله بها فى كتابه الكريم.

يقول الحق سبحانه وتعالى: «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون» صدق الله العظيم.

إذًا القول لابد وأن تواكبه أعمال، وأن القول الذى يتضمن قراراً لابد وأن ينفذ حيث الإرادة الصالحة.. الإرادة الفعالة.. الإرادة الصادقة، المعبرة عن الالتزام فى الحق والصدق فى القول والمسئولية فى الإنجاز والتعامل.

تاسعاً: الاتزان الانفعالى والتصرف بحكمة وروية:

ويعد المعيار الذى يتصل بالاتزان الانفعالى الذى يدفع صاحبه إلى التصرف بحكمة وروية وفهم للموقف من أهم المعايير المعبرة عن الصحة النفسية؛ حيث يعبر الاتزان الانفعالى عن نضج الأنا، وكيف تتوازن هذه الأنا مع الضمير والإرادة - دون «طغيان» للانفعالات أو «جوراً على حق» أو وجل من ارتكاب خطأ.

(*) كثيراً ما نسمع عن هذه الشخصية المريضة التى تؤمن بأن «الغاية تبرر الوسيلة»، و«اللى تغلب به إلعب به»، و«اللى يتجوز أمى أقول له ياعمى».

وهكذا...

فإن الصحة النفسية ـ اعتماداً على هذه المعايير ـ هي خلو الفرد من المرض النفسي والعقلي، أو بما يطلق عليه «العصاب ـ والذهان»؛ الأمر الذي يجعلنا نتناول الأمراض العصابية، أو ما يطلق عليها الأمراض النفسية. ولعل من الأهمية بمكان أن نعرفه بين المرض العقلي والمرض النفسي على الوجه التالي:

الفروق الجوهرية بين العصاب والذهان في التصرفات السلوكية

الذهــــان	العصــــاب	معيار الحكم
تتغير تغيراً شديداً.	تتغير تغيراً جزئياً.	الشخصية
لاتتصل بالواقع نهائياً وتبدو مضطربة.	تظل مرتبطة بالواقع بطريقة بسيطة.	درجة الصلة بالواقع
يتدهور المظهر العام.	يحافظ على مظهره إلى حد ما.	المظهر العام
تصرفات غريبة تثير الدهشة ولاتحترم القيم.	يظل في حدوده الطبيعية إلى حد كبير.	السلوك العام
يتشتت في الكلام ويبدو مضطرباً، بحيث يصعب فهم الهلاوس.	لا يتغير بطريقة ملحوظة.	الكلام والمخاطبة
التفكير مشوش، ويتميز بوجود أوهام وضلالات.	يفكر قليلاً ويشارك، ولكن يبدو مشغولاً وسواساً.	التفكير ومستواه
موجودة بأنواعها.	لاتوجد ـ وإذا وجدت فهي نادرة ومؤقتة	الهلاوس
اضطرابات شديدة إلى حد الهياج.	مضطربة إلى حد ما.	الانفعالات
مضطربة ولايصل إلى الإدراك السليم دائماً.	سليمة إلى حد كبير.	إدراك الأمور
تطفح في تصرفاته وكل حركاته؛ بحيث تبدو شاذة تعبر عن كبت ومقاومة Resistance	لا تظهر في سلوك المريض بصورة واضحة.	خبرات كاملة (لاشعورية)

من خلال هذه المقارنة، تتناول الأمراض النفسية، على الوجه التالي:

بعض الأمراض النفسية

إيذاء الذات المتعمد:

يعد مصطلح إيذاء الذات المتعمد من الأمراض النفسية، الذى بدأ يظهر كمصطلح جديد، وقد كان هذا المصطلح ينحصر فى محاولات الانتحار؛ نتيجة «للاكتئاب الحاد»، والأمر يتطلب أن نحدد المصطلح، وقد تم تحديد المصطلح على أنه:

أى فعل متعمد يقوم به المريض ويشابه عملية الانتحار ولكنه لايؤدى إلى الوفاة

Any act deliberately undertaken by patient which mimics the act of suicide but which does not result in a fatal outcome.

وهذا التعريف معناه أن هذا الفعل متعمد، يقوم به المريض لإلحاق الضرر بنفسه، أو يأخذ مواد خطيرة كجرعات كبيرة من العقاقير النفسية، فى حين أن جرعته أقل من تلك الكمية، التى أخذها حتى يعتقد أن تلك الزيادة سيكون لها أثر فعال.

وعلينا أن تحدد أسباب تعمد إيذاء الذات:

انشغل الأطباء النفسيون فى دراساتهم عن إيذاء الذات المتعمد، الذى يؤدى إلى هذا السلوك وردوه إلى المرض العقلى، واتفقوا على أن الإنسان الذى يقبل على تعمد إيذاء الذات مصاب بخلل عقلى وهذيان قهرى، ويقوم بتنفيذ الانتحار عندما يصل المرض العقلى أقصاه.

وقد ظل هذا الاعتقاد سائداً لفترة طويلة وتمت معارضته فيما بعد، وأصبح الانتحار ينظر إليه على أنه عرض مرضى أو عرض لأمراض وانحرافات أخرى، ويمكن تقسيم العوامل التى تسبب تعمد إيذاء الذات إلى ثلاث فئات، هى:

أولا: العوامل النفسية:

وتشمل هذه العوامل بالإضافة إلى الناحية الدينامية وخصائص الشخصية

دوافع الفرد، ومعرفة الأسباب التى أدت إلى تكون أفعاله وأفكاره ومشاعره دافعة له نحو تعمد إيذاء الذات.

ويمكن تقسيم هذه العوامل إلى ثلاث فئات:

أ) الدوافع البين شخصية Interpersomal.

ب) الدوافع داخل الشخصية Interapersonal.

جـ) الأمراض النفسية.

ويمكن أن نتناول هذه العوامل على الوجه التالى:

(١) الدوافع البين شخصية:

تحدث هذه الدوافع، عندما يحاول الفرد عن طريق سلوكه أن يؤثر فى شخص آخر أو أشخاص آخرين، أو يؤثر فى تغيير اتجاه ومشاعر الأفراد، الذين يحيطون به وتربطه بهم علاقات شخصية.

ويمكن أن نرى السلوك الانتحارى هنا كوسيلة للتأثير والإقناع والسيطرة على مشاعر الآخر، وهذا الآخر غالبًا ما يكون شخصًا مهمًا فى حياة الفرد كالوالد أو الحبيب أو أحد أفراد العائلة، ويمكن أن يعمم الفرد الشخص المنوط به هذا السلوك ليصبح المجتمع كله.

ويكثر هذا النوع من الدوافع فى الفئة العمرية ٢٠ - ٢٥؛ حيث يتفاعل فيها الإنسان بقوة مع مشاعر الرفض من إنسان آخر، وهنا تكون الحالة الانفعالية عدوانًا واعتمادًا وعدم نضج واندفاعية، ويأتى السلوك الانتحارى ليعبر عن مشاعر الغضب، أو ليستثير مشاعر الذنب عند الشخص المتسبب فى هذه المشاعر العدوانية، وتكون المسألة كلها عبارة عن محاولة من الشخص لعمل شيء من جزء العلاقة البينية مع الآخر، ومثل هؤلاء الأفراد ليسوا بالضرورة يريدون الموت أو يرغبون فيه.

(ب) الدوافع داخل الشخصية:

وتظهر هذه الدوافع فى كبار السن؛ حيث تكون العلاقة مع الآخر قد انفصمت عراها، ويبدو سلوك الفرد كما لو كان تعبيراً عن الضغوط الناتجة داخله، ويمكن أن نراها فى رجل تجاوز الستين من عمره، وكما فى حديثه، عن وفاة زوجته مثلاً، أو أن أولاده تزوجوا وتركوه وحيداً، وتنشأ لديه مشاعر الوحدة القاتلة أو الشعور بأنه لم يعد مطلوبًا أو محتاجًا إليه. وبطبيعة الحال.. فإن مثل هذه المشاعر تجعله يستشعر أن الحياة لم تعد تستحق أن تعاش، ويكون مزاجه مكتئبًا منسحبًا ومريضًا جسمانيـًا، وهو هنا يحتاج إلى نوع من الحفاظ على التكامل النفسى واحترام الذات وتقديرها؛ حتى لو كان هذا عن طريق سلوك متناقض يؤدى إلى تحطيم هذه الذات، وهنا تكون الرغبة فى الموت شديدة.

(جـ) الأمراض النفسية:

تلعب الأمراض النفسية من حيث إصابة الفرد بها دوراً فى إحداث السلوك الانتحارى، وقد بين عديد من الدراسات مدى ارتباط هذا السلوك مع عديد من الأمراض النفسية، سواء كانت عصابية أو ذهانية. وأهم الاضطرابات التى ترتبط بالسلوك الانتحارى والاضطرابات النفسية: الاكتئاب والفصام والهذاء المزمن وإدمان الخمور والمخدرات.

الأمراض النفسية الوظيفية:

يمكن تقسيم الأمراض النفسية الوظيفية إلى قسمين رئيسيين، هما:

١- العصاب بأنواعه.

٢- الحالات السيكوباتية.

أولا: العصاب:

يعتبر العصاب النفسى من أكثر الاضطرابات النفسية حدوثًا بوجه عام، وهو صورة متواترة للاستجابات التى يكونها الفرد خطأ لما يواجهه من مصاعب فى

حياته، وقد سبق وعقدنا مقارنة بينه وبين الذهان (المرض العقلى)، من حيث: نوع الأعراض وشدتها ومدى تدهور الشخصية وتصدعها، وعلى وجه العموم تنقسم أنواع العصاب إلى:

- **عصاب القلق:**

القلق شعور يصيب صاحبه بالتوتر والاضطراب، فإذا زاد القلق عن الحد فإنه يجعل صاحبه غير متكيف اجتماعيًا، فيعطل إنتاجه وتتأثر فعاليته وتقل سعادته وشعوره بالاطمئنان.

وقد ترجع أسباب القلق إلى:

(أ) عوامل وراثية.

(ب) اضطراب الجو الأسرى؛ خاصة خلال عملية التطبيع الاجتماعى Socialization.

(جـ) الصراع النفسى.

(د) أسباب مترسبة مثل الشعور بالإحباط أو عدم التوقع للنجاح والإحساس بالفشل فى كل خطوة.

ويصاحب هذا القلق مجموعة من الأعراض النفسية:

* الشعور بالتوتر العام.
* المخاوف مجهولة المصدر.
* عدم القدرة على التركيز وضعف الانتباه؛ مما ينعكس على العمل والإنتاج.
* شدة الحساسية والشعور بعدم الاستقرار.
* قلة النوم نتيجة للشعور بالأرق.
* الأحلام المزعجة والكوابيس الليلية.

الأعراض الجسمية:

١) سرعة ضربات القلب - النهجان - الشعور بالتعب.

٢) فقدان القدرة على الإقبال على الطعام وضعف الشهية.

٣) الشعور بالغثيان والقئ.

٤) كثرة التبول والشعور بالإمساك (أو كثرة الإسهال).

٥) زوغان البصر والشعور بطنين بالأذن واضطراب فى السمع.

٦) توتر الدورة الشهرية عند النساء، والشعور بالضعف الجنسى عند الرجال.

العصاب الوسواسى:

يطلق عليه الوسواسى القهرى Impulsive nuoretic، وهو عصاب يتميز بظواهر القهر والإلزام Obligation والتكرار العصبى، فهو إذا حدث فى مجال العاطفة سمى «مخاوف مرضية»، وإذا حدث فى مجال التفكير سمى (وساوسى) أما إذا حدث فى مجال العمل سمى «قهراً».

والمريض بهذا الوسواس القهرى كان يتميز منذ نشأته بالدقة والحرص على أن يكون نظيفًا مرتبًا فى كل أموره، يعاقب نفسه ويلومها إذا وقع فى خطأ.

ولهذه الأحاسيس التى تتميز بالوساوس مظاهر تتمثل فى مجموعة من الأعراض، تبدأ بالمخاوف التى يلوذ بها المريض، وهى عبارة عن شعور ملزم متكرر بالخوف من موضوع بذاته، يتبين المريض من خلاله أنه غير موضوعى - ولاداع إطلاقًا للشعور بالخوف بسببه، ولكنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه هذا الخوف، ومن أمثلة هذا الخوف (الخوف من الأماكن المغلقة كركوب المصاعد - الخوف من الأماكن المرتفعة كالنظر من البلكونة - الخوف من الإصابة بالأمراض المعضلة مثل السل والسرطان والإيدز. . . إلخ).

يشعر المريض بالوساوس وهنا نجده ينشغل بمجموعة من الأفكار التى تضغط عليه، ثم تعاوده بصورة متكررة بحيث لا يستطيع التخلص منها؛ بحيث يصبح مجترًا لهذه الأفكار، إلى جانب أن الشعور بالقهر. ذلك الذى يدفع المريض إلى أن يجد نفسه يقوم بأعمال لا مبرر لها، ويحاول أن يقاوم تلك الأعمال ودون جدوى - ولايهدأ توتره إلا إذا قام بهذه الأعمال؛ فنجده إذا كان يمشى فى

الشارع يقوم بحساب عدد البلاط على الرصيف أو عدد أعمدة النور فى الشارع أو عدد الأشجار التى تزين الشوارع. . . تلك بعض الأمراض النفسية، التى يمكن التعامل معها على المستوى العلاجى والإرشادى. ويمكن للإخصائى الاجتماعى المساعدة فى أمر توجيهها مع فريق العمل العلاجى الإرشادى(*).

(*) توجد العيادة النفسية لجامعة عين شمس، وهى العيادة الرائدة فى العالم العربى؛ حيث تقدم خدماتها، من خلال فريق العمل المكون من: «الطبيب النفسى - الإخصائى النفسى - الإخصائى الاجتماعى - إخصائى المقاييس النفسية - الطبيب الممارس العام - إلى جانب المرشد النفسى».

◆ الإرشاد النفسى

- معنى الإرشاد.
- الاتجاهات المستقبلية للتوجيه والإرشاد.
- نظريات الإرشاد النفسى.
- توظيف النظريات فى العلاج والتوجيه.
- وجهة نظر حول النظريات.

العالم الذى نعيش بين جوانبه يحتاج منا إلى أن نسبر أغواره، فهذا العالم متغير وإيقاعه سريع وإنجازاته المادية متنوعة ومتعددة، تحتاج إلى أن نواكبها ونعمل معها بجد واجتهاد وروية؛ فغالباً ما يصاحب هذه المتغيرات المتلاحقة والإيقاع السريع مجموعة من الاضطرابات، تتدخل فى درجة تكيف الشخص.

ذلك التكيف الذى يقصد به من الناحية النفسية تلك العملية السلوكية، التى يستطيع عن طريقها الكائن الحى أن يحتفظ بدرجة من التوازن، بين حاجاته المختلفة والعوائق التى يتعرض لها الإنسان فى المحيط الذى نعيش بين جوانبه.

وجدير بالذكر أن الإرشاد النفسى يمثل العلم والفن، وهو حديث النشأة حيث ظهر مرتبطاً بحركة التوجيه المهنى فى أوائل القرن العشرين، ولم يزدهر إلا فى الثلاثينيات، ومنها ذاع انتشاره فى كل بقاع العالم.

ولكى نوضح مفهوم الإرشاد. فإننا نراه ينصب على تغيير السلوك وتوظيف الإرادة والعمل على تجهيز الشخص؛ للإقبال بطريقة أفضل على المواقف التى تواجهه فى الحياة.

معنى الإرشاد:

الإرشاد النفسى هو العلم التطبيقى الذى يتعامل مع المشكلات، التى تحتاج إلى توجيه، وهو الذى يستند إلى الأساليب المشتقة من مجالات علم النفس وفروعه وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتربية والاقتصاد والفلسفة.

ولقد مرَّ الإرشاد النفسى بمراحل معينة:

(١) ارتبط بالتوجيه المهنى حيث كانت حركة التوجيه المهنى قد أخذت نصيباً كبيراً فى المجال الصناعى.

(٢) ارتبط التوجيه والإرشاد النفسى بالتوجيه المدرسى؛ حيث ركز جهوده إلى

توجيه التلاميذ فى المدارس؛ حيث بدأت المشكلات المتعددة تظهر فى إطار المدرسة، وقد ارتبط الإرشاد النفسى بعملية التعليم.

(٣) يركز على تحقيق التوافق والصحة النفسية، وقد تبين الانتباه إلى التعامل مع مشكلة الأمراض العقلية والتخلف العقلى.

(٤) ارتبط الإرشاد النفسى بالنمو النفسى، ولقد بدأ هذا الاتجاه فى الخمسينيات من القرن العشرين كرد فعل ليتركز على التوافق حيث بدأ التفكير فى وضع الإرشاد النفسى فى خدمة مراحل النمو المختلفة (طبعًا لا ننسى محاولات بياجيه) وظهور فكرة مطالب النمو عندها.

وتتلخص فكرة العلاقة بين الإرشاد النفسى والنمو فى أنه توجد خلال مراحل النمو بأوجهها المختلفة (البيولوجية والاجتماعية والنفسية) فترات، يكون فيها الفرد مستعداً لتعلم مهارات معينة أو محتاجاً إلى تعلم وتحصيل مهام معينة، تقتضيها طبيعة هذه المرحلة، كما تقتضيها درجة النمو أو النضج التى وصل إليها.

الاتجاهات المستقبلية للتوجيه والإرشاد:

وهناك الاتجاهات المعاصرة التى تحكم تطور التوجيه والإرشاد، وهى:

١) زيادة التركيز على برامج التوجيه فى مقابل برامج الخدمات: إرشادات البحوث الحديثة، التى سوف توجه المستقبل إلى أن الإرشاد سيتطور فى اتجاه الوظائف المحددة والأهداف المعنية؛ حيث ستتضاءل كمية الخدمات المعروضة مع ازدياد الطلب وحجم العمل.

٢) سوف تزداد الحاجة لدى المرشد إلى التقويم Evaluation؛ حيث تمثل مهارات التقويم والحكم لدى الموجه والمرشد أهمية كبيرة، ويعد هذا من الأمور الطبيعية التى أدت إلى زيادة الحاجة إلى البرامج وإلى التقويم، وتتجلى أهمية التقويم فى كونه يوضح مدى تحقيق الأهداف، ومدى كفاءة البرامج المتبعة وكيف حققت غرضها.

٣) الاتجاه إلى الإرشاد الجمعى، ذلك الذى يستخدم عندما:

* تكون المشكلات فى الأفراد الذين يعانون من مشكلة مشتركة، أو أن هناك قضية ذات طابع واحد ومشترك.

* يستخدم الإرشاد الجمعى Group Councelling، عندما يكون الهدف تدريب الأفراد أصحاب المشكلة على درجة من التفاعل.

* يستخدم الإرشاد الجمعى، عندما يحتاج صاحب المشكلة إلى الشعور بالانتماء والأمن والطمأنينة.

* يستطيع المرشد أن يستخدم هذا الأسلوب الإرشادى النفسى الجمعى؛ لبث روح التعاون، وعدم الشعور بالخوف أو الخجل وإبداء وجهة النظر بحرية.

ويستخدم في إطار هذا الأسلوب الإرشادى تكنيك جماعات اللقاء Encerint-er-Group، أو جماعات المواجهة أو كما أطلق «روجرز» جماعات النمو النفسى، ويعد من أهم الأساليب الإرشادية؛ لأنه يقوم بدور غير موجه وغير مباشر Non Directive، ولهذا الدور أهداف هى:

ـ إتاحة الفرصة للأفراد «ووضع الإرشاد والتوجيه» لمناقشة القضايا أو المشكلات، التى تعرض عليهم بطريقة متفاعلة، إلى جانب أن أسلوب جماعات اللقاء أو المواجهة هو الأسلوب الإرشادى المتبادل، الذى يسعى إلى:

* تنمية فهم الأعضاء وتواصلهم بعضهم ببعض.

* إعطاء الفرصة لإبداء وجهة النظر بصدق، بعيداً عن دوائر التردد والخوف.

* زيادة التعاون بفهم ووعى ومودة.

* الاهتمام بإعطاء الفرصة للطفل؛ كى يعبر بطريقة بنائية فيها إضافة، من خلال هذا التفاعل المستمر والأخذ والعطاء فى قضية أو وجهة النظر حول الموضوع المطروح.

نظريات الإرشاد النفسى:

تعد دراسة النظريات الخاصة بالإرشاد النفسى مختلفة عند دراستها فى إطار الشخصية؛ حيث نجد الاهتمام قد ينصب على كل ما يتعلق بنظريات الإرشاد على المستوى النظرى والعملى، إلى جانب هذه النظريات. . نلقى مزيداً من الضوء على طرائق وأساليب الإرشاد فى اختلافها واتفاقها.

وجدير بالذكر أن عرض هذه النظريات يعطى المهتم بالعمل الاجتماعى والنفسى إطلالة على بعض الأساليب، التى يمكن أن تتبع فى هذا المجال:

النظرية التى تركز على سمات الشخص، وبعض أبعاد شخصيته:

وهى نظرية يطلق عليها الإرشاد النفسى المباشر أو النظرية الذاتية، وقد تم تعريف السمة على أنها نظام عصبى مركزى، يخص الفرد ويعمل على جعل المثيرات المتعددة متساوية وظيفياً، ويتسبب أيضاً فى إصدار وتوجيه أشكال متساوية من السلوك التكيفى التعبيرى.

وتستند هذه النظرية إلى مجموعة من الأفكار، هى:

١) يختلف الأفراد عن بعضهم البعض اختلافاً كليّـا فى سلوكهم، وتعتبر هذه الفروق منتشرة ولها صفة العموم بين الأفراد.

٢) يمكن تعديل السلوك الإنسانى، ضمن حدود وقدرة الفرد العضوية (ذلك يتعلق بالوراثة والبيئة، التى يعيش فيها الفرد).

٣) ترتكز على الفكرة السائدة، التى ترى أن السلوك الإنسانى فى العادة متشابه.

٤) السلوك الإنسانى ممثل فى الوضع الحالى للفرد؛ (لأن هذا الوضع يحتوى على مجموعة الخبرات السابقة، بالإضافة إلى المناخ الطبيعى والاجتماعى الذى يعيش الفرد بين جوانبه).

٥) يمكن النظر إلى السلوك الإنسانى بسهولة من ناحية قدرة الفرد، وشخصية الفرد العامة وأخيراً مزاج الفرد وحوافزه.

٦) القدرة على فهم سلوك الفرد الاجتماعى وعلاقته بالمجتمع.

ويلاحظ أن نظرية السمات، والعوامل تأخذ بعين الاعتبار الفروق الفردية، وتعتمد على المقارنة فى تنمية المجموعات من الناحية الاجتماعية، ثم تساعد فى الوقت ذاته على فهم وتحسين التقويم الذاتى، وتستند هذه النظرية، التى تهتم بالتركيز على السمات والعوامل إلى:

(١) السلوك:

تعتمد هذه النظرية على أن سلوك الإنسان يمكن أن يتم تنظيمه بطريقة مباشرة، وأنه يمكن قياس السمات والعوامل المحددة بتطبيق الاختبارات والمقاييس؛ للوقوف على الفروق الفردية فى السمات المميزة للشخصية، ثم ترى النظرية أن نمو السلوك يتقدم من الطفولة إلى الرشد، من خلال نضج السمات والعوامل.

(٢) الشخصية:

هى عبارة عن نظام يتكون من مجموعة سمات أو عوامل مستقلة، تمثل مجموع أجزائها.

(٣) السمات:

السمة هى الصفة (الجسمية أو العقلية أو الانفعالية أو الاجتماعية) سواء كانت هذه السمة فطرية أم مكتسبة، يتميز بها الشخص وتعبر عن استعداد ثابت نسبيًا كنوع معين من السلوك، ويفهم الفرد فى ضوء سمات شخصيته.

وقد حاول علماء النفس حصر تلك السمات الشخصية.. فإذا بها تتجاوز الآلاف ولا يعرف لها حصراً؛ لذلك لجأوا إلى أسلوب التحليل العاملى Factor analysis؛ حتى يضموا تلك السمات فى منظومة، يطلق عليها السمات العامة Genral Traits.. تلك السمات التى انقسمت إلى:

١) سمات مشتركة: يتسم بها الأفراد جميعاً.

٢) سمات فريدة: لا تتوافر إلا لفرد معين، ولاتوجد بالصورة نفسها عند الآخرين

٣) سمات سطحية: وهى الواضحة الظاهرة.

٤) سمات مصدرية: وهى الكامنة التى تعتبر أساس السمات السطحية.

٥) سمات مكتسبة: وتنتج عن فعل العوامل البدائية وهى متعلمة.

٦) سمات وراثية: وهى تكوينية ولا تحتاج إلى تعليم.

٧) سمات دينامية: تهيئ الفرد وتدفعه نحو الأهداف.

٨) سمات قدرة: تتعلق بمدى قدرة الفرد على تحقيق الأهداف.

(٤) العوامل: Factors

مصطلح رياضى إحصائى يوضح المكونات المحتملة للظواهر، وبالنسبة لتفسيره النفسى يسمى بالقدرة والتحليل العاملى Factor analysis وهو أسلوب إحصائى للتوصل لأقل عدد ممكن من العوامل المشتركة اللازمة؛ لتفسير مجموعة من الارتباطات، والتى تؤثر فى أى عدد من الظواهر المختلفة.

توظيف نظرية السمات والعوامل فى الإرشاد النفسى:

تعتبر هذه النظرية هى الأساس النظرى الذى يقوم عليه الإرشاد النفسى المباشر Directive counselling، وكان من العلماء الذين فطنوا هذه النظرية فى مجال الإرشاد «وليامسون» Williamson، وهو رائد طريقة الإرشاد المباشر.

وتركز نظرية السمات والعوامل فيما يتعلق بالإرشاد النفسى على:

١) أن عملية الإرشاد النفسى أساساً عملية عقلية معرفية Cognitive.

٢) أن سوء التوافق لدى الأشخاص العاديين يضعف إلى حد ما إعمال العقل والتفكير؛ مما يؤثر على درجة التقاط الخبرات التعليمية.

٣) المرشد النفسى تقع عليه مسئولية تحديد المعلومات المطلوبة والعمل على جمعها وتحليلها، ثم تقديمها إلى صاحب المشكلة.

٤) المرشد يمثل الإطار المرجعى بما لديه من معلومات وخبرة وقدرة كافية على

تقديم النصح وحل المشكلات بطريقة الإرشاد، ومن ثم ينظر إلى المرشد نظرة المعلم الموجه لعملية التعليم لدى صاحب المشكلة.

٥) تهتم نظرية السمات بالتشخيص النفسى، واستخدام طرق الإرشاد التى تناسب اختلاف الشخصية من فرد إلى آخر، وتهتم كذلك بتحليل الشخص (صاحب المشكلة)، ثم إجراء بعض المقاييس النفسية التى تعطى تقديرات كمية لسمات الفرد، بما يفيد عمليًا فى اختباراته المتعددة.

٦) يعتبر مجموعة من المشتغلين بالإرشاد أن تعرف أبعاد الشخصية يعطى قيمة ونجاح عملية الإرشاد.

وجهة نظر ناقدة لنظرية السمات والعوامل:

وجدير بالذكر أن هذه النظرية قد وجه إليها مجموعة من الانتقادات، هى:

١) أنه لا يوجد اتفاق عام حول معانى السمات والعوامل.

٢) التحليل العاملى أسلوب إحصائى.. هناك من استطاع الاستفادة منه، وهناك من لم يستفد لسوء توظيف هذا الأسلوب.

٣) ترتكز النظرية على سلوك الشخص، ولكنها لا تحدد كيف يسلك أو لماذا يسلك سلوكًا معيناً محدداً، كذلك لم توضح الدور الذى يمكن أن تقوم به الدافعية Motivation.

٤) لا تمكن النظرية من القيام بوصف كامل للشخصية وكل أبعادها.

٥) هناك شك فى قيمة النظرية بالنسبة لمجالات الإرشاد النفسى، وتعامل بحذر فى أمر الشخصية وتكاملها.

ثانياً: نظرية التحليل النفسى Psychoanalysis

الأفكار المحورية لهذه النظرية:

عندما نتكلم عن نظرية التحليل النفسى، يخرج علينا دائمًا فرويد Freud الذى يرى أن الجهاز النفسى يتكون من:

١) الهو: Id

وهى عبارة عن منبع الطاقة الحيوية والنفسية، ومستودع الغرائز أو الدوافع الفطرية، والتى تسعى إلى الإشباع بأى صورة وبأى ثمن، وهى الصورة البدائية Primative للشخصية، قبل أن يتناولها المجتمع بالتهذيب.

٢) الأنا: Ego

هو كما يرى أصحاب هذا الاتجاه مركز الشعور والإدراك الحسى الخارجى والداخلى، وما يتضمنه من عمليات عقلية؛ حيث يقوم بالإشراف على الحركة والإدراك، وهو الذى يتكفل بالدفاع عن الشخصية وتوافقها، وحل الصراع بين مطالب (الهو) و(الأنا الأعلى) والواقع؛ فهو محرك ينفذ الأوامر الشخصية ويعمل فى ضوء مبدأ الواقع؛ من أجل حفظ الذات وتحقيقها والتوافق الاجتماعى.

٣) الأنا الأعلى: Super Ego

وهو مصدر المثاليات والأخلاق ومنبع الضمير، وما يتعلق به من الالتزام بالمعايير الاجتماعية والقيم الدينية، وهو الرقيب الذى يمثل سلطة داخلية على نفس الإنسان.

المفاهيم التى ترتكز عليها هذه النظرية وروادها:

يرى (فرويد) أن الجهاز النفسى لابد وأن يكون متوازناً، حتى تسير الحياة سيراً سوياً؛ ولذلك يحاول (الأنا) حل الصراع بين (الهو) و(الأنا الأعلى).. فإذا نجح كان الشخص سوياً، وإذا أخفق ظهرت أعراض العصاب Neurosis.

وجدير بالذكر أن الفرويديين المحدثين Neo - Freudians قد أسهموا بآراء جديدة تتلخص فى الآتى:

١) أضاف (يونج Yung) أهمية الذات Self كجهاز مركزى للشخصية، يعتمد عليها فى وحدتها وثباتها وتوازنها، وأنها تحرك السلوك وتنظمه، واهتم

«يونج» بمفهوم الشخصية المصنعة Persona، واهتم كذلك بدراسة الأنماط النفسية (الانبساطى والانطوائــى ـ فــروع التفكـير الوجدانــى، الحســى، الإلهامى).

٢) تحدث (أدلر Adler) عن مفهوم الذات الدينامى، الذى يتعامل مع الآخرين والذات المبتكرة Creative Self، وهى العنصر الدينامى النشط والفعال Ef-fective فى الشخصية.

٣) قدمت (هورنى Horney) أيضاً مفهوم الذات الدينامى.. ذلك الذى جعلها تعتقد أن الشخص يناضل فى الحياة، من أجل تحقيق ذاته فتحدث الذات المثالية والذات الواقعية.

٤) وتحدث (رانك Rank) عن نمو الذات من الطفولة؛ بحيث يمر تطور الفرد بثلاث مراحل: (العادى ـ العصابى ـ المتوافق).

٥) وتعتقد (سلوفيان Sullivan) أن جهاز الذات ينمو بطريقة يحفظ بها نفسه ضد القلق، الذى يعتبر نتاجاً للتفاعل الاجتماعى، وتلعب دينامية الذات Self Dynamics دوراً مهماً فى تنظيم السلوك، وفى تحقيق الحاجة إلى القبول الاجتماعية Social Tollerance.

٦) ويرى (فروم Fromm) أن الشخصية هى مجموعة من السمات النفسية Psy-chological Traits، والجسمية الموروثة والمكتسبة، التى تميز الفرد وتجعل منه شخصاً فريداً، ويؤثر على أهمية دور الأسرة. وعملية التطبيع الاجتماعى Socialization، هى التى تساعد على اكتساب الشخص «الخلق الاجتماعى» والقيمة الاجتماعية Social Values، مع اكتسابه فى الوقت نفسه «للأخلاق على المستوى الفردى».

كيف توظف نظرية التحليل النفسى فى المجال الإرشادى:

نلاحظ كما سبق فى عرضها للرواد وأصحاب الفكر المتطور لنظرية التحليل النفسى، أن هذه النظرية تعتمد على دينامية الطبيعة البشرية وعن بناء الشخصية،

وما تعتمد عليه من بحث لدراسة السلوك البشرى، وهى أيضاً طريقة علاج؛ حيث يعتبر المرضى فى رأى (فرويد) من أهم الأسباب، التى تؤدى إلى الصراع النفسى Psychological Conflict.

أما عن خطوات التحليل النفسى Psycho Analysis، والتى تدخل ضمن الخطوات العامة.. فأهمها الدينامية بين المسترشد (صاحب المشكلة) والمرشد المعالج، والتى يسودها التقبل والتفاعل الاجتماعى السليم والتطهير - التفريغ الانفعالى Catharsis للأشياء المكبوتة، سواء كانت أحداثاً أو خبرات أو دوافع أو صراعاً بكل العوامل المصاحبة الانفعالية، تؤدى إلى اختفاء أعراض «العصاب» والتداعى الحر Free Association، يكشف عن الأشياء والخبرات المكبوتة فى اللاشعور، عن طريق إطلاق العنان بحرية للأفكار والخواطر والاتجاهات والصراعات والرغبات والإحساسات، مع الاستفادة من «فلتات اللسان وزلاته»، ثم محاولة التفسير لما يكشف عن ذلك التداعى الحر.

وتكون مهمة التفسير شرح كل ما هو غامض بأسلوب منطقى صحيح، وبلغة علمية يفهمها صاحب المشكلة، خطوة مهمة فى تخفيف حدة الصراع النفسى Conflict، إلى جانب أنهما يساعدان فى إعادة التوازن لصاحب المشكلة، إلى جانب العمل على تخفيف حدة الصراعات وإعادة تمرس القيم والمبادئ، ومعرفة هدف صاحب المشكلة فى الحياة وتنمية مفهوم إيجابى عن الذات لديه، والتقليل من حدة القلق وتكوين الإرادة الإيجابية.

ذلك كله يغير كل ما يحيط بصاحب المشكلة من هواجس ومؤثرات ودوافع ومدى التغيير، الذى طرأ على نظرية التحليل النفسى الكلاسيكى، كما وردت عند (فرويد) وبعض الإجراءات الفنية، التى ظهرت لدى الفرويديين المحدثين Neo Freudians، والتى تتماشى مع مجريات الإرشاد النفسى وأهدافه.

وجهة نظر عن مدى فعالية هذه النظرية في مجال الإرشاد:

حظيت نظرية التحليل النفسى كاتجاه تحليلى فى مجال الإرشاد النفسى بمعارضة ونقد شديدين، على أساس ما يلى:

١) أن التحليل النفسى يهتم أساساً بالمرضى والمضطربين نفسيا، أكثر من اهتمامه بالأصحاء والأسوياء.

٢) إجراءات التحليل النفسى تعد إجراءات مطولة تستغرق وقتًا طويلاً وجهداً ومالاً وتحتاج إلى خبرة دامغة، وتدريبات مكثفة قد لا تتوافر بسهولة إلا لعدد قليل من الإخصائيين.

٣) إن بعض المشتغلين بالإرشاد النفسى يرون فى تعصب أن التحليل النفسى هو الطريقة المثلى؛ بحيث يعلو على كل الطرق الإرشادية!!

٤) هناك مقاومة عند بضع المشتغلين بالإرشـاد النفسى، عندما يتعاملـون مع التحليل النفسى.

ثالثاً: نظرية المجال Field Theory

ترتبط هذه النظرية باسم (كيرت ليفين Lewin)، وقد تأثر فى نظريته بعلم النفس الجشتالتى، التى نادى بها فرتمر Wertheimer وكوهلر Kohler وكوفكا Koffka.

ركائز هذه النظرية:

تعتمد هذه النظرية على المجال الكلى، الذى يتدخل فى عملية الإدراك، وأن الكل ليس مجرد مجموع الأجزاء، وإنما يتحدد بطبيعة الكل بحيث تتكامل الأجزاء فى وحدة واحدة.

وتؤثر نظرية المجال على أن السلوك هو وظيفة المجال، الذى يوجد فى وقت حدوث السلوك ونتيجة لقوى دينامية محركة، ويبدأ بتحليل الموقف ككل، ومن

الموقف الكلى تتمايز الأجزاء المكونة، ويؤكد (ليفين) أهمية قوى المجال الدينامية، التى تسهم فى تحديد (السلوك).

ويعرف المجال بأنه نتاج الوقائع الموجودة معاً، التى تدرك على أنها تعتمد على بعضها البعض.

مفاهيم نظرية المجال:

الشخص:

هو كيان محدود داخل المجال الخارجي الأكبر منه، والشخص له خاصيتان هما (الفصل) عن المجال و (الوصل) مع المجال، وبمعنى آخر (التفاضل أو التمايز والتكامل)؛ أى إن الشخص يكون منفصلاً عن المجال الكلى الأكبر، مندمجًا فى الوقت نفسه داخل المجال الجزئى، وهذا هو دافع الشخص.

المجال النفسى:

يوجد الشخص فى مجال نفسى أو بيئة نفسية خارج حدوده، ويحدث تفاعل بين الشخص ومجاله النفسى؛ بحيث يعتمدان بعضهما على البعض الآخر داخل (حيز الحياة Life Space).

المجال الموضوعى أو البيئة الموضوعية:

تلك التى تضم كل الإمكانات التى تخرج من المجال السلوكى للشخص، والتى ليست فى حيز الحياة، ولكن تؤثر على الفرد.

المناطق:

ينقسم المجال الكلى إلى المناطق، وتحتوى كل منطقة على وقائع أو حقائق، وتسمى الوقائع الأساسية للمنطقة للشخصية الداخلية باسم الحاجات Neads.

الاتصال بين المناطق:

تتصل المناطق عن طريق الاتصال بين الوقائع الواقعة فى كل منهما بالأخرى ويحدث بينهما تفاعل وتأثير متبادل ينتج عنه حدث Event.

الحركة والاتصال:

وهى من الخواص المهمة للمجال النفسى، وتحدث كنتاج للتفاعل بين الوقائع وأسماه ليفين (مبدأ الارتباط).

إعادة بناء حيز الحياة:

ويتم ذلك عن طريق الحركة والاتصال ونتيجة للتفاعل بين الوقائع.

الواقع:

وقد تحدث كيرت ليفين عن الواقعية واللاواقعية.. أما الواقعية فتتضمن حركة فعلية، واللاواقعية تتضمن حركة تخيلية، فيستطيع أن يحل مشكلة حلاً واقعيّا أو حلاً لاواقعى فى حلم يقظة.

الزمن:

يذكر (كيرت ليفين) أن السلوك لا يتأثر بالماضى ﷺ ويقرر أن الوقائع الحاضرة وحدها هى التى تستطيع أن تحدث سلوكاً حاضراً، أما الوقائع الماضية فلا تؤثر فى الحاضر.

ديناميات الشخصية:

يشبه ليفين بناء حيز الحياة بالخريطة الجغرافية؛ باعتبار أن الخريطة الجغرافية الجيدة تحتوى على جميع المعلومات، التى يحتاج إليها الشخص لتدله على الطريق الصحيح، كذلك.. فإن البناء الجيد لحيز الحياة ـ أى الشخص ومجاله ـ لابد وأن يحتوى على الوقائع اللازمة لتفسير السلوك المحتمل للشخص.

التحرك:

يتحرك الشخص خلال مجاله النفسى، مدفوعًا بحاجة تطلق الطاقة وتستثير التوتر، وتضفى قيمة إيجابية على المنطقة، التى فيها ما يشبع هذه الحاجة.. فيتحرك الشخص نحو منطقة إشباع الحاجة، وقد تكون الحدود بين المناطق سهلة

العبور فيتحقق الإشباع أو العكس؛ مما يجعل الفرد مضطراً إلى اتخاذ مهارات جانبية للحركة نحو الهدف، وهو إشباع الحاجة.

فقد التوازن:

هو حالة عدم تساوى التوتر داخل المناطق المختلفة للشخص وارتفاع التوتر فى النظام كله، وإذا تكرر حدوث ذلك تراكم التوتر الداخلى واشتد، بما يحدث اندفاعاً مفاجئًا للطاقة فى المنطقة الإدراكية ـ الحركية ـ يؤدى إلى إحداث السلوك، الذى يطلق عليه «السلوك الانفجارى Explosive».

العودة إلى التوازن:

وإعادة الشخص إلى حالة التوازن هو الهدف النهائى لجميع العمليات النفسية، بعدة طرق:

(أ) قيام الشخص بتحرك مناسب فى المجال النفسى، يؤدى إلى تحقيق الإشباع وتحقيق الهدف.

(ب) قيام الشخص بتحرك بديل، فى حالة وجود تنسيق كامل متبادل بين حاجتين؛ بحيث يؤدى إشباع إحداهما إلى إزالة التوتر المصاحب للحاجة الأخرى.

(جـ) قيام الشخص بتحرك خياله كما فى أحلام اليقظة.

نمو الشخصية:

تناول ليفين بعض التغيرات السلوكية التى قد تحدث خلال النمو، والتى تنتج عن التنوع فى أنشطة الشخص وانفعالاته وحاجاته وعلاقاته الاجتماعية، التى تتزايد مع نموه، كما يرى ليفين أن النمو عملية مستمرة يصعب تقسيمها إلى مراحل منفصلة.

تطبيق نظرية المجال في الإرشاد النفسي:

يلاحظ على نظرية المجال أن (كيرت ليفين) أنها كانت مرتبطة بالإرشاد النفسي بطريق غير مباشر، حيث طبق مفاهيم نظريته على دراسة السلوك في الطفولة والمراهقة وديناميات الجماعة، وحل الصراع الاجتماعي، ومشكلات جماعات الأقلية وإعادة التعلم.. ولكنه لم يتعرض (ليفين) مباشرة في كتاباته لتطبيق نظريته في الإرشاد النفسي.

ويمكن أن تطبق نظرية المجال في الإرشاد النفسي، على الوجه التالي:

(١) لابد من وضع معايير لكي نتعرف أسباب الاضطرابات والمشكلات النفسية. وقد تكون هذه المعايير:

أ) معايير تتعلق بشخصية صاحب المشكلة وخصائصها، التي ترتبط بالاضطراب والمسببة له.

ب) خصائص حيز الحياة والتي ترتبط بصاحب المشكلة، عند حدوث الاضطراب.

جـ) الأسباب الشخصية والاجتماعية، التي تتعلق بالاضطراب النفسي.

(٢) يتكون الاضطراب النفسي من عدة مكونات، هي:

أ) مجال الفرد خاصة عندما تبدأ ردود الأفعال.

ب) المجال الثقافي والبيئي المادي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي.

جـ) مجال المرشد النفسي أو المعالج النفسي وتأثيره.

د) مجال نظرية الإرشاد نظريًا وعمليًا.

(٣) تهتم نظرية المجال في عملية الإرشاد والعلاج على ما يأتي:

أ) أهمية التغيير الذي يحدث في عملية الإدراك Perception، حيث يتأثر الإدراك بعامل الوقت - قيم الشخص - أهدافه - إدراك العوامل التي تهدده.

ب) محاولة مساعدة صاحب المشكلة حتى تخف حدة العوائق، التى تتدخل فى إحداث المشكلة؛ فتجعل صاحب المشكلة أكثر مرونة وأقل جموداً، وتساعده فى تحقيق أهدافه حتى لا يواجه مواقف محبطة.

جـ) أهمية تغيير مفاهيم الفرد واتجاهاته.

د) أهمية التغيير التدريجى خطوة ـ خطوة فى إعادة التعلم.

هـ) أهمية أن يستبعد صاحب المشكلة ـ كخطوة محورية فى عملية التعليم (كأن يساعد المرشد صاحب المشكلة على إعادة خبراته الماضية وتنظيم الخبرات الحاضرة، ويعدل المجال الإدراكى للتوصل إلى الحل التلقائى المفاجئ الذى يستغرق بعض الوقت).

وجدير بالذكر أن هذه النظرية قد تعددت مفاهيمها وتعقدت؛ بحيث لم تعد تمثل سلامة أو سهولة فى تطبيقها فى المجال الإرشادى.

رابعاً: النظرية السلوكية (يطلق عليها نظرية المثير والاستجابة أو نظرية التعليم):

ترتكز هذه النظرية على السوك، وكيف تتم عملية التعليم Learning Process ثم ما العوامل التى تؤدى إلى تغييره، وبطبيعة الحال يمثل ذلك الاهتمام بالسلوك وما يتعلق به أهمية كبيرة فى عملية الإرشاد.

وأول ما يصادفنا فى هذه النظرية أنها «عارضت نظرية السمات؛ على اعتبار أن ليس هناك صفة ثابتة مستقرة»؛ لأن الشخصية ليس لها بناء ثابت ودائم، وكل ما هناك هو مجموعة من العادات النوعية، تتعلق بالارتباط بين المثيرات والاستجابات Stimulus & Responces.

وترتكز هذه المدرسة على مجموعة من المفاهيم والمصطلحات، أهمها:

١) أن معظم سلوك الإنسان متعلم، ويمكن تعديل هذا السلوك المتعلم وفق ما تقتضيه المواقف والضرورة.

٢) هناك علاقة بين المثير والاستجابة.. فإذا كانت هذه العلاقة بينهما سليمة كان السلوك سوياً، والعكس ليس صحيحاً حيث تتأثر الاستجابة بالمثير الذى يصاحبها.

٣) هناك دوافع ودافعية Motivation تتدخل فى عملية التعليم؛ حيث لا تتم عملية التعليم دون دوافع؛ لأن الدافع هو طاقة كاملة قوية يحرك الطاقة الانفعالية الكاملة.

٤) التعزيز Reinforcement وهو التدعيم للسلوك والتثبت، الذى يؤكد سلامة الخبرة، وبطبيعة الحال لابد وأن يرتبط بما يحققه من أثر طيب.

٥) أثر التعزيز وضع فى شكل منظم، أطلق عليه قانون الأثر Law of Effect.

٦) أشاروا إلى أن هناك طوفاناً يحدث Extin Tim، وهو حالة يضعف فيها السلوك المتعلم؛ بحيث يقل تأثيره ويخمد ويتضاءل، إذا لم يحدث المران والممارسة.

٧) تحدث تعميم السلوك Generalization، وذلك التعميم عبارة عن تدعيم للاستجابة المتعلمة الناجحة.

كيف توظف النظرية السلوكية فى مجال الإرشاد النفسى؟ يتم ذلك التوظيف فى:

* تعزيز السلوك السوى المتوافق.
* إعطاء صاحب المشكلة الفرصة لكى يتعلم سلوكاً جديداً، يلقى عنده قبولاً ورغبة مع التخلص من السلوك غير المرغوب.
* تغيير السلوك غيرالسوى من خلال تحديد السلوك المراد تغييره، وكذلك خلق المناخ الملائم الذى يحقق هذا التغيير المنشود.
* صيانة صاحب المشكلة، حتى لا يعود مرة أخرى إلى المشكلة.
* ظهور الإرشاد السلوكى Behavioral Counselling، ذلك الذى اعتمد عليه العلاج السلوكى Behavior Therapy.

خامسا: نظرية الذات Self Theory

ترتكز هذه النظرية على دراسة الذات ومفهوم الذات Self Concept. ويعد مفهوم الذات حجر الزاوية في هذه النظرية، لأنه ينظم السلوك. ويعد كارل روجرز Rogers هو الذى قدم نظرية الإرشاد والعلاج النفسى المتمركز حول العميل Client - Centered أو غير المباشر Non - Directive. وقد اعتمدت هذه النظرية على مجموعة من المفاهيم للمكونات الأساسية؛ وأعنى بتلك المفاهيم والمكونات:

* اهتمت بالذات Self تلك التى تمثل كينونة الفرد، وتنفصل تدريجياً عن المجال الإدراكى، ثم مفهوم الذات Self Concept، وهو الذى يمثل تكويناً معرفيًّا منظماً ومتعلماً للمدركات الشعورية والتصورات الخاصة بالذات، ومفهوم الخبرة التى تمثل مجموعة من الخبرات والمعايير الاجتماعية، وهو الذى أطلقوا عليه مجال الخبرة الظاهرى Phenomenal Field.

كيف نستفيد من هذه النظرية فى الإرشاد النفسى:

تساعد فى ترسيخ مفهوم الذات الواقعى Realistic Self Concept بحيث تكون معظم حالات سوء التوافق هى نتيجة للفشل فى تنمية هذا المفهوم الواقعى، ورسم الخطط التى تتلاءم معه.

ويساعد هذا النمط من الإرشاد فى التوجيه المهنى Vocational Guidance، إلى جانب أن هناك مجالات أخرى إرشادية، تتمثل فى الإرشاد الزواجى Marriage Councelling.

وجدير بالذكر أن هذه النظرية قد قابلت بعض الانتقادات، تتمثل فى أن روجرز يرى أن الفرد يعيش فى عالمه الذاتى الخاص؛ بحيث يكون سلوكه ترجمة لإدراكه الذاتى.

وبطبيعة الحال.. فإن هذا التقوقع شرنقة الذات يكون على حساب الموضوعية Objectivity، إلى جانب أن هذه النظرية لا تعطى اهتماماً كثيراً للاختبارات النفسية.

◆ نماذج من الإرشاد النفسى
فى مجال الخدمة والرعاية الاجتماعية

- مواصفات البرنامج الإرشادى (إعداده - ركائزه - خطواته).
- توظيف الارشاد النفسى فى مجال الرعاية الاجتماعية.
- الرعاية الاجتماعية من المقومات التربوية والإرشادية لتلاميذ المدارس.
- التغير الاجتماعى وانعكاسه على السلوك فى المجتمع.

مواصفات البرنامج الإرشادي

يستند الإرشاد النفسى لتنمية القدرات الابتكارية لدى الأطفال إلى الإدارة الواعية التى فى مقدورها، اعتماداً على المنهج العلمى السليم، أن تخطو خطوات نحو تحقيق هذه التنمية، والعمل على إظهار القدرات ومتابعتها، ومن هنا يمكن القول أن تخطيط البرنامج الإرشادى المقترح يعتمد على خطوات، لعل من أهمها(*):

* توضيح أهداف البرنامج.
* توضيح الوسائل والطرق التى تعمل على تحقيق هذه الأهداف.
* العمل على إشراك أكبر عدد ممكن من العاملين فى المؤسسة، التى تطبق برنامج الإرشاد؛ لنضمن شبكة من العلاقات الاجتماعية المؤيدة لهذا البرنامج والمؤمنة بفاعليته.
* تحرى الدقة فى التماشى مع البرامج والمناهج المتبعة، دون الخروج على السائد المألوف أو المتبع من الأصول واللوائح والنظم.
* وضع مراحل التقويم بطريقة سليمة؛ لتتم المتابعة الواعية لدرجة التنمية المطلوبة.

وإذا ما حاولنا أن نضرب مثالاً لتطبيق هذه الخطوات على المدرسة؛ بوصفها المؤسسة التربوية، التى تتطلع إلى تعليم التلاميذ، وهى فى سعيها الحثيث نحو

(*) ارجع إلى أ.د. سيد صبحى فى دراسته عن «الإرشاد النفسى فى مجال الابتكار» كلية التربية، جامعة عين شمس، ١٩٩٧ .

تحقيق هذا الهدف، تعمل على إشباع حاجاتهم العضوية والنفسية والاجتماعية والثقافية والترويحية والمهنية والذوقية والجمالية؛ فإن الملاحظ أن البرنامج الإرشادى النفسى يعد بمثابة الوسيلة الإجرائية، التى من شأنها أن تحول الكلام النظرى إلى تطبيقات عملية وفعلية، خلال عمليتى التعلم وتقديم المقررات الدراسية.

واعتماداً على ذلك، فلابد لمن يقوم بهذه المهمة التعليمية أن يهتم بالأدوار الآتية:

* تعرف الفروق الفردية بين التلاميذ بطريقة علمية سليمة.
* دراسة مسحية لتعرف حاجات التلاميذ الشخصية والاجتماعية، إلى جانب دراسة اتجاهاتهم وميولهم ونشاطهم.
* تجهيز الإمكانيات المادية والبشرية للعمل على تحقيق إشباع تلك الحاجات
* تحديد برنامج زمنى لتوظيف البرنامج، والعمل على التحقق من جدواه بطريقة موضوعية، تعتمد على التفاهم والتفاعل بين أعضاء فريق العمل الإرشادى.
* تحديد الأفراد الذين لهم اتصال مباشر أو غير مباشر بالتلاميذ أفراد العينة.
* تدريب الأخصائيين على الوسائل الفنية والإدارية، والتنفيذية وما يتعلق بكل هذه الأمور من (اختبارات ووسائل ولوائح إدارية وهيئات ومؤسسات معينة، قد تساعد فى تقديم الخدمات، أو تمثل خبرة استشارية أثناء تنفيذ البرنامج الإرشادى).
* عقد اجتماعات دورية لتقويم ماتم إنجازه من البرنامج، وتعرف مدى فاعلية البرنامج، وتأثيره على تنمية المهارات، وتغيير الاتجاهات إلى الوجهة المطلوبة.

وجدير بالذكر أن الإدارة المدرسية يجب أن تتميز بالديمقراطية، التى تعمل على تشجيع العاملين فى البرنامج، وتمكنهم من تخطيطه وتنفيذه بحرص، مع توظيف كل الوسائل المتاحة فى جو يتسم بالتفاعل والتعاون وإيمان بقيمة البرنامج.

وجدير بالذكر أن نجاح البرنامج الإرشادى على وجه العموم يعتمد على مجموعة من الأسس والركائز، التى تنتمى إلى المجال النفسى والتربوى والإدارى ومن الممكن أن نتناول هذه الركائز على الوجه الآتى:

الركيزة النفسية:

يعتمد البرنامج الإرشادى لتنمية الابتكار لدى الأطفال على أسس نفسية، لابد من مراعاتها، ولعل هذه الأسس هى:

* الاهتمام بشخصية الطفل على وجه العموم (بنظرة شمولية دون التركيز على جانب معين أو محدد).
* الاهتمام باكتشاف الفروق الفردية بين الأطفال، وفى ضوئها يتم تصنيفهم ووضعهم فى المواقف الملائمة لقدراتهم.
* الاهتمام بقياس مستوى النضج، وما يواكبه من عوامل، تساعدهم على تعلم الخبرات بسهولة ومرونة وفهم.
* الحرص على أن تكون المهام الملقاة على عاتق كل طفل فى مستوى قدراته؛ بحيث لا يجوز أن يكلف طفل بعمل لا يقوى عليه.
* إعطاء دور المرشد النفسى أهمية؛ بحيث يمثل همزة الوصل الحقيقية والفعالة، التى تعمل على ربط العلاقة بين التلميذ والإدارة المدرسية؛ فيشعر بقيمة وضرورة المناخ المدرسى، ويحرص على الانتماء إليه والتفاعل معه ويقدم له الخامات اللازمة.

الركيزة التربوية:

وإذا كنا قد حددنا أهم العناصر التى تندمج تحت الركيزة النفسية.. فإن هذه الركائز تستند إلى ركيزة تربوية تدعمها فى التطبيق، وتعنى بها التصور العام للمدرسة كمؤسسة تربوية، لابد من أن تراعى بعض الأمور الآتية فى أمر تنفيذ البرنامج الإرشادى:

* أن يكون الهدف من البرنامج الإرشادى، الذى يعد لتنمية الابتكار متماشيًا مع الفلسفة التربوية للمدرسة - أى لا يخرج البرنامج إلى الإطار التربوى العام الذى تدعمه المدرسة.

* أن يكون البرنامج جزءًا لا يتجزأ من العملية التعليمية ومكملاً لها ومدعمًا للمفاهيم التربوية التى تحتوى عليها.

* الاهتمام بدور المعلم تربويًا وتدعيم تصرفاته القيادية وتفاعله فى رسم الخطط، والعمل على تنفيذ البرنامج.

* اعتبار جميع الأفراد (الأطفال) المشتركين فى البرنامج على درجة من السواء، تمكنهم من الاستمرار فى تلقى البرنامج، وما يتضمنه من خبرات ومهارات.

* مراعاة المشكلات التى قد يعانى منها الأطفال، واعتبارها متآزرة ومتكافئة؛ بحيث يمكن أن تؤثر بعضها فى البعض الآخر.

* الاعتماد على المواقف كمحكات رئيسية لدراسة المشكلات؛ فالمشكلة النابعة من الموقف هى أهم المشكلات.

* عندما تتكامل وتتفاعل الجهود فى أمر إعداد وتخطيط وتنفيذ البرنامج بين جميع العاملين فى المدرسة، وكذلك الآباء والأمهات وجميع المؤسسات والهيئات الخارجية، فنحن نضمن للبرنامج النجاح والاستمرار والتأثير الموجب.

الركيزة الإدارية:

يعتبر البرنامج الإرشادى فى نجاحه على مجموعة من الأسس الإدارية التى تحقق العوامل الآتية:

* تهيئة المناخ الإدارى السليم المعتمد على الإمكانيات المخططة، وفق إدارة سليمة تعمل على متابعة وتنفيذ البرنامج بكل ما يتطلبه من «مكان ووقت وأدوات ووسائل»؛ لتيسير العمل فى البرنامج ومساعدة أفراده على الاستفادة وتوظيف الخبرات فى جو، يحقق لهم التهيئة السليمة لتقبل الخبرات.

* اختيار فريق العمل الذى سوف يقوم بإدارة المجموعات من الأطفال أو العمل على تنفيذ البرنامج؛ بحيث يتميز أفراد الفريق بكل الصلاحيات النفسية والانفعالية والخبرات، التى من شأنها أن تساعدهم على إدارة العمل.

* مراعاة أن يتكون دولاب العمل الإدارى من أولئك، الذين يتميزون بالقيم الأخلاقية والدينية والفنية والجمالية والحرص على النظام، الذى يسمح للعمل أن يتم بطريقة سليمة.

* دراسة نظم وقوانين ولوائح العملية التعليمية، وما تتطلبه من أصول إدارية وقانونية، تخدم سير العمل فى البرنامج بعيداً عن عوامل الضغط والروتين.

* المتابعة الواعية التى تعمل على تعرف مدى فعالية البرنامج الإرشادى المقدم للأطفال، وكيف يحقق هذا البرنامج دوره، وإلى أى حد استطاع أن يحقق الهدف المنشود.

البرنامج الإرشادى المثمر إذاً يعتمد على ركيزة نفسية وركيزة تربوية، ثم ركيزة إدارية إلى جانب ما يتطلبه العمل الإرشادى من تفاعل ووصال بين المعلم والأسرة؛ لأن المدرس فى مدرسة الحضانة أو فى الابتدائى يعد بديلاً عن الأبوين؛ وخاصة ما تقوم به الأم من رعاية؛ الأمر الذى يتطلب أن يقوم المدرس فى هذه المراحل التعليمية بكل ما من شأنه أن يحقق التكيف الاجتماعى للطفل فى مرحلة المدرسة الابتدائية، ويتم له كل ذلك، إذا ما كانت الصلة وثيقة بين المدرسة والمنزل، وأن يعمل المدرس على إشراك الآباء والأمهات فى أمر التعامل مع قدرات الأولاد (بنين وبنات) ؛حتى يتم صقل الخبرة وتدعيمها على مستوى المدرسة والمنزل فهذه المشاركة هى المحور الرئيسى لنمو القدرات.

وهناك بعض الملاحظات المهمة، التى ينبغى مراعاتها، ونحن نعد البرامج الإرشادية لتنمية قدرات الأطفال الابتكارية، تلك الملاحظات التى تحدد مسار التدريب الذى سوف يراعيه البرنامج المستخدم.

ويتحدد نطاق هذا التدريب تبعًا لمراحل معينة يمكن عرضها على الوجه الآتى:

المعرفة:

يقصد بها فى مجال تدريب قدرات الأطفال على الأداء الابتكارى، من خلال جمع المعلومات التى يجب الإلمام بها لمزاولة العمل، وما يتطلبه من معرفة الأسباب والطرق والإجراءات، وما يتعلق بها من لوائح تنظيمية تنظم العمل وتتحدد فيها المسئوليات والواجبات وعلاقات العمل، وما يتعلق بها من قيم؛ حيث لا يجوز أن يتم العمل، دون أن تتحدد القيم المطلوبة للإجراءات بحيث يتعلم الأطفال أن العمل الممتاز والمبتكر هو ذلك، الذى يعتمد على مجموعة من القيم والأصول والأخلاقيات.

ويلاحظ أن نطاق المعرفة يتشعب إلى آفاق متعددة يجب مراعاتها ونحن نقوم بتنمية قدرات الأطفال الابتكارية فمن هذه الآفاق:

«ما يتحتم معرفته، ومنها ما يجب معرفته ومنها، ما يستحسن معرفته».

ومن نواحى المعرفة المطلوبة للطفل أثناء البرنامج على سبيل المثال:

* معرفة الخامات التى سوف نستخدمها.
* التنبيه إلى خطورة الآلات، إذا كانت هناك بعض الآلات، التى سوف يستخدمها وتعويده الطريقة الصحيحة التى ترشده وتوجهه فى التعامل معها.
* توظيف الوقت بطريقة سليمة؛ بحيث يستطيع أن يؤدى فيه ما عليه من واجبات، وأن يقدم إنجازاته فى حدود الوقت المتاح، وأن تعرف مهاراته فى مدى توظيف الوقت.

المهـارات:

لابد من مراعاة المهارات المطلوبة لأداء العمل بطريقة سليمة والتى لا تخرج عن كونها:

* مهارات قيادية، يظهر فيها بعض الأطفال قدراتهم ومهاراتهم القيادية، والتى تعمل على تحملهم المسئولية وإدارة العمل والتفاعل مع الزملاء.

* مهارات إنسانية ويقصد بها مجموعة التصرفات السلوكية، التى لابد وأن يتعودها الطفل؛ حتى يستطيع أن يستفيد من الخبرات المقدمة إليه، وتلك المهارات التى تتعلق بكل ما تعلمه الطفل من مهارات تعليمية خلال المقررات الدراسية، والتى ينبغى أن يوظفها البرنامج التدريبى، فلا يمكن أن تكون هناك برامج تنموية للقدرات بعيداً عن الخبرات التعليمية.

* مهارات أداء العمل، وهى التى تعمل على تعويد الأطفال التهيؤ للعمل والإنتاج بطريقة سليمة، تسمح لهم بالأداء السليم وتوظيف الجهود بالطرق الصحية، التى تجعلهم يوظفون طاقاتهم التوظيف الأمثل، ويتم ذلك بتدريبهم على الأعمال التى سوف يمارسونها ويتفاعلون معها.

العصف الفكرى:

وإذا كنا قد حددنا من خلال الاهتمام بالمعرفة، وما يواكبها من مهارات ضرورة الاهتمام بهذه الجوانب.. فإن مرحلة العصف الفكرى Brain Storm-ing، وما يتطلبه من حماس واهتمام وتعاون.. وغير ذلك من أحاسيس تدفع الفرد إلى الاندماج فى العمل والارتباط والسعى إلى أدائه بكفاءة - وتكاد تكون مرحلة (العصف الفكرى) هى مرحلة رفع الروح المعنوية وحفز مشاعر الأفراد، ودفعهم إلى العمل والإنتاج باستمرار.

والطفل يحتاج إلى هذه المرحلة، إذا أردنا له أن يبلغ شأواً فى أمر الإنتاج الابتكارى؛ لأن رفع الروح المعنوية للطفل والعمل على تشجيعه هى التى تحكم إلى حد بعيد مستوى أدائه، وهى بدورها التى تدفعه إلى أن يسعى إلى تحقيق مكانته بين الأطفال، وإذا صلح التوجيه، وكانت عملية العصف الفكرى تتم على أسس، تراعى فيها الجوانب النفسية، وتضع فى اعتبارها المهارات والاستعدادات فإن هذه العملية سوف تخرج من كوامن الطفل تلك الأفكار المبتكرة التى يحملها بين جوانبه... كما يحمل البحر فى أحشائه الدر... ولا يعرفها إلا الصياد الماهر، الذى يبحث ويفكر ويكافح للحصول على الجواهر والصدفات اللؤلؤية!!

والملاحظ على كل الإجراءات السابقة أنها تقودنا إلى ما يسمى بالإرشاد النفسى الجمعى، ذلك الذى يعتمد على ما يقدمه من توجيهات وإرشادات محاولة منه للتغيير وتحويل السلوك، من وضع معين إلى وضع آخر، يواكبه أداء منظم وتخطيط سليم.

ويمكن أن نعرف الإرشاد الجمعى على هذا المستوى بأنه محاولة للتغيير؛ خاصة عندما يكون هناك سلوك مضطرب، أو بعض عوامل الخوف، التى قد تعترى بعض الأطفال المبتكرين عند مزاولتهم للمناشط أو الأعمال، التى تتطلب إظهار المهارات الابتكارية. ويمكن توظيف الإرشاد الجمعى لبعض الأطفال الذين تظهر عليهم أعراض الاضطرابات أو الخوف، من خلال بعض الطرق التى تحقق لهم التفاعل مع جماعة الزملاء.

ويعتبر أسلوب جماعة المواجهة Encounter Groups أو جماعات تدريب الحساسية من الأساليب، التى تهدف تطور الشخص من الناحية النفسية من خلال التفاعل مع الجماعة، ويعوده هذا الأسلوب استخدام الصراحة والطلاقة والأمانة عن طريق التعبير عن مشاعره نحو الآخرين فى داخل جماعة الأطفال أو خارجها.

والإرشاد الجمعى تتجلى أهميته كتكنيك من التكنيكات الإرشادية، التى قد تساعد على تنمية قدرات الأطفال الابتكارية على الوجه الآتى:

* يعطى الطفل الفرصة للتعلم من خلال الجماعة، ومن الخطأ أن نتصور أن العمل مع الجماعة يعطل القدرات أو يقلل من الإنتاج الابتكارى؛ لأن الطفل فى حضرة الجماعة يتعلم كيف يتبادل الرأى، وكيف يوظف ما تعلمه إلى جانب ما يتعلم من أساليب قيادية، من شأنها أن تجعله يحقق الوصال بينه وبين الطفل الآخر.

* تضع الجماعة اعتماداً على لوائح ونظم البرنامج بعض المعايير، وذلك ما يجعل الأطفال يتعلمون كيف يضبطون تصرفاتهم ويتفاعلون مع غيرهم، فيتجهون إلى السلوكيات المرغوبة ويبتعدون عن السلوكيات غير المرغوبة.

* يمكن هذا الأسلوب الإرشادى من تغيير المعايير الخاطئة، التى قد تنتشر بين الأطفال كالميل للتهجم والنقد غير المنطقى، أو التكاسل عن القيام ببعض الواجبات الملقاة على عاتقهم.

وهكذا يتمكن الطفل من خلال هذا الأسلوب الرشيد أن يكون صداقات جديدة أيضًا على الدعم المعنوى، الذى يمكنه من تقبل مواقف الإحباطات المختلفة، التى قد تواجهه أثناء ممارسة العمل، الذى يعبر من خلاله عن قدراته الابتكارية.

* يتعود الطفل من خلاله تفاعله من الجماعة أن يضع لنفسه محكات، يتعرف من خلالها مدى تقدمه بالنسبة للأقران، ويكون قادراً بالتالى على تصحيح بعض تصرفاته الخاطئة، التى قد تؤدى إلى إزعاج الأطفال الآخرين وإثارة الضيق لديهم، وأن يدعم بفضل التوجيه المقدم إليه بعض التصرفات، التى قد تجعله مقبولاً وجذابًا من الآخرين.

* من الممكن خلال هذا الأسلوب الإرشادى أن تستخدم الجماعات أسلوب لعب الأدوار، وهو يعتمد على الأداء التمثيلى المتسم بالمرونة، من خلال استخدام الأدوار كوسيلة تنفيسية من وسائل اكتشاف المشكلات الشخصية؛ إذ يستطيع الطفل أن يعبر ويبتكر ويؤدى باستبصار، اعتماداً على توجيهات معينة وإرشادات محددة.

* بقدر ما تدفع الجماعة الأطفال إلى العمل بقدر ما تظهر قدراته، ويساعد هذا الأسلوب الإرشادى على أن يخرج كل طفل قدراته، وأن يختار الوسيلة الملائمة اعتماداً على الموجه، والتى تساعد على اكتشاف قدراته وسط الجماعة.

* يستخدم أيضًا منهج جماعات المواجهة لتدريب بعض الأطفال، من خلال مواجهة الجماعة على تطوير إمكاناتهم الشخصية وتدريب حساسيتهم؛ خاصة عند التفاعل مع الأطفال، أو التعرض للضغوط الاجتماعية أو ما قد يظهر من جماعات الأطفال.

وعندما نقوم بعملية الإرشاد عن طريق جماعات المواجهة، أو عندما نقوم بأى إجراء إرشادى فلابد من التنبه إلى مجموعة من البروتوكولات، تلك التى تتعلق ببعض الواجبات والحقوق.

ولابد من تعويد جماعة الأطفال الجوانب الآتية:

١- احترام مواعيد الجلسات الإرشادية، على أن يكون الحضور والانصراف فى الأوقات المحددة.

٢- تنفيذ كل الإرشادات مع مراعاة الفروق الفردية والمتابعة المستمرة.

٣- التمييز بين المشكلات، والحرص على أن يعطى الفرصة كاملة للتعبير عنها، مع الالتزام التام بأن تظهر هذه المشكلات على أرضية من التفاهم والتفاعل، والحرص على الطفل ونموه بطريقة سليمة.

أساليب ينبغى مراعاتها فى العمل مع الأطفال أثناء البرنامج:

* العمل على تخفيض مستوى القلق والتوتر، الذى قد يعترى بعض الأطفال.

* استخدام بعض المدعمات المادية مثل (الطعام أو المرطبات)؛ بحيث يشعر الطفل بالمناخ الملائم، الذى يساعده على إظهار قدراته والتعبير عن مهاراته واستعداداته.

* من الممكن أن نقسم الأطفال جماعات صغيرة؛ بحيث يتم بينهم التجانس، الذى من شأنه أن يجعل أصحاب هذه الجماعات الصغيرة يتبادلون أطراف الحديث، ويتبادلون الرأي والتشاور حول ما يجعل قدراتهم فى أعلى وأبهى صورة.

* أن يتم العمل والتعامل مع الأفراد (الأطفال) على أسس صحيحة، وأن يكون التنافس بينهم على أساس صحى يؤدى إلى زيارة جاذبية وتفاعل جماعة الأطفال ومدحهم؛ خاصة عندما تصدر منهم استجابات تستحق ذلك، ومن الممكن أن يتم ذلك من خلال استخدام أجهزة التسجيل بالفيديو أو أجهزة التسجيل السمعية.

* ويعتبر أسلوب العصف الفكرى Brain Storming، الذى استخدمه Osborn من الأساليب التى تساهم فى تحقيق تماسك الجماعة، وتزيد من جاذبيتها، وتساعد على إظهار مهاراتهم وتعبر عن قدراتهم.

ولكى تتم ترجمة هذه المطالب إلى سلوكيات إجرائية، فلابد من التركيز على تحقيق التعاون والتفاعل بين أفراد الأطفال ـ وعلى الموجه والمرشد أن يساعد الأطفال على تحقيق هذا التفاعل.

ولهذا.. فمن الضرورى أن يعمل الجماعة على توزيع نسبة التفاعل بين الأطفال؛ بحيث عندما يتاح لكل طفل أن يقوم بدوره متفاعلاً، فإن هذا الدور يمكنه من أداء المهام الملقاة على عاتقه بسهولة.

وبطبيعة الحال.. فإن هذا الأمر ليس دائمًا سهل التحقيق؛ فالأطفال يتفاوتون فيما بينهم فبعضهم نجده يتحدث أكثر وينشط أكثر، وهناك بعضهم الآخر الذى قد نجده يتحدث أقل، وينطق بدرجة لا تمكنه من أداء واجباته، أو الإعلان عن مهاراته.. فلا يملك إلا أن يلتزم الصمت والانزواء، ولعل ذلك مايدفعنا إلى تأكيد ضرورة الاهتمام بالفروق الفردية بين أفراد الجماعة (الأطفال)، فى هذه النواحى المعبرة عن ضعف الاستعدادات المعتمدة على المهارات الاجتماعية، إلى جانب معاناتهم من القدرة على الحديث والتواصل؛ مما ينعكس أثره على كل ما يتعلق بتأكيد ذواتهم وثقتهم بأنفسهم وقد يتم ذلك من خلال تمارين التفاعل In-teractional Games.. تلك التمارين، التى تعمل على تشجيع الأطفال أصحاب المشكلات أو الانسحاب على التفاعل والاندماج.

الرعاية الاجتماعية من المقومات التربوية لتلاميذ المدارس(*):

الرعاية الاجتماعية فى المدرسة

الرعاية الاجتماعية المدرسية هى مجموعة الجهود والخدمات والبرامج، التى يهيؤها أخصائيون اجتماعيون للأطفال والتلاميذ فى المدارس، على اختلاف

(*) المجلس القومى للخدمات والتنمية الاجتماعية «شعبة الرعاية الاجتماعية»، ارجع إلى المجلد الخاص بالدورة السابعة عشر للمجلس، إعداد أ.د/ سيد صبحى، عضو المجلس القومى للخدمات والتنمية الاجتماعية، المجالس القومية المتخصصة، ١٩٩٧.

مستوياتها، بهدف تحقيق ما تصبو إليه التربية الحديثة، وهو تنمية شخصيات التلاميذ لأقصى حد مستطاع، عن طريق مساعدتهم على الاستفادة من الفرص والخبرات التعليمية إلى أقصى مدى، تسمح به قدراتهم واستعداداتهم المختلفة.

ونظراً لأن وزارة التعليم تتبع سياسة ومنهجا محدداً فى الرعاية الاجتماعية.. فإن هذا الدور فى حدود هذه السياسة، وفى حدود ما ينبغى أن يكون هو ما يأتى:

جوانب التربية فى عالمنا المعاصر، ويقصد بها:

* التربية والتعليم حق لجميع المواطنين.
* تكوين الشخصية المتكاملة هو المحور الأساسى فى التربية؛ أى لا يقتصر على تلقين المواد الدراسية.
* أن ينظر إلى التلاميذ نظرة متكاملة من خلال مجموعة من العوامل الجسمية، والوجدانية، والخلقية والعقلية، والاجتماعية، إلى جانب ما يتطلبه أمر تكوينهم من تفاعل فى البحث والتحصيل مع المناخ المدرسى، وما يحيط به من أجواء اجتماعية خارجية.

ومن هذه المبادئ: نجد أن التربية الحديثة تسعى إلى تحقيق الفائدة لأكبر عدد ممكن من المواطنين، من خلال الفرص التربوية المهيأة لهم، كما أنها تهتم بتنمية شخصية التلاميذ فى جوانبها بطريقة متكاملة.

واعتماداً على هذا الهدف الإنمائى للتربية الحديثة.. فإن نمو الشخصية «أو تكاملها» يعنى به أن ينهض الفرد بسمئولياته نحو نفسه ومجتمعه، على وجه يرضيه ويرضى مجتمعه فى آن.

ولابد أن يتم النمو الشخصى عن طريق الاهتمام بناحيتين رئيسيتين: الفرد، ثم علاقاته المختلفة ببيئته ومجتمعه.

والاهتمام بالفرد يكون عن طريق إشباع حاجاته المختلفة سواء أكانت جسمية أم عقلية أم خلقية أم وجدانية أم اجتماعية، كما يكون الاهتمام بشبكة العلاقات

التى يمكن أن يكونها ذلك التفاعل عن طريق تشجيع وتكوين علاقاته السليمة فى بيئته. وبهذا يتم تحقيق حاجات التلاميذ الأساسية منذ مرحلة الطفولة المبكرة. وما يواكبها من مراحل إنمائية أخرى.

وإذا تحددت مهمة التربية على هذه الصورة، أمكن إدراك المجالات التى من الممكن أن تعمل فيها خدمات الرعاية الاجتماعية؛ لتعين التربية الحديثة فى الوصول إلى أهدافها.

وهذه المعاونة تتبلور فى صورة عمليات مختلفة، تتم خارج نطاق حجرة الدراسة، وتهتم هذه العمليات بتنمية النواحى المختلفة لشخصيات التلاميذ، كالقوى الجسمية والصحية، والقدرات العقلية، والجوانب الوجدانية، والقيم الخلقية والجمالية.

ومن ثم.. فالرعاية الاجتماعية تبدأ فى أداء دورها، كما حددت وأشارت هيئة الصحة النفسية العالمية فى ميثاق العمل الاجتماعى والنفسى ١٩٩٣، بند ١٥ الباب الأول، بأن مهمتها: تحقيق هذا التكيف المنشود، والعمل على توفير الجو المدرسى الملائم لاستقبال الصغار، حتى تصبح المدرسة مجتمعًا يربط الطفل باهتمامات لاتقل فى شدتها وتأثيرها عن اهتماماته الأسرية، مما يؤكد أن مهمة المدرسة تعد امتدادًا لوظيفة الأسرة فى عملية التنشئة الاجتماعية، وما تتطلبه من توفير لجوانب الرعاية اللازمة لنموهم، والعمل على إشباع حاجاتهم، والكشف عن قدراتهم ومهاراتهم ومتابعتها، والقيام بتقصى مشكلاتهم وإرشادهم إلى الطرق والوسائل السليمة لحلها.

أهمية الرعاية الاجتماعية فى المدرسة:

اعتمادًا على تطوير وظيفة المدرسة فى الوقت الراهن، وتماشيًا مع تطور المجتمع وحركته السريعة وما يواكبها من مشكلات.. أصبحت المدرسة مؤسسة تربوية لها أهدافها الاجتماعية، بعد أن كانت تركز كل اهتمامها على تلقين التلاميذ المقررات المدرسية.

ولعل ذلك ما يجعل الرعاية الاجتماعية فى المحيط المدرسى تمثل ضرورة؛

لأنها مكملة لرسالة المدرسة فى إعداد التلاميذ؛ لكى يكون فى مقدورهم التعامل مع حياتهم الاجتماعية، حيث تهدف الرعاية الاجتماعية ـ من خلال الخدمات والبرامج التى يقدمها الأخصائيون الاجتماعيون ـ تحقيق أهداف التربية الحديثة، أى تنمية شخصيات الطلاب إلى أقصى حد مستطاع، بمساعدتهم على الاستفادة من الفرص والخبرات المدرسية، بما تسمح به قدراتهم واستعداداتهم المختلفة.

وقد تحدد مفهوم الخدمة الاجتماعية فى المجال المدرسى بالولايات المتحدة على أساس التعريف، الذى تبناه مكتب الخدمة الاجتماعية فى المجال المدرسى بالجمعية الأمريكية للأخصائيين الاجتماعيين، والذى مؤداه: الخدمة الاجتماعية فى المجال المدرسى هى جزء من تعاون مهنى مشترك، بغرض فهم البرامج المدرسية، وتقديم المساعدة للتلاميذ الذين يواجهون صعوبات فى الاستفادة من موارد وامكانات المدرسة بكفاءة، ويصبح الغرض من هذه الخدمة الاجتماعية هو تقديم المساعدة للتلميذ، الذى يواجه صعوبات باستمرار؛ لوقايته من خطورة تلك الصعوبات حتى لا يستحيل علاجها بعد تفاقمها.

واستنادًا إلى ما سبق يمكن أن نشير إلى أهم التعريفات، التى تحدد أسلوب ممارسة الخدمة الاجتماعية المدرسية، على النحو الآتى:

* الخدمة الاجتماعية المدرسية (وما تمثله من رعاية اجتماعية) مهنة إنسانية تهدف رفع الكفاية التعليمية، خلال مجموعة من الممارسات، يلعب فيها التلميذ دورًا كحالة فردية، أو كعضو فى مجتمع مدرسى، أو كشخص لبيئة محلية.

* الخدمة الاجتماعية المدرسية أداة لتغيير التلميذ أو الجماعة أو المجتمع المحلى، الذى تشع فيه المدرسة الطمأنينة خلال أداء أهدافها، ويتم هذا التغيير تدريجيًا منطلقًا من الإطار القيمى الخلقى، الذى يتمثل فى المعايير التى يضعها المجتمع (الأم) أو ما يطلق عليه «المجتمع الأصلى».

* الخدمة الاجتماعية المدرسية «عمل علمى»؛ إذ يواجه الأخصائى الاجتماعى

المشكلات - فردية وجماعية ومجتمعية - بمنهج علمي، يتقصى المشكلات ويحددها ويخاطب الواقع تطبيقًا وتجريبيًا، للوصول إلى النتائج والحلول الملائمة.

* الخدمة الاجتماعية أداة أو وسيلة لتحقيق «رفاهية المجتمع المدرسي» عن طريق توظيف الطاقات البشرية المتاحة، وحفزها على العمل البناء، وربط تلميذ المدرسة بالبيئة المحلية: متفاعلاً متعاونًا مثمرًا منتجًا بما يحقق رفاهية المجتمع.

وتشير التعريفات السابقة التى تحدد أسلوب ممارسة الخدمة الاجتماعية إلى أن الخدمة الاجتماعية تتطلع إلى إشباع مجموعة الاحتياجات الاجتماعية للتلاميذ على الوجه الآتى:

١- احتياجات نفسية:

تتمثل فى ضرورة شعور التلميذ بالأمن والتقدير من جانب الآخرين وحرية التعبير عما تجيش به نفسه.

٢- احتياجات اجتماعية:

تظهر فى رغبة التلميذ فى الانتماء والمشاركة والتوافق مع الجماعات التى يعيش فيها.

٣- احتياجات تعليمية:

يقصد بها الرغبة فى تحصيل المعرفة واكتساب المهارات والخبرات المختلفة.

٤- احتياجات صحية:

بحيث تتوافر للتلميذ الصحة البدنية وسلامة الجسم؛ لتمكينه من استخدام طاقاته إلى اقصى حد ممكن.

٥- احتياجات اقتصادية:

تساعد على ارتداء الملبس النظيف المناسب والانتقال دون جهد وتوفير الإمكانات المادية المدرسية للتحصيل المدرسى.

٦- احتياجات ترويحية:

يستطيع التلميذ من خلالها أن يمارس أنشطة وهوايات تقابل طاقاته، وتكسبه مهارات ضرورية لحياته الاجتماعية والاقتصادية مستقبلاً.

وتتخذ هذه الاحتياجات أشكالاً وصوراً اجتماعية متفاوتة من مرحلة تعليمية إلى أخرى نتيجة لتفاعل الأوضاع المدرسية الجديدة مع أوضاع التلميذ نفسه، والتى يأتى بها إلى المدرسة، فالتلميذ فى مرحلة التعليم الأساسى (ابتدائى وإعدادى) كمجتمع مدرسى صغير، قد يجد نفسه مطالبًا بأن يتكيف مع جماعات مدرسية جديدة، تخالف جماعات الجيرة التى عاش فيها سنى حياته الأولى «ما قبل المدرسة»، كما يواجه التلميذ مسئوليات جديدة ترتبط بالتحصيل الدراسى؛ فهى بالنسبة له تمثل مسئولية جديدة.

أما التلميذ الذى يتابع دراسته فى (المرحلة الثانوية) كمجتمع مدرسى أكبر.. فإنه يرغب فى الانتماء إلى جماعات، تمنحه الأمن والتقدير وتأكيد حريته الشخصية، بالإضافة إلى مشاكل المراهقة الأخرى: العقلية والنفسية والاجتماعية الناجمة عن مواجهة نموه فى هذه الفترة من العمر.

مجالات الرعاية الاجتماعية للطلاب:

ويلاحظ أن للأخصائى الاجتماعى التعليمى دوره فى تنفيذ الخدمات الاجتماعية فى المدرسة، فهو بجوار كونه طاقة فنية تعاون المدرسة على أداء وظيفتها الاجتماعية، يقع على عاتقه تنفيذ خدمات اجتماعية تعليمية مباشرة فى المجالات التالية:

أولاً: فى المجال الإنشائى:

تمكين الطلاب من التنشئة الاجتماعية الصالحة عن طريق:

أ- توفير الجماعات المنظمة وإتاحة الفرص الكافية لاشتراك أكبر عدد ممكن من طلاب المدرسة فيها؛ بما يكشف عن مواهبهم وميولهم وقدراتهم.

ب- تهيئة الخدمات والمشروعات التى تقابل الاحتياجات الأساسية للطالب كتوفير واستثمار أوقات الفراغ فى الأندية ومراكز الخدمة الاجتماعية والمعسكرات

وغيرها من البرامج التى تعاون الطالب على تحقيق نموه الانفعالى والاجتماعى والفكرى والبدنى.

جـ - استخدام الإمكانات التى تساعد على توجيه الطلاب تعليميًا ومهنيًا، عن طريق المناهج والنشاط بأنواعه، وبحيث تكون المناهج والخدمات الاجتماعية وحدة متكاملة.

د - توفير ألوان متنوعة من الهوايات وتشجيع الطلاب على ممارستها داخل المدرسة وخارجها، حتى يستفيدوا منها فى استثمار وقت فراغهم وفى حياتهم العلمية المستقبلة.

ثانيًا: فى المجال الوقائى:

وقاية الطلاب من التعرض لمعوقات أو صعوبات عن طريق:

أ - تعاون كل من الأسرة والمدرسة فى رعاية الظروف الصحية للطالب، بتوفير وسائل الوقاية الصحية والنفسية والاجتماعية وتمكينة من الإفادة منها.

ب - رعاية الظروف الانفعالية للطلاب بتبصيرهم بمشكلاتهم واتجاه كل من المدرسة والأسرة إلى التعامل معهم، وتمكين الطلاب من الاشتراك فى مجال الإدارة الذاتية دعمًا لثقتهم فى أنفسهم، وتمكينًا لهم من استعادة توافقهم واستقرارهم الانفعالى.

جـ - رعاية الظروف الاجتماعية للطلاب داخل المدرسة وخارجها، تمكينًا لهم من الإفادة إلى أقصى حد ممكن من المناهج الدراسية، وتجنيبًا لهم من الانحراف أو مواجهة صعوبات لا يستطيعون التغلب عليها وحدهم.

ثالثًا: فى المجال العلاجى:

معاونة الطالب على معالجة ما يقابلهم من مشكلات عن طريق:

أ - مساعدة الطلاب على مواجهة المشكلات الانفعالية، التى يمرون بها كالقلق وفقدان الثقة بالنفس والشعور بالنقص والعدوان والانطواء.

ب - مساعدة الطلاب على مواجهة التخلف الدراسى، الذى يرجع إلى أسباب

ذاتية، أو بسبب ضعف مستوى ذكاء بعضهم، أو لعدم توافق البرامج الدراسية مع قدراتهم وميولهم، أو لإهمالهم واجباتهم الدراسية، وما يترتب على ذلك من تصرفات مضطربة كالهروب وعدم الاستمرار في الدراسة.

جـ ـ مساعدة الطلاب على مواجهة مشكلاتهم الاجتماعية، والتي قد تتمثل في المستوى الاقتصادي للأسرة أو لوجود اضطرابات عائلية أو غير ذلك.

* والتلميذ خلال مواجهته لاحتياجاته الأساسية أو احتياجاته المتجددة، يستطيع أن يحققها بقدراته الذاتية، أو عن طريق المساعدة الأسرية أو المدرسية أو المجتمعية . . . وفي الوقت نفسه قد يعجز عن مقابلة هذه الاحتياجات.

* ومن ثم لابد للخدمة الاجتماعية المدرسية أن تقدم للتلميذ داخل مجتمعه المدرسي وخارجه عديداً من جوانب الرعاية الاجتماعية حتى يستطيع أن يواجه هذه المشكلات التي قد تؤثر عليه كفرد وعلى حياته المدرسية، وحتى لا تعوقه عن التحصيل أو السير في ركب المجتمع المدرسي.

ولما كانت المؤسسات التعليمية المتمثلة في المدارس تنتشر في ربوع جمهورية مصر العربية ـ من المدينة الكبرى إلى أصغر نجع أو كفر ـ كان لابد للخدمة الاجتماعية المدرسية من تمكين دور التعليم على أداء رسالتها في التربية والتعليم، والإسهام بصورة أكبر في وضع تصور الرعاية الاجتماعية في المجال المدرسي.

جوانب الرعاية الاجتماعية في المدرسة:

وفيما يلي أهم صور الرعاية الاجتماعية في المجتمع المدرسي والدور الجوهري للأخصائي الاجتماعي في تنفيذ الخدمات الاجتماعية في المدرسة، من خلال:

أ ـ خدمة فردية.

ب ـ خدمة جماعية.

جـ ـ خدمة مجتمعية.

١- الخدمات الفردية، وتشمل ما يأتي:

أ. في المجالات الفردية:

يقوم الأخصائي الاجتماعي ببحث الحالات السلوكية والنفسية والاجتماعية

والصحية والعلمية للتلاميذ، خاصة من هم فى حاجة إليها، وتطبيق القواعد المهنية والفنية للعمل فى خدمة الفرد (من دراسة وتشخيص ورسم خطة للعلاج والمتابعة)، عند التصدى لبحث هذه الحالات وإعادة تكيف الطالب، كدراسة المشكلات الخاصة بالتحصيل (طلبة متأخرون دراسيًا أو متكررو الرسوب، أو لايميلون للدراسة ويتم بحث الحالات من قنوات مختلفة.

ب- فى مجال المعونات:

يقوم الأخصائى الاجتماعى بحصر الحالات، التى تحتاج إلى معونات اقتصادية معينة، وترتيبها حسب أولوياتها، وسواء كانت نقدية أو عينية.

جـ- فى البطاقة المدرسية:

العمل على تطبيق نظام البطاقة المدرسية تطبيقًا صحيحًا؛ حتى يمكن الاستعانة بها فى بحث الحالات للتلاميذ ومتابعة تاريخهم الاجتماعى.

د- فى البطاقة الاجتماعية:

العمل على تطبيق البطاقة الاجتماعية على وجه الدقة من خلال حصر الطلاب المتفوقين علميًا والموهوبين وقيادات الاتحاد الطلابية، على أن يستمر العمل بهذه البطاقة مدة الدراسة التى يقضيها الطالب بالمدرسة... بهدف حصر الرعاية التى قدمت له، وأنواع النشاط التى يمارسها، والوقوف على مستوى تحصيله الدراسى ومتابعة نموه؛ على أن يتم متابعة هذه البطاقة بصفة مستمرة، وتوضع فى ملف الطالب عند التحويل أو تخرجه فى المدرسة.

وتهدف البطاقة أيضًا تعرف المستويات الفكرية والاجتماعية والبدنية للطلاب، الذين يتعامل معهم الأخصائى الاجتماعى؛ حتى يمكن خدمتهم وفق احتياجاتهم وظروفهم الفردية والجماعية.

هـ- فى مجال رعاية الطلبة المتفوقين:

يقوم الأخصائى الاجتماعى بعملية حصر الطلاب المتفوقين فى النواحى

العلمية والاجتماعية والثقافية والفنية والرياضية، وفقًا لمقاييس معينة يدرب عليها الأخصائى فنيًا ومهنيًا.

و- فى مجال رعاية القيادات الطلابية:

للأخصائى الاجتماعى دوره فى رعاية القيادات الطلابية بالمدرسة، من خلال:

* تتبع المستوى التحصيلى للقيادات بالمدرسة.
* إعداد معسكرات لصقل وتدريب القادة.
* عقد لقاءات مع القادة السياسيين بالمحافظة (مجلس الشعب، مجلس الشورى، المجلس المحلى).
* عقد لقاءات دينية وثقافية بالاتصال بالجهات المختصة (تحت اسم الموسم الثقافى)، وطرح موضوعات مختلفة عن المخدرات أو عن الإضرار بالبيئة وتأثيرها على الشباب، بحيث يتناولها بالتحاليل والمناقشة أحد علماء الطب النفسى والاجتماعى.
* رعاية الطلاب الذين يتوافر فيهم نضج الشخصية والقدرة على حسن التصرف وتحمل المسئوليات؛ لكى يعدوا للقيادة إعدادًا تربويًا صحيحًا.

ز- فى مجال رعاية الطلبة المعاقين:

على الأخصائى الاجتماعى ما يأتى:

* الا يغفل تقديم الرعاية الاجتماعية للطالب المعاق من الناحية التأهيلية، ومن منطلق أن تقدم الدول يقاس بمدى تقدمها فى رعايتها للمعاقين، ومن ثم لابد من حصر عددهم فى المدرسة، مع تحديد نوع الإعاقة سواء كانت (مرض القلب، شلل الأطفال، عجز أطراف، نقص طرف، ضعف السمع الشديد، ضعف البصر الشديد) وتقديم الخدمات والرعاية اللازمة للطلاب المستحقين لها، والاتصال بمراكز التأهيل الشامل للمعاقين؛ لتنسيق الخدمات وتوفير الاجهزة التعويضية لهم، ومساعدتهم

فى الحصول على كرسى متحرك أو عكازين أو نظارة طبية أو سماعة أو دراجة.

* أن يوجه الطلبة المعاقين من ناحية الإعاقة إلى البرامج والأنشطة البديلة، التى تتفق ونوع الإعاقة، وتعوضهم عن ذلك العجز.
* إشراك الطلبة المعاقين فى مباريات رياضية بين المدارس على مستوى المرحلة بالمحافظة تمهيداً لاشتراكهم فى بطولة الجمهورية للمعاقين؛ ومن ثم لتمثيل مصر فى بطولة العالم.
* الاتصال بمكتب الخدمة الاجتماعية المدرسية ومراكز التأهيل الشامل للمعاقين لتنسيق الخدمات والرعاية.
* إقامة معسكرات شاطئية ترفيهية للطلاب المعاقين.
* متابعة حالات المتخلفين دراسيًّا.
* تنظيم رحلات خارجية للمعاقين.
* إجراء بحوث ودراسات واستطلاع رأى حول المشكلات الطلابية للمعاقين.

ح- الغياب العام:

على الأخصائى الاجتماعى ما يأتى:

* أن يرجع لسجل الغياب أسبوعيًا لاكتشاف الحالات المتكررة، حيث إن عدم انتظام الطالب فى الدراسة ونفوره من الجو التعليمى وكثرة غيابه يهيئ له وقت فراغ، قد يستغله فى نشاط غير مرغوب فيه (انحرافات اجتماعية...).
* أن يعمل على دراسة هذه الحالات والوقوف على أسباب ذلك، مثل: كراهية الطالب للمدرسة، أو عدم انسجامه مع زملائه، أو فشله فى الدراسة، أو عدم قدرته على الوفاء بمطالب المدرسة. ومن ثم يقترح

العلاج المطلوب للحالات التى تحتاجه، ويتصل بالجهات التى تعينه فى ذلك وخاصة أسرة الطالب.

ط- سجل الزائرة الصحية:

يجب أن يرجع الأخصائى الاجتماعى بالمدرسة لسجل الزائرة الصحية أسبوعياً - والتى يلزم وجودها فى كل مدرسة أو مجموعة مدارس - لاكتشاف الحالات المرضية، أو التى تدعى المرض لمعرفة أسباب ذلك، وتحديد مدى التمارض، ووضع العلاج الصحيح لهذه الحالات.

ى- فى أوقات الامتحانات الدورية:

يمتد دور الأخصائى الاجتماعى مع الطالب فى أوقات الامتحانات الدورية على مدار العام الدراسى، ومن ثم يشمل دوره توعية الطلاب ورعايتهم بصورة أعم وأشمل فى مثل هذه الأوقات من العام الدراسى، وعليه أن يجعل الطلاب مستعدين للامتحانات بطريقة صحيحة، ويقبلون عليها فى راحة واطمئنان عن طريق إزالة القلق عن نفوسهم، وتبصيرهم بطرق الاستذكار الصحيحة وكيفية تنظيمهم لأوقات الامتحان.

كما أن كثرة الاتصال بالطلاب تساعد الأخصائى الاجتماعى على اكتشاف الحالات التى أصيبت فعلاً نتيجة قرب أيام الامتحانات، وعليه أن يقوم بالتركيز على رعاية هذه الحالات حتى يتحقق لأصحابها الشفاء.

ك- فى أوقات الحصص الاحتياطية:

يقوم الأخصائى الاجتماعى بالالتقاء بالطلاب فى الحصص الخالية - والتى لا يشغلها مدرس بمادة علمية - بواقع حصة أسبوعيًا، ويعمل على إشاعة الاطمئنان فى نفوسهم، ومعاونة من تواجهه صعوبات لمساعدتهم على التغلب عليها، سواء كانت صعوبات فى المواد الدراسية أو صعوبات أسرية أو مدرسية.

٢- الخدمات الاجتماعية:

للأخصائى الاجتماعى دور فعال فى الخدمات الاجتماعية للطالب، من خلال:

* إشراك الطلاب فى الفرق الرياضية المختلفة، وفقًا لميول كل طالب مما يعطيه نموًا جسمانيًا سليمًا.
* أن تتجه الأنشطة المدرسية المختلفة نحو تهيئة المجالات، التى يمارس فيها الطالب الأعمال الفردية والجماعية ممارسة فعلية بأقسام متكافئة، فضلاً عن تكليفه ببعض المسئوليات فى النظافة والنظام المدرسة لتدعيم الحكم الذاتى.
* إعطاء الطالب قسطًا من الحرية كاختيار هواية، واختيار الفريق الذى ينسجم معه.
* أن يعطى الطلاب فى الجو المدرسى مزيدًا من الحرية المنظمة، مع مزيد من المسئوليات حتى يدركوا حقوقهم وواجباتهم قبل أنفسهم وقبل أسرهم ومجتمعهم.
* أن ينمى فى الطالب الشعور الوجدانى، من خلال تدعيمه لشخصيته وتوجيهها إلى المسالك الطبيعية السليمة فى رفق وأناة؛ حتى يثق كل طالب بنفسه ويشب على حب الحق ويحترم رأى الآخرين. والعمل على الاستقرار والطمأنينة فى الحياة المدرسية، عن طريق تكوين علاقات طيبة، وخلق صداقات بين جميع الأفراد معلمين وتلاميذ.
* تدعيم ثقة الطالب بنفسه وتحريره من الكبت والمخاوف وجعله فى مستوى مقبول من الاتزان العاطفى والنمو الروحى، من خلال مساعدته على مزاولة الشعائر الدينية والتدريب على الصفات الخلقية الحسنة، مع إشراك التلاميذ فى الجماعات الخيرية، وإتاحة زيارتهم للمؤسسات التى ترعى المرضى وتساعد المحتاج وتأوى الأحداث، وأن يخرج بهم أيضًا إلى الحدائق العامة والشواطئ حتى يتمتعوا بالطبيعة فى أروع صورها.

* أن ينمى فى الطالب المواطنة السليمة، من خلال بث الروح الوطنية وتنشئته على الاعتزاز بوطنه، وبذلك يقوى إيمانه بحق الوطن عليه وتزداد محبته وولاؤه له.

٢- الخدمات المجتمعية:

على الأخصائى الاجتماعى أن يعمل على ما يأتى:

* وضع خطة لتنظيم تبادل الخدمات الاجتماعية بين المدرسة، وما فيها من هيئات ومؤسسات معنية برعاية الطلاب.

* تشكيل المجالس المدرسية اللازمة، والمعاونة فى تنظيم العمل داخل المجتمع المدرسى، وتحقيق رسالة المدرسة التربوية.

* وضع خطة عمل هذه المجالس ومواعيد اجتماعاتها الدورية وأهداف كل مجلس والأمور المخصصة بدراستها، حرصًا على عامل الوقت أثناء الاجتماع، ومنعًا لتكرار مناقشة موضوعات واحدة فى مجالس مختلفة.

* الإشراف على مجالس الفصول من بداية تشكيلها بالانتخاب حتى نهاية أعمالها وأنشطتها فى نهاية العالم الدراسى، فيعمل الأخصائى الاجتماعى على:

- التبصير بأهداف هذه المجالس.

- توضيح دور كل طالب ممثل، لكل لون من ألوان النشاط (اجتماعى - ثقافى ودينى - رياضى - فنى) بهذه المجالس، وكذلك دور رئيس مجلس الفصل والأمين المساعد والطالب أمين السر (الذى يقوم بعملية التسجيل).

- مساعدة هذه المجالس على تنفيذ الخطط ومتابعتها.

- مسئولية مساعدة مجلس الفصل على وضع الخطط ومتابعتها.

- مسئولية مساعدة مجلس الفصل على وضع الخطط لخدمة الفصل المدرسى.

- تدريب الطلاب عن طريق هذه المجالس على تحمل المسئولية والتعاون مع الغير وانكار الذات ورعاية مصالح الفصل، والتحول من الشخصية الانعزالية إلى الشخصية الاجتماعية.

* العمل مع البيئة والمجتمع، عن طريق:

- تنظيم برامج لدعم الصلة بين المدرسة والمنزل، وتكوين علاقات اجتماعية سليمة مع البيئة الخارجية.
- دعوة ولى الأمر للمدرسة باستمرار؛ للوقوف على مستوى الطالب الدراسى وسلوكه ليزداد ثقة بالمدرسة.
- توجيه الآباء والأمهات إلى الأساليب الصحية فى تربية أبنائهم وطرق معاملتهم فى هذه السن.
- دعم الصلة بين المدرسة والبيئة الخارجية، عن طريق تنظيم الزيارات للمؤسسات الخارجية كالمستشفيات ودور الحضانة ومراكز التأهيل والمنشآت العامة ومديرية الشباب والرياضة والمشروعات الجديدة.
- الإسهام فى الاحتفالات العامة والدينية والمهرجانات المختلفة والمعارض وغيرها.
- إحداث التغير الاجتماعى اللازم للنهوض برسالة المدرسة ورسالة مجالس الآباء والمعلمين؛ حتى تتحول إلى ركائز للتقدم والنهوض بالمجتمع.

البرامج العامة والمشروعات:

يقوم الأخصائى الاجتماعى التعليمى بالتخطيط والإشراف على تنظيم البرامج العامة والمسابقات والمعسكرات والمشروعات، التى تنشط الخدمات الاجتماعية بالمدرسة.

دور الأخصائى الاجتماعى فى الإدارة الاجتماعية:

ينحصر دور الأخصائى الاجتماعى فى الإدارة الاجتماعية فى النقاط التالية:

* وضع الخطة والبرنامج الزمنى للتربية الاجتماعية، ويقوم باعتمادها من ناظر

المدرسة، على أن يرسل صورة منها لتوجيه التربية الاجتماعية لمتابعة تنفيذها.

* وضع ميزانية التربية الاجتماعية وتوزيعها على البنود المختلفة.
* تدريب الطلاب عن طريق الجماعات والبرامج والأنشطة على طريقة التسجيل، وكيفية الإعداد للاجتماعات وإدارتها وتنظيمها.
* تدريب الطلاب على طريقة الإدارة في البرامج العامة والمشروعات والجماعات والمجالس والاحتفالات والمعسكرات.
* يقوم باستخدام الأدوات المعينة لأعمال التربية الاجتماعية كالسجلات واستمارات البحث الاجتماعى، واستمارات الاستبيان، واستمارات المسح الاجتماعى باختلاف أنواعها.

البرامج المطورة للرعاية الاجتماعية فى المجتمع المدرسى:

عند وضع هذه البرامج يجب أن يراعى فيها:

* مقابلة الاحتياجات الأساسية للطلاب.
* استعداد الطلاب لتقبل هذه البرامج.
* أن تهدف لتحقيق خطة التنمية الاجتماعية.
* توفير الإمكانات التى تساعد على تنفيذ تلك البرامج.
* أن البرامج الموضوعة لها فوائد ملموسة نسبيًا للطلاب؛ حتى يمكن كسب ثقتهم، مما يدفعهم إلى الإقبال على المشاركة فيها.

ولكى تتم تلك البرامج المتطورة لعمل الأخصائى الاجتماعى التعليمى، عليه أن يقوم بالآتى:

* الاهتمام بمشاكل رعاية الطلبة الأحداث هو جزء من كافحة انحراف الطلبة، باعتبار أن مكافحة الانحراف مجال تلتقى فيه التربية الاجتماعية للطلبة مع واجب الدولة عامة فى الدفاع الاجتماعى ضد الجريمة، وضد الانحراف السلوكى بوجه عام.

* حصر الطلبة ذوى المستوى الضعيف علميًا من واقع درجات الكشوف؛ تمهيداً لعمل فصول تقوية لهم فى الأجازة؛ حتى لا يلحقوا بفصول المسار الخاص.
* أن يمتد عمل الخدمة الاجتماعية المدرسية مع الطلبة، الذين تحولوا بالفعل إلى فصول المسار الخاص، لتأهيلهم لاختيار التدريب المهنى، الذى يوائم ميولهم واتجاهاتهم ورغباتهم.
* الحصول على مساعدة أماكن العبادة (المسجد والكنسية) فى الحالات التى يحتاج فيها الأمر إلى معونة أخلاقية ـ وتشجيعهم بروح الصداقة ـ كحالات التزمت والتعصب أو الانحراف.
* وجود الأخصائى الاجتماعى بالقرب من لجان الامتحانات يعتبر ضرورة؛ حيث يشيع فى نفوس الطلاب الثقة والطمأنينة ويزيل عنهم القلق، بدلاً من كونه ملاحظًا كالمدرس.
* أن يكون هناك تقويم اجتماعى ومسلكى للطالب فى ألوان النشاط المختلفة فى الجو المدرسة، ومدى إقباله عليها وانتفاعه بها، ومدى قدرته على مواصلة التعليم بالمرحلة التالية.
* الإكثار من الرحلات والمعسكرات والزيارات للمؤسسات المختلفة فى المحيط التعليمى؛ لتعرف معالم البلاد وإدخال عنصر الترويح على الطلاب، على أن يمتد خلال العطلة الصيفية، وألا يكون قاصراً على العام الدراسى فقط.
* حصر الطلاب البارزين فى الرياضة سواء الأسوياء والمعاقين، ووضع نظام للتغذية والإشراف والتدريب والإسعافات، بالتعاون بين الاتحادات الطلابية ومراكز رعاية الشباب، بما يكفل المحافظة على المستوى اللائق للطلبة الأبطال منهم، ويوضح الطريق السليم للتقدم بالمستويات الأخرى فى مراحل الإعداد على أسس علمية سليمة.
* عقد ندوات للطلاب ـ كملتقى الفكر الإسلامى ـ يديرها كبار المتخصصين، ودعوة أحد الأئمة ورجال الدين للرد على تساؤلات الطلاب، فيما يسود من تيارات واتجاهات منحرفة. وكذلك ندوات ثقافية لتوعية الطالب بعروبته

وبلده مصر؛ حتى يكون داعيًا لها غيورًا عليها معتزًا بها لدرجة التضحية فى سبيل رفعتها.

* عمل رحلات سياحية مخفضة للطلاب فى الأجازات الصيفية.
* تعرف أسباب مشكلات الطلاب من خلال تدريبهم على إعداد البحوث والدراسات؛ تمهيدًا للقيام ببحوث شاملة، تساعد على وضع سياسة لعلاج هذه المشكلات.
* فتح مشروعات لتشغيل طلاب المدارس، بالتنسيق مع جمعية رعاية الطلاب والشئون الاجتماعية ومستوى الطلاب بالمحافظة.
* توجيه الأسرة للتعاون فى علاج مشاكل الطالب وإبعادهم عن رفاق السوء، والإفادة من المؤسسات الترويحية للوقاية من الانحراف.
* معاونة الوحدات المحلية الشعبية فى نظافة الحى والمنطقة المحيطة بالمدرسة؛ تدعيمًا لنظام الإدارة لنظافة وتزيين الميادين العامة والنافورات والتشجير.
* للأخصائى الاجتماعى إسهاماته الفعالة فى البرامج الاجتماعية من زيارة للمرضى فى المستشفيات ومؤسسات الأحداث ومراكز التأهيل الشاملة للمعاقين؛ مما يساعد على توطيد العلاقات وتنمية روح المحبة.
* كما أن له دوره فى مساعدة الهيئات فى بحوثها ومشروعاتها.

التوصيـات

وعلى ضوء ما سبق، هناك مجموعة التوصيات التربوية والنفسية، هي:

العمل على إيجاد العلاقة المتكاملة بين الأخصائي الاجتماعي والأخصائي النفسي، على أن يعمم الأخصائي النفسي في المدارس بمراحلها المختلفة؛ فالرعاية الاجتماعية تحتاج إلى الرعاية النفسية وتتكامل معها.

* الاهتمام بالطلاب المتفوقين وتشجيع الاشتراك في الأنشطة المختلفة وممارسة الهوايات لتنمية المواهب، وتمكين هؤلاء الطلاب من التفوق والابتكار، والعمل على إثارة دافع الطموح لديهم، وكذلك الاهتمام بالتلاميذ المعاقين وتقديم الخدمات التأهيلية التي تمكنهم من التوافق السليم.
* الاهتمام بالنادي المدرسي، سواء الذي يعمل طوال العام أو النادي الصيفي الذي يجعل من المدرسة مركزاً للإشعاع في البيئة المحيطة، ويضفي على عمل الأخصائي الاجتماعي قيمة وظيفية، تبعده عن الجوانب الشكلية في أداء مهمته.
* الاهتمام بالمسابقات الدينية وتشجيع التلاميذ على الالتزام بالمنافسة الشريفة؛ مما ينعكس أثره على شخصيات التلاميذ وتنميتها في المسار الصحيح والطريق القويم.
* الاهتمام بالبطاقة المدرسية بحيث تواكب التطور الإنمائي للتلاميذ، وتستمر مع مراحلهم الدراسية لتعطي صورة صادقة عن أحوالهم: الصحية، والاجتماعية، والتحصيلية، والخلقية، وتحدد قدراتهم وهواياتهم في المراحل المدرسية المختلفة.

* الاهتمام بعقد دورات تدريبية للأخصائيين الاجتماعيين بالاشتراك مع المؤسسات الاجتماعية والعلمية والثقافية والدينية الموجودة في المجتمع المحلي؛ بحيث يشارك فيها الخبراء والفنيون لإيجاد علاقات قوية بين المدرسة وهذه المؤسسات؛ للاستفادة منها في مجال الرعاية الاجتماعية للطلاب.

* الاهتمام بالتوعية الدينية والحرص على غرس قيم العمل والمواطنة الصالحة للفرد والمجتمع.

* ضرورة وعي الإدارة المدرسية بالدور المهم، الذي يؤديه الأخصائي الاجتماعي في المدرسة، وأن يترجم هذا الوعي في تدعيم خدمات الرعاية الاجتماعية، مع تسهيل كل الإجراءات، التي من شأنها أن تساعد الأخصائي الاجتماعي على أداء مهمته واختصاصه.

* الاهتمام بمشروعات الخدمة العامة والإدارة الذاتية ومعسكرات العمل، التي تمكن التلاميذ من التفاعل المثمر والعمل الجاد، وتغرس فيهم الانتماء السليم والسلوك القويم.

* عقد دورات تدريبية للأخصائيين الاجتماعيين؛ حتى يكون الأخصائي الاجتماعي على علم ودراية بالنواحي الاجتماعية والنفسية للتلاميذ.

* ضرورة إتاحة المساحة اللازمة في المدارس لممارسة الأنشطة الرياضية والهوايات، وقد يكون من الممكن للتغلب على هذه المشكلة أن تتعاقد المدارس، التي تفتقر إلى الملاعب مع مراكز الشباب المحيطة بها.

* ألا تكلف المدرسة الأخصائي الاجتماعي بأي عمل خارج تخصصه الأصلي. ولابد أن توفر له الإمكانات من حيث المكان والتجهيزات الملائمة، وأن يتاح له الوقت الكافي لممارسة الأنشطة الاجتماعية، خلال البرنامج الدراسي اليومي.

* أن يتم توزيع الأخصائيين الاجتماعيين على المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية بشكل يسمح بمواكبة كثرة أعداد التلاميذ، حيث يتعامل الأخصائى الآن مع ٥٠٠ تلميذ على الأقل (انظر الجدول المرفق)، وهذا لا يتيح لخدمات الرعاية الاجتماعية أن تؤدى مهمتها بسهولة ويسر، إلى جانب عدم وجود الأخصائى الاجتماعى فى بعض إجراءات مهمته.

* نظراً لما يواجه الأخصائى الاجتماعى من أعباء فى أداء عمله، فإن التقدير المادى لابد وأن يراعى هذه الأعباء؛ حتى يتمكن من العمل بالجهد الذى يشعره بهذا التقدير.

* ضرورة إلقاء الضوء على أهمية دور الأخصائى الاجتماعى، الذى ينبغى أن يتكامل مع دور كل من: الطبيب والمعلم ومجالس الآباء، ومع ما تقدمه الزائرة الصحية من خدمات؛ حتى يتم العمل بصورة متكاملة تسود فيه روح الجماعة.

* أن تحرص الإدارة المدرسية على أهمية دور الرعاية الاجتماعية للتلاميذ؛ إذ إن أسلوب التعليم وطريقته وإعداد المعلم فى حاجة إلى إعادة دراسة وتحديث وتطور شامل، والأخصائى الاجتماعى عضو فى منظمة متكاملة لا يمكن إصلاح جزء منها دون بقيتها؛ الأمر الذى يقتضى أن تولى الاهتمام بهذا الدور الاجتماعى لأهميته البالغة فى حياة الطفل واحتياجاته.

بيان إحصائى بعدد الأخصائيين الاجتماعيين والموجهين

لجميع المراحل بمدارس الجمهورية (وفق آخر أحصائية ١٩٩٥)

البيـــــان	الحاجة الفعلية (المطلوبة)	المتاح الآن (الموجود)	العجز	تحت التعيين
الأخصائيون بالمرحلة الثانوية	٦٠٥٢	٣٨٧٧	٢٦٩٠	-
الأخصائيون الأوائل ثانوى	١٧٢٣	١٢٧٦	٥٨٨	٧٤
الموجهون بالمرحلة الثانوية	٣٩٥	٢٣٩	١٥٨	-
الموجهون بالمرحلة الإعدادية	٦٣٥	١٩١	٦٦٤	٥
الأخصائيون الأول إعدادى	٢٨٣٦	٢٢١٦	٨٢١	٣٢
الأخصائيون الاجتماعيون إعدادى	١٠٤٦١	٥٩٣٤	٥٠٣٢	١٤٣
أخصائيـــو المرحـــلة الابتدائيـــة والمشرف الاجتماعى	١٥١١٦	٩٥٠٧	٧٠٢٠	٦٤٢
الأخصائيون الأوائل ابتدائى	٢٨٤٥	٩٦٧	٢٠٤٧	٧
موجهو المرحلة الابتدائية	٨٢٧	٢٥٤	٥٧٣	-
موجهو المرحلة الابتدائية	٧٠	١٨	٧٦	-
وكلاء الأقسام جميع المحافظات	٤٦	٣٥	٣١	-
رؤساء الأقسام (اتحادات طلابية وخدمة مدرسية)	٨٥	٣٦	٤٩	-

* المصدر: وزارة التربية والتعليم ـ إدارة التربية الاجتماعية.

التغير الاجتماعي وانعكاسه على السلوك في المجتمع(*):

التغيرات وآثارها

إن التغيرات التي حدثت ولا تزال تحدث في شتى مجالات الحياة في مصر، وفي المنطقة التي نعيش فيها وفي العالم، تتم بسرعة وشمول لم يعرف لهما مثيل في تاريخ البشرية؛ فالذي كان يحدث في العالم من تغييرات في القرون الماضية، وكان يتم خلال مئات السنين، أصبح يحدث مثله وأعمق منه وأشمل في سنوات معدودات.

لقد تغيرت مظاهر المدنية والحضارة والاتصالات والتكنولوجيا والمعلومات ونتجت عنها معطيات ثقافية واجتماعية جديدة، علينا أن نتعامل ونتفاعل معها، وإلا تخلفنا وزادت الهوة التي تفصل بيننا وبين دول العالم المتقدم.

وبسبب هذه التغيرات تأثرت وتغيرت المفاهيم والقيم والعادات والتقاليد، وانعكس ذلك على بعض السلوكيات؛ مما أدى إلى ظهور التباين والاهتزاز في بعض القيم السائدة في المجتمع.

ومنذ الحرب العالمية الثانية، ومع بداية النصف الثاني من القرن العشرين، مرت مصر بظروف وتطورات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، أثرت بدورها في سلوكيات الأفراد، ويرجع ذلك إلى التغيرات التي جرت في المفاهيم والقيم الموحية لتلك السلوكيات.

التغيرات الأساسية خلال نصف القرن الأخير:

ولاشك أن المفاهيم والقيم المستقرة في وجدان الأفراد وعقولهم، قد تغيرت نتيجة لمؤثرات عديدة خلال الحقبة الماضية؛ مما يقتضي عرض التغيرات الملموسة الواضحة، التي طرأت على حياة المجتمع المصري، في النصف الأخير من القرن

(*) عرض على المجلس بتاريخ ٤/١/١٩٩٧، ارجع إلى المجلس القومي للخدمة والتنمية الاجتماعية ١٩٩٧، إسهام الزملاء أعضاء الشعبة، إشراف أ.د./ سيد صبحي، عميد كلية التربية النوعية، القاهرة، ورئيس قسم الصحة النفسية، كلية التربية، جامعة عين شمس.

العشرين، وتتبع هذه التغيرات وآثارها الإيجابية والسلبية، ووسائل تقوية ودعم الآثار الإيجابية منها، والتصدى للسلبيات التى نشكو منها فى أيامنا الحاضرة.

ولعل أول ما يتبادر إلى ذهن المفكرين والكتاب والاجتماعيين عند رصد هذه التغيرات، هو المراحل التى مرت بها التغيرات السكانية فى مصر منذ عهد محمد على، مروراً بعصر اسماعيل حتى ثورة ١٩١٩ وما بعدها، وما صاحب ذلك من آثار اجتماعية واقتصادية؛ فقد شهدت مصر خلال هذه الفترة تغيرات أساسية، كان لكل حقبة منها انعكاساتها على السلوك فى المجتمع.

الحقبة الأولى:

حقبة الملكية والاحتلال البريطانى:

وفيها كان التعليم محدوداً وبمصروفات، كما كان مقصوراً على القادرين، وكانت فئة كبار الملاك هى صاحبة السيادة، كما كانت السلطة الفعلية فى يد الاحتلال البريطانى، وفى مثل هذا المناخ كان طبيعياً أن يحدد السلوك فى المجتمع عاملان أساسيان، أولهما: روح المقاومة الوطنية للاحتلال البريطانى، وثانيهما: روح السخط من انتفاء عدالة التوزيع واستئثار الأقلية الغنية بخيرات المجتمع.

الحقبة الثانية:

ثم جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢، فأحدثت تحولاً مهمًا فى تاريخ مصر، ظهرت آثاره فى المسألة الاجتماعية، فقد صدر قانون الإصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢، محاولاً تغيير خريطة المجتمع فى الريف المصرى، وأتاح قدراً من رفع المستوى الاقتصادى للمزارع.

وحققت الثورة مجانية التعليم العالى والجامعى، بعد أن كانت مقصورة على ماقبله من مراحل، وبذلك استطاع كثيرون من أبناء المزارعين الوصول إلى التعليم الجامعى والعالى، وانتشرت الأنشطة الثقافية العامة، وأنشئت لأول مرة وزارة

للثقافة، وافسح المجال أمام المرأة لتعمل في مختلف الميادين، كما فتحت أمامهم عضوية المجالس النيابية والمناصب الوزارية.

وفي المجال الاقتصادي، أقدمت الثورة على تمصير الاقتصاد المصرى ثم تأميمه، وحل كثير من المصريين محل الأجانب في مجال المال والتجارة والشركات والمصانع، وهكذا فتحت لأول مرة مجالات عمل واسعة أمام المصريين، ودخلت الثورة مجال التصنيع، واتجهت إلى الصناعة الثقيلة، وفتحت في مجالها فرص عمل كثيرة وجديدة، وأضيف إلى عائد الدخل القومي من الإنتاج الزراعي عوائد الصناعة والخدمات المهنية.

وهكذا.. بصورة عامة، تطورت العوامل الاجتماعية والاقتصادية في مصر، وبدأت تؤثر في أحوال السكان الرئيسية وفي عدد المواليد والوفيات والهجرة الداخلية والخارجية والزيادة السكانية، وترك هذا كله تأثيره الاجتماعي.

ومن ثم تميز النصف الأول من حقبة الثورة بعاملين أساسيين، أولهما: إجلاء المستعمر البريطاني، وثانيهما: تحقيق العدالة الاجتماعية، وهو ما كان له أثره في سلوك المجتمع، كسيادة روح الأمل والاعتزاز والانضباط والتطلع إلى مستقبل أفضل.

أما في النصف الثاني من حقبة الثورة، فقد كان التوجه إلى التأميم وتصفية القطاع الخاص، والأخذ بشعارات أهل الثقة قبل أهل الخبرة، والتوجه للتركيز على الكم والتنازل عن الكيف، وكذلك الاهتمام بالصناعة قبل الزراعة، ثم كانت الحروب التي استنزفت ثروتنا الاقتصادية، حتى استدرجنا إلى حرب ١٩٦٧، ثم تفرغنا لحرب الاستنزاف، مما أصاب الكثيرين بالاحباط، وإن كان قد أشعل في نفوس البعض روح التحدي والإرادة القوية لتغيير السلوك، وأخذ الأمور بالجدية والموضوعية.

الحقبة الثالثة:

وهي حقبة الرئيس أنور السادات، الذي جعل همه الأول تحرير الأرض

المصرية واسترداد سيناء، وقد تحقق ذلك بعد حرب ١٩٧٣، ثم جعل همه بعد ذلك إحداث عملية الانتعاش الاقتصادى والاجتماعى، من خلال الانفتاح على العالم الخارجى، والتحول إلى النظام الديمقراطى وتعدد الأحزاب، وتشجيع القطاع الخاص. والتوسع فى التعليم الجامعى بإنشاء عدد من الجامعات فى الأقاليم والمحافظات، وتيسير الهجرة إلى الخارج وعمل المصريين هناك، وإنشاء مدن ومجتمعات عمرانية جديدة، واستزراع الصحراء وتوسيع الرقعة الزراعية، وبالفعل حدث تغير كبير فى كل هذه المجالات، وكانت له انعكاساته على السلوك فى المجتمع؛ بعد استعادة الكرامة وروح النصر مع حرب أكتوبر، وإحياء القطاع الخاص، والسماح بتعدد وجهات النظر السياسية.

وكان من أوضح الآثار التى ترتبت على المتغيرات السكانية فى هذه الفترة: زيادة الهجرة، والهجرة المؤقتة على وجه الخصوص، وهى ظاهرة تستحق الاهتمام والدراسة المتأنية، وقد أفرزتها الظروف المتغيرة فى مصر، وفى الأقطار العربية البترولية؛ فعند بداية تطور دول الخليج لجأت مصر وغيرها من دول الجوار السابقة فى حضارتها كالعراق وسوريا، فاستعانت بأبناء هذه الدول فى بناء المدن الجديدة وشق الطرق وتشييد المدارس والمستشفيات، وهكذا هاجر من مصر فى أوائل السبعينيات أعداد كبيرة من المعلمين والمهندسين والأطباء والإداريين وعمال البناء وغيرهم.

ويتراوح عدد الذين هاجروا هجرات مؤقتة حوالى ٥ ملايين، يمثلون مع من يعولونهم من أفراد أسرهم نحو ثلث سكان مصر، كانوا يحولون نحو ٧ مليارات من الجنيهات، وهو ما يفوق دخل قناة السويس وعائدات النفط المصرى.

وفتحت العراق باب الهجرة أمام المزارعين منذ أكثر من عقدين، وهى أول دعوة لهم ليعملوا فى الخارج، ولاشك أن الهجرة إلى البلاد النفطية ـ وإن كانت مؤقتة ـ غيرت من سلوك المصريين المهاجرين، وأنماط مساكنهم ومعيشتهم ونظرتهم إلى الحياة عامة.

الحقبة الرابعة:

وهى التى مازلنا نعيشها ـ حقبة الرئيس محمد حسنى مبارك ـ وقد واجهت مصر فى السنوات الأخيرة تحديات كثيرة، كان لابد من مواجهتها، وكان لذلك انعكاساته على السلوك فى المجتمع.

ومن أبرز هذه التحديات مشكلة الانفجار السكانى، وهى مشكلة عويصة، استلزمت إنفاق مليارات الجنيهات على إعادة بناء وتوسيع البنية الأساسية والمرافق العامة، التى تهالكت وعجزت عن مواجهة المتطلبات المتزايدة، إضافة إلى التوسع فى مجالات التعليم والصحة والنقل والطاقة والإسكان، وكذلك مواجهة الأعباء المتراكمة نتيجة تأثر اقتصاديات البلاد ـ فى الفترات السابقة ـ من توالى الحروب.

وكان فى مقدمة هذه الأعباء: كثرة الديون المستحقة على مصر هى وفوائدها، وزيادة الواردات على الصادرات، وزيادة ما نستهلكه على ما ننتجه، وارتفاع معدلات التضخم، وتزايد البطالة، وتفاقم أزمة الإسكان، وما صاحب ذلك كله من اتجاه بعض فئات الشعب إلى العنف والإرهاب والانحراف، وتسلل الفساد إلى بعض المواقع، مما ترك آثاره على السلوك الاجتماعى، وعلى العلاقات الاجتماعية.

غير أن جهودنا الدائبة مكنتنا من اجتياز معظم المشاكل الاقتصادية، وعبور عنق الزجاجة بنجاح برنامج الإصلاح الاقتصادى التى تمكنت به مصر من خفض العجز فى الموازنة وميزان المدفوعات، واستقرار سعر الصرف، وخفض معدلات التضخم، وإسقاط جزء كبير من المديونية الخارجية، وإزالة عدد من العقبات الاقتصادية والتشريعية التى كانت تحول دون تحقيق انطلاقة اقتصادية، إلى جانب عديد من المشروعات الضخمة، وفى مقدمتها: مشروع توشكى لتعمير جنوب الوادى الذى بدأت خطواته بحفر قناة توشكى ـ والذى يبشر ببدء مرحلة حضارية جديدة، وكذلك مشروع تعمير شمال سيناء وإمكاناته الواسعة، ومشروع «شروق» لتنمية الريف المصرى.

ونستعرض فيما يلي بعض القضايا المؤثرة، ثم نعقب عليها بالمقترحات المناسبة، من خلال التوصيات الواردة في نهاية هذه الدراسة.

أوضاع الهرم السكاني

ويقصد به توزيع السكان حسب الفئات العمرية، والنوع (أي الذكور والإناث)، ويرتكز هذا الهرم في مصر على قاعدة عريضة من صغار السن، تمثل ٤٠٪ من السكان، الذين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة، بينما تصل هذه النسبة في غرب أوروبا إلى ٢٣٪ فقط، ثم تجئ فئة السكان من ١٥-٤٩ سنة، وتبلغ نسبتها في مصر ٤٧,٧٪، بينما تبلغ في غرب أوروبا ٦٨٪، ويليها كبار السن في مصر أي الأكثر من ٦٥ سنة نسبتهم حوالي ٧٪، بينما تصل في غرب أوروبا إلى ٢٥٪.

ويتضح من الهرم السكاني أن نسبة العاملين والنشطين العاملين والنشطين اقتصادياً لا تزيد عن ٥٨٪ من شريحة السكان في سن العمل والإنتاج من ١٥ إلى ٦٤ سنة، ومعنى ذلك أن عبء الإعالة في مصر يزيد على ما هو عليه في الدول المتقدمة.

مشكلة الفقر

يتأثر سلوك الإنسان بعاملين أساسين، هما: عقيدته ومثله وقيمه، ثم أحواله الاقتصادية ومدى قدرته على سد احتياجاته المعيشية. وتتلخص المشكلات الاقتصادية التي نواجهها في قضية واحدة هي مشكلة الفقر، ونظراً لغلبة الحس الديني لدى المصريين كافة، فمن المناسب أن نعرض موجزاً للتصور الإسلامي لهذه المشكلة، حيث لم يرجعها إلى الفقراء أو إلى قلة الموارد كما ذهب التصور الرأسمالي، أو إلى علاقات التوزيع كما ذهب التصور الاشتراكي، وإنما أرجعها إلى القصور في استغلال الموارد الطبيعية لا إلى قلتها، وإلى شح الأغنياء وسوء التوزيع لا إلى الملكية الخاصة، ومن ثم حث الإسلام على تنمية الإنتاج كما أمر بعدالة التوزيع.

ولمواجهة مشكلتي الفقر والبطالة، والتي لهما انعكاساتهما السيئة على السلوك

فى المجتمع، أوجد الإسلام ـ منذ بدايته ـ مؤسسة مستقلة عن الجهاز الإدارى للدولة، ليس بموارد ومصاريفها فحسب، بل والعاملين عليها، وهى مؤسسة الزكاة التى هى ـ بالتعبير الحديث ـ مؤسسة الضمان الاجتماعى فى الإسلام، ولم تكن وظيفتها مجرد الإعانة العارضة أو المؤقتة، وإنما تمكين المحتاج من الاكتفاء، ومن إغناء نفسه بنفسه بحث يكون له مصدر دخل ثابت بعينه؛ فمن كان من أهل الاحتراف ولا يجد ما يشترى به الآلات اللازمة لحرفته، أو كان من أهل التجارة ولا يجد رأس المال الذى يتاجر فيه، أو كان من أهل الزراعة ولا يجد الأرض التى يزرعها أو أدوات الرى والحرث؛ فعلى الدولة أن تعطى كل واحد من هؤلاء من صندوق الزكاة كل ما يحتاجه من مال بالقدر الذى يمكنه من مزاولة تجاره أو مهنته، ويعود عليه بدخل يكفيه هو وأسرته على الدوام، ويتحول من مستحق للزكاة إلى معط لها.

هذا . . وقد شاركت مصر بمختلف أجهزتها الحكومية وغير الحكومية فى مارس سنة ١٩٩٥، فى مؤتمر كوبنهاجن، الذى دعت إليه هيئة الأمم المتحدة لمواجهة ثالوث «الفقر، والبطالة، والتفكك الاجتماعى»، ولقيت الورقة التى قدمها الوفد البرلمانى المصرى ـ برئاسة رئيس مجلس الشعب ـ لمواجهة مشكلة الفقر ترحيبًا وتقديراً كبيرين؛ إذ تضمنت إنشاء صندوق أو جهاز مستقل لدعم الفقراء، يمول من مخصصات الميزانية العامة لكل دولة، ومن مساهمات الأهالى ورجال الأعمال ومن المنح والتبرعات، واشترط الاقتراح المصرى أن يتولى إدارة وتخطيط هذا الجهاز أو الصندوق فى كل دولة بعض الشخصيات العامة من خارج الجهاز الحكومى.

والواقع أن الورقة المصرية لمؤتمر كوبنهاجن تمثل عودة إلى الأسلوب، الذى أوجده الإسلام منذ أربعة عشر قرناً؛ إذ تنادى بإنشاء صندوق أو جهاز مستقل: تكون له شخصية مستقلة، ومقر معلوم ومجلس إدارة مستقل، يختار أعضاؤه من الشخصيات العامة ذات الخبرة والسمعة الطيبة، ويتلقى هذا الصندوق كمرحلة أولى زكوات الأفراد اختيارياً وعن طيب نفس، ثم يقوم سنوياً ببيان وإعلان

مقدارها وأوجه إنفاقها حسب أولويات الحاجة، مع استثمار جانب منها في مشروعات إنتاجية، تعود بالنفع على المحتاجين والمستحقين بالفعل.

إن أغلب المصريين بحكم عقيدتهم الدينية يخرجون زكواتهم تلقائياً، وعن طيب خاطر، إلا أنه يتم توزيعها دون تنظيم أو تنسيق، ودون الاستفادة الحقيقية من هذه الأموال ووصولها إلى مستحقيها الحقيقيين، فإنشاء صندوق للزكاة لايكلف أولي الامر شيئًا ولا يلقي على المواطنين أية أعباء مالية جديدة. وكل المستهدف هو تجنب فرضى توزيع الزكاة، أو بعثرة أموالها الطائلة، دون أن توضع في مكانها أو مجالها المناسب.

إن إنشاء جهاز أو صندوق للزكاة بالأداة القانونية المناسبة يعتبر وسيلة لمواجهة مشكلات الفقر والبطالة والتفكك الاجتماعى، كما أن فيه راحة نفسية وشحذا لهمم المواطنين في اتجاه الخير، وهو في الوقت ذاته يرفع عن كاهل الدولة عبء مواجهة مشكلة الفقر، وضرورة ضمان حد الكفاية لكل مواطن، لكى تتفرغ الدولة بجهودها للمسئوليات الرئيسية، ومن أهمها: الحفاظ على الأمن الداخلى والخارجى، ودفع عجلة التنمية تحقيقًا لتقدم مواطنيها ماديًا وروحيًا.

القدوة واختيار القيادات

لا شك أن اختيار القيادات إذ لم يتم وفقاً للمعايير السليمة التى نصت عليها الشريعة والقانون، يؤدى إلى انصراف في السلوك الاجتماعى، وإلى التعسف في استعمال السلطة، والإخلال بالعدالة الاجتماعية والانتقاص من تكافؤ الفرص والاستقرار الاجتماعى، كما يؤدى إلى انعدام المنافسة وفقدان الحماس للتفوق والإبداع فى الدراسة والجد والاجتهاد فى العمل، كذلك يؤدى ضعف الإشراف من جانب القيادات على المرؤوسين إلى الانحراف في السلوك، ويتضح أن العلاقة بين الانحراف فى السلوك واختيار القيادات ـ أيا كان موقعها ـ طردية وليست عكسية، فموضوعية الاختيار تؤدى بالتبعية إلى الحد من الانحراف فى السلوك الاجتماعى، والعكس صحيح.

ظواهر اجتماعية مستجدة

وقد استجدت على المجتمع المصرى فى السنوات الأخيرة ظواهر اجتماعية شغلت المفكرين والناس العاديين، وأرقت الكثيرين، منها: ظاهرة الإرهاب والعنف وفرض الرأى بالقوة، ومنها: التحلل من القيود وإغفال القيم الدينية والأخلاقية، وقيام صراعات مادية ومذهبية، ولم تقتصر على مجتمعنا العربى، بل تفشت فى مجتمعات أخرى كثيرة، بسبب التغيرات الفكرية والخلافات السياسية والاجتماعية التى تتابعت خلال القرنين الأخيرين، وكانت فى جملتها وليدة للتحول الصناعى، ومرتبطة بالاكتشافات العلمية وظهور حركات سياسية وتيارات فكرية شملت مختلف أنحاء العالم.

واتسم هذا العصر فى دول الغرب بضعف نظام الأسرة وتحلله، وكان ذلك بسبب عوامل كثيرة، منها: تركيز الناس على المادة والقيم الاقتصادية دون المعنوية أو الروحية أو الدينية.

وقد استهوت الثقافة الغربية بعض الكتاب المسلمين، فتأثروا بفلسفات الغرب ومذاهبه الفكرية الاجتماعية، ومن ثم ظهر تياران: أحدهما يدعو إلى التجديد فى كل شىء، وآخر يتشبث بقيم المجتمع وتقاليده وآدابه الموروثة.

وانتصر الاتجاه الأول فبدأ التغير فى كثير من المجالات الثقافية والدينية الاجتماعية، وانتشر ذلك بين فئات الشعب، وخاصة الشباب. ونتيجة لعدم الالتفات إليهم أو الاهتمام بهم، بدت ظاهرة التطرف على بعض الشباب، الذين كان يجب إعدادهم بدنيًا وعقليًا ودينيًا؛ حتى يكونوا أسوياء قادرين على تحمل المسئولية والنهوض بها، وهكذا ظهر التناقض بين طرفين: أحدهما يتسم بالغلو فى الدين والتشدد فى فهم أحكامه؛ والآخر يتحلل من الدين والقيم الأخلاقية، وهذا التطرف هو نتيجة سوء الفهم، الذى يؤدى إلى التشدد الذى يرفضه الإسلام، ومن ثم لابد من نشر مبادئ وتعاليم الإسلام الصحيحة فى كل مراحل التعليم وفى الحياة والبيت، وعلينا أن نفرق بين الأسباب المحلية والأسباب الوافدة الموفدة.

وكانت قوة تأثير وسائل الإعلام الحديثة ـ المقروءة والموسوعة والمرئية ـ من أهم التغيرات التى طرأت على المجتمع؛ فهذه الوسائل تملك من الإمكانات الفعالة ما يؤهلها للقيام بدور شديد التأثير فى سلوكيات المجتمع، لسعة انتشارها وقدرتها على التأثير والجذب، ومخاطبة الجماهير باستخدام الفنون المؤثرة التى يقبل عليها الناس في كل مكان، وخاصة الدراما التليفزيونية والأفلام السينمائية، التى تعرض على شاشة التليفزيون.

وقد زادت خطورة هذه الرسائل، بعد أن أصبح العالم أشبه بقرية واحدة، تتمكن فى سماتها وسائل البث التليفزيونى من توصيل ما تحمله من وسائل إعلامية وفكرية وفنية إلى معظم أنحاء الدنيا، فى أسرع وقت، مما لم يكن يدور فى خلد البشر قبل أعوام قليلة.

وبدورنا لا نستطيع أن نمنع ما تبثه القنوات الفضائية مما يكون مخالفاً لمفاهيمنا أو عاداتنا أو معتقداتنا أو سلوكياتنا، وعلينا إذا أردنا أن نتصدى لذلك أن نبدأ بتحليل الواقع؛ فدراسة الواقع من ناحيتى الشكل والمضمون تعد نقطة البداية الصحيحة، التى لابد منها للتطوير والتغيير الإيجابى، وأن نبحث كل العوامل والظروف المحيطة، لنعرف ما هو إيجابى يتطلب دعمه وإثراؤه، وما هو سلبى للحد من آثاره ومقاومته، ثم يبقى أن نحدد الأهداف التى نريد تحقيقها.

من هنا كان لابد من مجال ترشيد السلوك أن يكون الهدف محدداً فى مسارات، يتفق عليها من خلال رؤى مستقبلية واضحة.

وهذه المهمة ليست مسئولية الإذاعة والتليفزيون وحدهما، فهناك مؤسسات أخرى لها أدوارها، ومن الضرورى أن تتكامل جهودها، وأن نصل إلى تحديد الفئات المستهدفة التى توجه إليها برامج الإذاعة والتليفزيون، ؛ فنحدد من نخاطبه ومامستواه العلمى وبيئته وثقافته؛ حتى تكون البرامج الموجهة إليه ملائمة ومحققة للأهداف المرجوة.

وتحتاج عملية ترشيد السلوك بوجه عام إلى فهم كل ما من شأنه أن يؤثر فيما

يصدر عن الأفراد من سلوكيات مرغوب أو غير مرغوب، والإذاعة والتليفزيون يوجهان برامجهما إلى كل الناس فى مختلف الأماكن من كل المستويات التعليمية والثقافية، ولكن إذا كان الأمر يتعلق بمسألة السلوك الرشيد. . . فلابد أن يستند ذلك إلى رؤية علمية واضحة، وتحديد وتحليل كل مفهوم إلى مكوناته، التى يمكن لوسائل الإعلام التعامل معها، كالتطرف والسلبية واللامبالاة وعدم الإحساس بالمسئولية الاجتماعية.

وعند التصدى مثلاً لمفهوم تعاطى المخدرات، يجب تعرف ما ينطوى تحت هذا المفهوم من مفاهيم فرعية، مثل: اختيار الأصدقاء والتفكك الأسرى وطريقة شغل أوقات الفراغ، والتدخين، ومراحل الإدمان والمواد التى تسببه. .

ويجب مراعاة التسلسل والتتابع وعمق المواد المقدمة لكى يحدث تمثل تدريجى لمعانى هذه المفاهيم من جانب الجمهور المستهدف، ويحدث تأثرها فى الاتجاهات والقيم، وهو ما يستند إليه كل سلوك رشيد مطلوب.

وهكذا يمكن النظر بعين تحليلية نافذة، تتناول برامج الإذاعة والتليفزيون فى مجال ترشيد السلوك، على أن يتبع ذلك بيان لما يمكن إضافته وإثراؤها؛ حتى يقوم كل منهما بدور فعال فى مجالات ترشيد السلوك وتعديل الاتجاهات بطريقة رشيدة.

توصيات ختامية

وعلى ضوء ما سبق، وما دار فى اجتماع المجلس من مناقشات، يوصى بما يأتى:

* الاهتمام المستمر فى جميع مراحل التعليم ووسائل الإعلام ودور العبادة، بشرح مبادئ الأديان السماوية وعقائدها وتشريعاتها وقيمها العليا وأخلاقياتها؛ حتى يدرك الشباب - خاصة - مبادئ الأديان السماوية السمحة، وما تحض عليه من أخلاقيات حميد فاضلة.

* إنشاء صندوق مستقل للزكاة يتمتع بالشخصية المعنوية المستقلة، كما ينظم له أسلوب تلقيه للزكوات وأوجه إنفاقها، وتكون له فروع بالمحافظات والمدن والقرى.

* وضع استراتيجية لحث المواطنين على المشاركة الشعبية والجهود التطوعية، والبعد عن السلبية والعزوف الاجتماعى والسياسى، مع توفير الاعتمادات اللازمة؛ للحصول على الخدمات الاجتماعية الخاصة برعاية الطفولة والأمومة والشباب وكبار السن، وكذلك تشجيع الجمعيات والمؤسسات الأهلية العاملة فى هذه الميادين، ودعم دورها.

* تشجيع القيم المجتمعية التى تحض على الشورى والتكافل الاجتماعى، من خلال مختلف مؤسسات التربية والتنشئة الاجتماعية.

* التدقيق فى اختيار القيادات الصالحة لتكون قدوة طيبة للآخرين، سواء فى العمل السياسى أو الإدارى، أو فى الاتحادات والنقابات والجمعيات، وضمان

حسن سيرة هذه القيادات ونزاهتها وإخلاصها فى أداء العمل، والبعد عن استغلال المناصب المواقع فى تحقيق المصالح الخاصة، على أن يكون اختيار القيادات محققاً لمبدأ «الشخص المناسب للمكان المناسب»، مع مراعاة العدالة والمساواة وإتاحة الفرص المتساوية أمام الجميع.

* الحرص على التكامل والتنسيق بين مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، مع ضرورة الاهتمام بمشكلات الشباب المعاصر وتوجيههم، وإرشادهم عن طريق البرامج الفنية والثقافية غير المباشرة، وكذلك برامج الأطفال، مع التأكد من سلامة التوجيه والوفاء بمتطلبات النمو لهذه المرحلة العمرية.

* العمل على رفع مستويات المسرحيات والأفلام السينمائية والتمثيليات والمسلسلات الإذاعية والتليفزيونية من النواحى الفنية والثقافية، لترغيب المستمعين والمشاهدين بمصر والعالم العربى فى هذه الأعمال الفنية، ومن ثم يمكن انصرافهم عن متابعة ما تبثه القنوات الفضائية الأجنبية من برامج محشوة، بما يخالف عقائدنا وأخلاقنا وقيمنا ومثلنا العليا.

* الاستعانة بالمتخصصين فى علوم التربية وعلم النفس والاجتماع لتخطيط البرامج الموجهة للشرائح المختلفة من المستمعين والمشاهدين للأجهزة الاعلامية، بحيث تكون هذه البرامج موحدة الهدف ومتناسقة متكاملة، ومؤثرة بالقدر المطلوب.

* الاهتمام بوضع دراسات وبحوث عملية، سليمة، ترصد مختلف التغيرات، التى طرأت على المجتمع المصرى، خلال النصف الثانى من القرن العشرين، وبيان الإيجابيات التى تستلزم الدعم والتقوية، والسلبيات التى تحتاج إلى التصدى والمقاومة والعلاج.

◆ وجهة نظر ختامية

إذا كانت هذه الدراسة تهدف توضيح أهمية أن يكون الإنسان صحيحاً نفسيًّا فعالاً فى مجتمعه.. فإن الحقيقة التى تكمن وراء هذا الهدف تشير إلى ضرورة وجود البعد الدينى، كأساس من الأسس، التى ترتكز عليها الشخصية السوية، سواء كانت موجهة ومعلمة أو موجهة ومتعلمة.

وإذا كان الناس جميعا ينشدون السعادة ويتطلعون إليها (حتى أولئك الذين ليس لديهم أى إحساس بالحياة الرشيدة والقيم الدينية).. فإن السر فى هذا البحث المستمر عن السعادة قد يرجع إلى ذلك الميل النفسى، الذى يجعل الإنسان بوصفه أسمى المخلوقات، يبحث عن القيم ويقدرها ويعترف بتأثيرها.

والواقع... أن السعادة لا تعتمد فقط على هذا الميل النفسى، ولكن قيمة الحياة تتجلى عندما يكون فيها موضع لخير؛ بحيث يصبح فى وسعنا أن نلمسه ونريده ونتطلع إليه.

وذلك عكس الشر فهو هذا الذى لا نريده ولا نحبه أن يكون ذلك، إذا أردنا لأنفسنا أن نجنبها مخاطر الحياة وما يحيطها من مشكلات وصعاب، وأن نحرص على سعادتها.

وإذا كانت الحياة الإنسانية على وجه العموم تمثل مخاطرة.. فإنه لابد لنا من تحملها والقيام بأعبائها، على اعتبار أن هذه المخاطرة قد تنجح أو قد تفشل، فلابد وأن يعلم الإنسان أن نجاحه أو فشله فى هذه الحياة لن يكون رهناً ببعض الظروف الخارجية، بل سيكون متوقفاً على مدى توافر القيم الروحية والأخلاقية لديه؛ فإذا واجهته الحياة بالمحن والتجارب الشاقة.. فإن استجابته لها بفضل هذه

القيم الروحية لن تكون استجابة الرجل الضعيف المستكين، وسوف يعلن عن صحته النفسية ومقدرته وإرادته على مواجهة إحباطات الحياة، ليس بالصراخ والعويل والشكاوى والتبرم، بل بالاستجابة لها بردود أفعال إيجابية، يؤكد فيها ذاته، ويعلن من خلال إرادته القوية وقيمه الدينية الأصيلة الثابتة رفضه لكل استسلام!

وإذا كانت هذه الدراسة قد تناولت الصحة النفسية من منظور أخلاقى دينى، واسترشدنا فيها بآيات من القرآن الكريم، وأشرنا فى بعض فصولها إلى جهود بعض العلماء العرب فى مضمار الصحة النفسية كرواد لعلم النفس والصحة النفسية.. فإن هذا الهدف من عرضنا لهذه الآراء، وتلك الأفكار قد يتبلور فى حقيقة مهمة مؤداها:

إن العودة إلى القيم الدينية من الأمور الضرورية، التى تحقق للإنسان صحته النفسية، وإن عدم التشبث بالأفكار الأجنبية وما يصاحبها من نظريات قد لا تمثل سوى ذلك العرض المرضى، الذى لا يتفق فى غالب الأحيان مع تراثنا وقيمنا وديننا وعاداتنا... والعودة إلى الدين وأصالة التراث من الأمور المهمة جداً... بعد أن انحرف بنا الطريق، وعشنا سنوات طوال نلوك بألسنتنا تلك المذاهب والأفكار الأجنبية... ولم نصل إلى الحلول لمشكلاتنا، بل وتراكمت المشكلات أكثر... وتعقدت الأمور بصورة مفزعة. وجدير بالذكر أن هذا الاجتهاد قد سبقنا إليه أساتذة أفاضل حاولوا، ونحن معهم أن يؤكدوا هذه الحقيقة المهمة (العودة إلى القيم الدينية، والاسترشاد بعلماء العرب بوصفهم يمثلون الريادة الفكرية).

ولما كان البحث العلمى هو بمعنى ما من المعانى اجتهاد واستفهام وتساؤل.. فإن الأخطاء لابد وأن تحدث فى مضمار البحث العلمى... وعلينا ألا نضيع الوقت فى مجرد تعرف من يقع عليه وزر الأخطاء... بل ينبغى أن نركز اهتمامنا وجهدنا على تحديد من الذى سينال فخر تصحيح الأخطاء.

والحمد لله والشكر على نعمة العقل والفكر تلك النعمة، التى تجعلنا إلى جانب عظيم نعمائه الأخرى، نتوجه إليه سبحانه وتعالى شاكرين طائعين.

ويارب إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة على، وإن ظهرت المساوئ منى فأنت سبحانك منزه عن ذلك، ولك الحجة على. . .

والله يوفق الجميع لما فيه خير أنفسهم والبحث العلمى، وكل ما يحقق الخير لمصرنا الغالية

دكتور/ سيد صبحى
أستاذ الصحة النفسية والعلاج النفسى
كلية التربية جامعة عين شمس

المراجع

أولا: المراجع العربية

القرآن الكريم

ابن جماعة:

تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ١٩٦٥ .

ابن حزم:

طوق الحمامة (فى الألفة والألاف) تحقيق فاروق سعد، مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٧٥ .

ابن حزم:

مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان المكتبة السلفية - المدينة المنورة - ١٩٧٠ .

ابن حزم:

الأخلاق والسير (فى مداواة النفوس)، دار الآفاق الجديدة - الطبعة الثانية - بيروت.

ابن قيم الجوزية:

تحفة المودود بأحكام المولود، دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان - ١٩٧٩ .

ابن قيم الجوزية:

الفوائد، المكتبة القيمة - القاهرة - ١٩٨٠ .

ابن قيم الجوزية:

الجواب الكافى، عيسى الحلبى ـ القاهرة ـ ١٩٥٠ .

أبى الفرج الجوزى:

الأذكياء، مكتبة الغزالى ـ بيروت ـ ١٩٧٠ .

أبى الفرج الجوزى:

أخبار الحمقى والمغفلين، مكتبة الغزالى ـ بيروت ـ ١٩٧٠ .

ابن مسكويه:

تهذيب الأخلاق، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨١ .

البستى:

روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق محمد محيى الدين وآخرين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٧٥ .

الخوارزمى:

مفاتيح العلوم، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٦٢ .

أحمد عبد الغفور عطار:

آداب المتعلمين ورسائل أخرى فى التربية الإسلامية، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٧ .

حسنين محمد مخلوف:

كلمات القرآن (تفسير وبيان)، دار المعارف ـ ١٩٨١ .

زكريا إبراهيم:

ابن حزم الأندلسى ـ سلسلة أعلام العرب ـ ٥٦ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ ١٩٦٠ .

سيد صبحى:

الإنسان وسلوكه الاجتماعى، دار مرجان للطباعة والنشر ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٩ .

سيد صبحي:

المفهومية: دراسة عن الشخصية المصرية ـ ١٩٩٥ .

سيد صبحي:

النمو النفسي للإنسان ـ المكتبة التجارية الحديثة ـ ١٩٩٣ .

سيد صبحي:

دراسة نفسية في الذبحة الصدرية ـ دار الثقافة ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ .

سيد صبحي:

علاج الاتجاهات كأسلوب للعلاج النفسي ـ مجلة كلية التربية جامعة عين شمس ـ العدد الأول ـ ١٩٧٨ .

سيد صبحي:

الرؤية بعيون الآخرين. مكتبة كلية التربية جامعة عين شمس ١٩٩٥ .

صموئيل مغاريوس:

الصحة النفسية والعمل المدرسي، النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٤ .

عبد العزيز القوصي:

أسس الصحة النفسية، دار القلم ـ الكويت ـ ١٩٧٢ .

عبد العزيز القوصي:

علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية، دار النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ .

عبد السلام عبد الغفار:

مقدمة في الصحة النفسية، دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٧٦ .

عباس محمود العقاد:

الإنسان في القرآن الكريم، كتاب الهلال ـ العدد ١٣٦ ـ سبتمبر ١٩٦١ .

فتحي رضوان:

الإسلام والإنسان المعاصر، سلسلة اقرأ ـ دار المعارف ـ ٤٠٦ ـ ١٩٧٥.

فؤاد كامل:

إيريك فروم (الدين والتحليل النفسي)، مكتبة غريب ـ ١٩٧٧.

فيكتور فرانكل:

الإنسان يبحث عن المعنى، ترجمة طلعت منصور، دار القلم ـ الكويت ـ ١٩٨٢.

محمد قطب:

دراسات في النفس الإنسانية، دار الشروق ـ لبنان ـ ١٩٧٩.

مصطفى عبد الواحد:

شخصية المسلم كما يصورها القرآن الكريم، مكتبة المتنبي ـ ١٩٧٥.

محمد علي البار:

خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الدار السعودية للنشر ـ ١٩٨٠.

محمد عثمان نجاتي:

القرآن وعلم النفس، دار الشروق ـ بيروت ـ ١٩٨٢.

يوسف القاضي:

علم النفس التربوي في الإسلام دار المريخ ـ ١٩٨١.

ثانياً: المراجع الأجنبية

1. **Babsky. E:** "Human psychology" Moscow. Volume 1. 1975

2- **Eysenck,** "Fact and Ficition" in psychology, Britain, Penguin Books 1956

3- **Freud, S.** "Three Contributions to the Sexual Theory" pelican Books, 1960

4- **Frankl, V.E.**Man's search for meaning an introduction to logotherapy. A/L a Hobad Better yourself Books, 1974.

5- **Marcuse, H.**" Eros & Civilization", New Jersey: Prentic Hall, 1968.

6- **Wall W.D.** Education and Mental Health 2nd Ed. UNESCO, 1973.

7- **Wall W.D.** "Constructive educatdion Harrop" The UNESCO Press, 1975.

8- **Wilson, J.** Education and the concept of Mental Health Routledge & Kegan Paul, London, 1968, Behaviour Modification.

المحتويات

نماذج من الإرشاد النفسى

فى مجال الخدمة والرعاية الاجتماعية

نبذة عن المؤلف

* أستاذ الصحة النفسية والعلاج النفسى ـ كلية التربية ـ جامعة عين شمس
*عميد كلية التربية النوعية ـ جامعة عين شمس (١٩٩٧ ـ ١٩٩٩)
* أستاذ ورئيس قسم الصحة النفسية والعلاج النفسى ـ كلية التربية ـ جامعة عينس شمس (١٩٩٥ -١٩٩٨)
* رئيس قسم علم النفس التربوى ـ كلية التربية ـ المدينة المنورة ـ جامعة الملك عبد العزيز (١٩٨٧-١٩٩٣).
* مقرر شعبة الرعاية الاجتماعية (المجالس القومية المتخصصة).
* عضو هيئة الصحة النفسية العالمية.
* عضو الموسوعة القومية للشخصيات البارزة بمصر.
* أمين لجنة الترقيات العلمية (مستوى أستاذ مساعد) المجلس الأعلى للجامعات.
* أمين صندوق المركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين.
* حاصل على شهادة الجدارة من مركز السير الذاتية للعلماء البارزين فى مجال التخصص (المملكة المتحدة ـ كمبريدج) ١٩٩٣ .
* حاصل على تقدير مركز السير الذاتية بأمريكا A.B.I للعلماء أصحاب الإنتاج المتميز ١٩٩٤ .
* حاصل على التقدير العالمى من الموسوعة العالمية بكمبريدج لعام ١٩٩٥ للعلماء البارزين فى مجال التخصص.
* عضو المجلس الأعلى للثقافة (شعبة التعليم).
* عضو مجلس إدارة ـ المركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين ـ القاهرة.
* حاصل على جائزة الإنتاج المتميز (علم النفس) من مركز السير الذاتية كمبريدج ـ ٢٠٠٢ .
* عضو مجلس اتحاد الإذاعة والتليفزيون (شعبة التعليم).

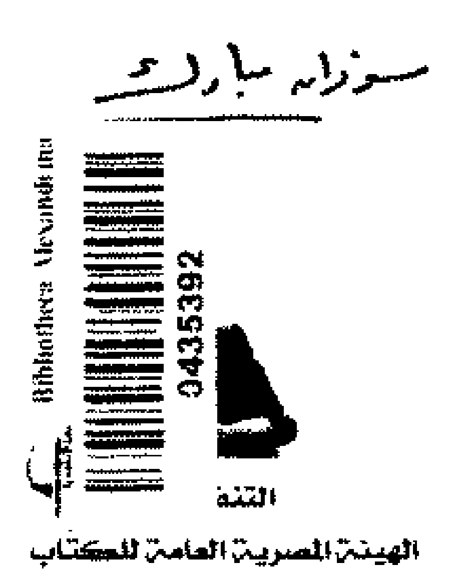
رقم الإيداع ٢٠٠٣/١٢٠٣٩

الترقيم الدولي : I. S . B . N . 977-01-8633 -3



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر مزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زادا معرفيا للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية.

سوزان مبارك



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن : ٣٠٠ قرش